لغة العلوم

- ٧ -

توالي (المعرفة) نشر أجوبة الاساتذة الباحثين والجامعيين في موضوع اللغة العربية وتدريس العلوم الجامعية ، وفيما يلي جواب المهندس الزراعي العلاّمة الاستاذ مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق رسالة من الاستاذ محمد أديب السلاوي الملحق الصحفي بالمكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط مطالعة للاستاذ علي حيدر النجاري .

الاستاذ مصطفى الشهابي

١ – التعليم العالي باللغة العربية :

في الرابع والعشرين من آب « اغسطس » سنة ١٩٥١ ، أي منذ خمس عشرة سنة ، بعثت الي منظمة اليونسكو في باريس برسالة ترغب الي فيها أن أوافي المنظمة ببحث عنوانه المترجم :

« حركة تجديد اللغة العربية التي يجب أن تصلح للتعبير عن حاجات الحياة الحديثة وتصلح للتعليم العالي » .

وجاء في الرسالة المشار اليها أن المنظمة تسعى للحصول على دراسة عالمية عن التعليم باللغات القومية والمحلية ، وأنها عازمة على عقد مؤتمر صغير من الخبراء لمدارسة هذا الموضوع في شهر تشرين الثاني « نوفمبر » من السنة الملمع اليها ، وأنها كتبت الى عدد من الاختصاصيين أن يعالجوا في مقالات لهم جوانب الموضوع اللغوية والانتربولوجية والاجتماعية والسيكولوجية والتربوية ، حتى تكون هذه المقالات والبحوث في يد المؤتمرين .

ومما جاء في الرسالة أن منظمة اليونسكو يهمها ، فيما يختص بتطور اللغة العربية حتى تصلح للتعليم العالي وللتعبير عن حاجات الحياة العصرية ، أن أكون الخبير المختص ، وأن أبعث اليها بدراسة تتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف من الكلمات (من عشر صفحات الى عشرين صفحة) أتناول فيها في ايجاز نشأة حركة التجدد في لغتنا ، والمشاكل التي تعترض عمل العاملين في هذا الباب ، والأساليب التي اتّبعت في إغناء اللغة (اشتقاق ، تضمين، نحت، تركيب مزجي، تعريب) وآراء المحافظين والمتساهلين (في هذه الموضوعات وفي موضوع قياسية بعض الصيغ) ، وأخيراً خلاصة آرائي ومقترحاتي الشخصية .

ومن الواضح ان هذا الطلب معناه أن أوجز في عشرين صفحة كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » الذي تشتمل طبعته الثانيـــة على مائتين وعشرين صفحة . ومن الطبيعي ان تجيء دراستي مقتضبة .

ومع هذا فقد كتبتُها بالفرنسية والعربية وبعثتُ بها في ١٩٥١/١٠/١٤ الى منظمة اليونسكو فجاءني منها بعد حين أن الدراسة المذكورة عُدت مستنداً للعمل ووزعت على خبراء اليونسكو في مؤتمرهم المعقود في شهر تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٩٥١ .

وقد نشرتُ النسخة العربية منها في الجزء الثـــالث من المجلد السابع والعشرين « عدد تموز سنة ١٩٥٢ » من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

والذي يهمكم معرفة الخلاصة التي أنهيتُ بها تلك الدراسة فيما يختص بالتعليم العالي وهي :

الخلاصة :

تتعصب الشعوب العربية للغتها قومياً ودينياً ، وتسعى الدول العربية المستقلة لجعل هذه اللغة صالحة لجميع مراحل التدريس في المدارس الحكومية . ومن المؤكد أنها اليوم تتسع لجميع العلوم التي تدرَّس في التعليم الثانوي ، وفي دور المعلمين الابتدائية ، وفي المدارس الزراعية والصناعية والتجارية المتوسطة .

أما العلوم التي تدرَّس في الجامعات فبعضها يمكن تدريسه بالعربية دون كبير عناء ، كالعلوم الحقوقية على أنواعها ، وكالرياضيات والفلسفة وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والفلك . وبعضها يكون في تدريس مطولاتها بالعربيـة صعوبة يلاقيها الأساتذ كعلوم الطب والهندسة والكيمياء وعلم الحيـــاة وعلم الأنساج وغيرها .

وقد نتج عن هذه الصعوبة كون الطب والهندســة يدرَّسان الآن

بالانكليزية في جامعات القاهرة وبغداد . أما الجامعة السورية في دمشق فهي تدرّس العلوم بالعربية في جميع كلياتها : (طب،صيدلة ، طب أسنان ،هندسة، علوم ، آداب ، حقوق ، دار المعلمين العليا) . وقد خدم أساتذها العربية بإيجاد مصطلحات علمية عديدة ، وبتأليف مؤلفات عربية مفيدة في الدروس التي يلقونها على التلاميذ .

ويجب أن لاننسى أن ثمة مصطلحات علمية عديدة لم يجد أساتيذ تلك الجامعة لها مقابلاً عربياً فعربوها ، أي استعملوها كما وردت بالفرنسية بعد وضعها في قالب عربي ، كما أن الكتب التي الفوها محدودة لاتسمح لخريج الجامعة بأن يوسع معلوماته في بعض العلوم .

وبناء على هذه الملاحظات وغيرها يمكننا القول بأن للمفكرين العرب ثلاثة آراء في لغة التعليم العالي : الاول جعل التعليم العالي كله بلغة اجنبية . واصحاب هذا الرأي قلة ليس لها كبير تأثير ، والعمل به مضر باللغة العربية ضرراً كبيراً .

والثاني تدريس بعض العلوم بالعربية ، وبعضها بلغة أجنبية ، على ماهي الحال عليه في جامعات مصر والعراق . واصحاب هذا الرأي كثيرون في ذينك القطرين .

والرأي العام متجه إلى تعميم التعليم بالعربية عندما تتقدم أعمال وضع المصطلحات العلمية في المجامع اللغوية ، ولا سيما في مجمع مصر .

والثالث جعل العربية لغة التدريس في جميع العلوم العاليـة . وهذا الرأي السائد في سورية يحتاج على مأرى الى مراعاة الأمور الآتية :

١ — اتقان تدريس لغة أجنبية كبيرة (كالفرنسية أو الانكليزية) في المدارس الثانوية .

٢ – تدريس تلك اللغة في كليات الجامعة ايضاً .

٣ – جلب اساتذة أجانب يلقون دروساً ومحاضرات عملية (لانظرية) باللغـة الأجنبيـة ، على ما كانت عليه الحال في كلية الطب بدمشق أيام الانتداب الفرنسي .

٤ – ذكر الألفاظ العلمية في اثناء التدريس بالعربية ، لأن هذه الألفاظ مشتركة بين اللغات الحية .

وبهذه الوسائل الأربع يستطيع التلميذ الذي يدرس الدروس بالعربية في كليات الجامعة أن يوسع بعدئذ معلوماته ويختص في معاهد الاختصاص بالديار الغربية .

وبعد فنحن العرب لانستطيع التخلي عن لغتنا ولا عن تراثنا العلمي والأدبي الكبير . ونحن جاهدون اليوم لجعل لغتنا صالحة لاستيعاب العلوم الحديثة ، فنتمكن بذلك من التوفيق بين ثقافتنا العربية والثقافة الغربية . وأعتقد أننا سنبلغ هذه الغاية .

٢ – توحيد المصطلحات العلمية في البلاد العربية

كنت ألقيت بحثاً في هـذا الموضوع في الدورة الحادية والعشرين « سنة ١٩٥٤ » لمؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة ، فنشر المجمع هذا البحث في الجزء الحادي عشر من مجلته ، أما أنا فنشرت مضمونه في الطبعة الأولى والطبعة الثانية من « كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، في القديم والحديث » . والبحث طويل لايمكن ذكره في هذه العجالة ، ولكن يمكن تلخيص نقاطه الأساسية فيما يلي :

كنت ذكرت غير مرة وفي مناسبات شتى أن تعدد المصطلحات العربية

للمعنى العربي الواحد أصبح داء من أدواء لساننا، وأن هذا الداء يتفاقم ويستشري كلما تقدم التعليم ، وتقدمت الثقافة في البلاد العربية ، وظهر فيها أساتيذ يضعون المصطلحات العربية أو يقتبسونها ثم يتعصبون لها .

وذكرت مرات أن توحيد المصطلحات العربية لايتم بعقد المؤتمرات ، وإبداء التمنيات ، أو بصنع معجمات أو قوائم لمصطلحات مختلفة من قبل الاتحاد العلمي العربي ، او من قبل مؤتمرات محامين وأطباء وأدباء ، أومن قبل أفراد ، على اختلاف صلاح الجميع لوضع المصطلحات أوتحقيقها .

فتوحيد المصطلحات العربية عمل قومي كبير يجب ان تشترك في تحقيقه الدول العربية كافة بعلمائها وبأموالها . وكنت منذ اثنتي عشرة سنة قدرت لانجازه ستين ألف جنيه مصري من المال وخمس سنين من الزمن . أما اليوم فقد يحتاج انجازه الى ضعف المال المذكور ، وليس ذلك مبلغاً كبيراً ، فالدول العربية تستطيع تحمله في جامعتها دونما تأفف .

وبعد مامعنى توحيد المصطلحات العامية والفنية والفلسفية والأدبيــــة وألفاظ الحضارة في لغتنا العربية ؟

معناه أن يكون في الاقطار العربية معجم أعجمي عربي (أي معجم إفرنسي عربي ومعجم إنكليزي عربي على الاقل) لتلك المصطلحات تعرّف فيه الألفاظ بالعربية تعريفاً علمياً مختصراً دقيقاً يناسب حجم المعجم . ومعناه أن يشتمل المعجم على أصح الألفاظ العربية أو أرجحها ، وأن تلتزم الحكومات العربية استعمال الفاظه دون غيرها في دوائرها ومحاكمها وجامعاتها ومدارسها الحكومية والأهلية .

ويتضح منذلك ان تصنيف المعجم يحتاج قبل كل شيء الى ادارة تميز

المصطلحات بعضها من بعض ، وترجح بعضها على بعض ، وتستقر على الاصح والاصلح منها . وهذه الأداة في نظري هي مجمع اللغة العربية في القاهرة . ولكن هذا المجمع لايقوى في ملاكه الحاضر على هذا العمل . ولابد لمثل هذا العمل الكبير من قيام تآزر وثيق بين مجمع القاهرة ، وجامعة الدول العربية ، ورهط من العلماء والأدباء العرب الذين عُرفوا بوضع المصطلحات العربية أو تحقيقها كل منهم ضمن اختصاصه .

وطريقة العمل التي اقترحتها منذ سنة ١٩٥٤ ولا أزال أراها الطريقة الوحيدة الناجعة تلخص بالكلمات الآتية :

١ — تؤلف في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة تسمى « لجنة معجم المصطلحات العلمية » يكون لها شخصية اعتبارية واستقلال مالي واداري .

٢ — يخصص مجلس جامعة الدول العربية المال الذي يقدر لتصنيف المعجم، ويأذن للجنة المذكورة في المجمع بأن تتصرف في انفاقه بمراقبة رئيس الجامعة ورئيس المجمع .

٣ — تتصل اللجنة بالاختصاصيين بالمصطلحات في الأقطار العربية وتطلب منهم صنع معجمات أو قوائم أعجمية عربيـــة ، ضمن اختصاصاتهم ، لقاء مكافآت مجزية .

٤ — تصنع اللجنة من هـذه المعجمات والقوائم « معجم المصطلحات العلمية » وتعرضه على مجلس مجمع اللغة العربية فيقر ألفاظه في حضرة واضعيها من اختصاصيي الأقطار العربية ، وكل ذلك لقاء مكافآت مجزية .

٥ — يطبع مجمع القاهرة المعجم ويوزع نسخه بالمجان على دول الاقطار العربية ، وهي تبيع نسخه في بلادها بأثمان بخسة .

٦ — تبقى لجنة المعجم قائمة على عملها في مجمع القاهرة لاضافة ما يجدّ من المصطلحات واعادة طبع المعجم وتوزيعه على البلاد العربية .

هذه خلاصة ماقلته منذ اثنتي عشرة سنة ، ونشرته في طبعتَي « كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية » في شيء من الاسهاب . ولو كانت صحت عزيمة مجمع القاهرة وعزيمة جامعة الدول العربية على اتباع هذا الرأي لكانت توحدت أهم المصطلحات العلمية العربية في ذلك المعجم .

لكنني لما كنت عارفاً بأن الدول العربية ومؤسساتها لاتهتم اهتماماً جدياً بموضوع توحيد المصطلحات العربية انهيت حديثي في كتابي الملمح اليه بأهكومة فقلت :

مُنىً إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وقلت :

إكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يُزري بالأمل

ولكي تعرفوا صحة هذه الأهكومة القديمة تذكروا أنه عقد في الجزائر، في الأمس ، أي في سنة ١٩٦٤ ، مؤتمر سمي « مؤتمر توحيد المصطلحات العلمية » فاتخذ توصيات لاجدوى فيها كالتوصية بضرورة توحيد المصطلحات العلمية في اللغة العربية على جميع المستويات التعليمية ، وان تتخذ جامعة الدول العربية (الادارة الثقافية) جميع الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا التوحيد . وكالتوصية بالإسراع في توحيد مصطلحات الكتب المدرسية في الأقطار العربية عن طريق تكوين لجنة من الخبراء في العلوم لإقرارها وتوحيدها واستخدامها في الكتب المدرسية المطبوعة ، الى غير ذلك من توصيات معروفة كنتُ عالجتها ، وكان مجمع القاهرة قد اتخذ فيها قرارات .

فتأملوا ماذا كانت النتيجة الطبيعية لهذه التوصيات ؟ فلا الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية اتخذت وسائل ناجعة للتوحيد كالتي اقترحتها منذ سنين عدة ، ولا لجنة الخبراء التي اقترحها المؤتمر بصالحة لترجيح مصطلح على مصطلح .

وهكذا مالبثت حتى اليوم على رأيي القديم في وسائل توحيد المصطلحات العلمية العربية ، ومابرحت حتى اليوم (وبالأسف) أردد البيتين اللذين مر ذكرهما .

يسر (المعرفة) ان تنشر فيما يلي ، كتاب الاستاذ السلاوي ـ المغرب ـ بوصفه أحد المسؤولين في المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ـ بالرباط ـ وقد رغب المكتب المؤسس من قبل جامعة الدول العربية ان يلفت الانتباه الى اهمية التعابير والمصطلحات العلمية باللغة العربية المعاصرة ، وان يقوم بتحقيق مماثل لما تقوم به مجلة (المعرفة) مضيفاً الى تحقيقه سؤال (المعرفة) بالذات : هل تصلح اللغة العربية لتدريس العلوم الجامعية ؟

وفيما يلي نص رسالة الاستاذ محمد اديب السلاوي الموجهة شخصيا الى رئيس تحرير المعرفة :

تحية طيبة ، وبعد .

تعلمون ان اهم المواضيع التي تشغل العالم العربي منذ بداية القرن التاسع عشر الى الآن مشكلة ايجاد التعابير والمصطلحات المناسبة للكشوف الحضارية التي غزت العالم مع حضارة البخار ، والصناعة ، سواء منها المصطلحات المتعلقة بالآلة والعلم ، او المتعلقة بالفكر الاديولوجي والفلسفي .

وبالرغم من الذخيرة اللغوية العربية التي تفوق بغناها أية لغة سامية اخرى ـ إذ ان المعجم العربي يعتبر حتى الآن من اضخم المعاجم العالمية واغناها الفاظاً ومصطلحات قادرة على التصعيد والتوليد والاشتقاق والقياس والابدال ـ فان المجهودات الفردية ، وكذا مجهودات المجامع اللغوية والهيئات العلمية العربية في حقل المصطلح العلمي العربي ، وموازنته مع معطيات الحضارة الحديثة مازالت في الحقيقة محدودة ، ومحصورة في نطاق اقليمي صرف .

كما تعلمون ، ان عمل المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي لاينحصر في تنسيق اعمال المجامع اللغوية ، والهيئات العلمية العربية فحسب ، بل يتعدى ذلك الى تتبع ابحاث العلماء والافراد العاملين ، والاساتذة الجامعيين وخاصة منها مايتصل بحياة المصطلح العلمي وتطوره ، أو مايتصل بمشاكل اللغة العربية على الصعيدين العربي والعالمي .

ومن خلال قيام المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بهذه المهمة تبين له ان هنالك وجهات نظر مختلفة وتضارباً في معالجة مشكلة المصطلح العلمي العربي بين المجامع ، والهيئات العلمية ، والافراد العاملين ، وكذا الاساتذة الجامعيين ، كما لمس التناقص الموجود في البلاد العربية في معالجة مختلف القضايا اللغوية العربية .

ومجلة (اللسان العربي) التي تصدر عن المكتب الدائم ومختلف اجهزته الاعلامية في نطاق مهمتها العلمية تودحصر وجهات النظر العربية ، والاجنبية ، في مختلف المشاكل التي تتخبط فيها اللغة العربية او التي تعترض سيرها ، وشموليتها ، في المعاهد والجامعات العربية والدولية ، وذلك عن طريق استفتاء رجال العلم والمعرفة العرب والمختصين بقضايا اللغة العربية ، والتعريب ، والمستشرقين واساتذة العلوم في الجامعات العالمية .

لقد ظل العرب قروناً طويلة يحملون مشعل الحضارة وحدهم على الكرة الارضية اذ كانوا يزاولون الكلمة وقدسيتها ، فخلفوا التعابير والمصطلحات لكل علم وفن ، وصهروا اللغة العربية وصقلوها باجتهادهم ونضالهم من اجل حياة احسن للانسانية ، فنود عن طريق هذا الاستفتاء ان نتمكن من الحصول على نتائج تربطنا بذلك الماضي المجيد ، وتنير امامنا طريق المستقبل الباسم .

فرجاؤنا ان تتمكنوا من المشاركة في هذا الاستفتاء باجابتنا عن الاسئلة اسفله في اقرب وقت ممكن لمانعهده فيكم من كفاءة واطلاع واسع على مختلف القضايا اللغوية العربية .

س١ – ماهي في نظركم اهم المشاكل التي تعترض سير اللغة العربية ، والتي تحد من انتشارها بسرعة في العالم ؟

س٢ – اذا كانت هنالك مشاكل تعترض سير اللغة العربية فما هي انجع الحلول في نظركم ؟

س٣ – هل تصلح اللغة العربية للتدريس الجامعي ؟

س٤ – واذا كانت اللغة العربية صالحة للتدريس والبحث الجامعي ماهي المشاكل التي تعترض الاساتذة وماهي الحلول في نظركم ؟

س٥ – المصطلح العلمي يشكل في نظر الكثيرين اهم مشكلة تعترض نمو اللغة العربية ، فكيف للعالم العربي ان يتخلص من هذه المشكلة ؟

وانهي الى كريم علمكم ، ان دائرة الملحق الصحفي للمكتب الدائم للتعريب ستعمل عند توصلها بهذه الاجوبة ، على اذاعتها ببرنامجها الاذاعي (حركة التعريب بالعالم العربي) المذاع كل يوم خميس باذاعة المغرب ، قبل نشره بمجلة اللسان العربي ، او توزيعه على الصحافة العربية .

وفي انتظار جوابكم تفضلوا بقبول تحياتنا ، والسلام .

رغب الاستاذ علي حيدر النجـــاري أن يشارك في تحقيق المعرفة بهذه الدراسة التي يعززها برأيـــه في بعض ما نشـر من أجوبة فله الشكر .

نوالي مجلة المعرفة نشر تحقيقها الواسع في مدى صلاحية اللغة العربية للعلوم وهي بذلك تستحق الثناء بعد أن كاد الشك يسود بعض البلدان العربية في عجز لغتنا العتيدة عن مسايرة الركب العلمي المتقدم .

وأود في هذا المقال أن أكشف النقاب عن بعض المسميات العلمية العربية المتداولة ومدى الجهود المبذولة في خلق مصطلحات علمية ملائمة وضرورة الاتفاق على نهج معين يقضي على فوضى الاستعمال اللغوي العلمي في شتى اقطار العرب .

توطئة

لقد برهنت اللغة العربية على مرونتها منذ جاهليتها فاحتضنت عدداً من الكلمات الرومية – المثلة لليونانية القديمة – والفارسية وأكسبتها نبرة عربية مستساغة نتيجة احتكاك بعض القبائل العربية المتاخمة بالامبراطوريتين الرومانية والفارسية . وجاءت الكلمات المعربة في بعض القصائد والمعلقات وتقبلها الاسلام وورد بعضها في القرآن الكريم : قسطاس ، قنطار – يونانيتان معربتان – بستان ، ميزان – فارسيتان معربتان – (١) الخ …

وفي صدر الاسلام اتسعت اغراض المجتمع العربي فكثرت الالفاظ الدخيلة على اللغة العربية : ديوان ، دستور ، بيمارستان الخ … من جراء ذلك الاتساع ولاضطرار العرب الى تمثل وسبق الحضارتين الفارسية والرومية وحتى الهندية . ثم دخل قليل من الالفاظ التركية القديمة بعد أن سيطر السلاجقة فالمماليك على البلاد العربية وخاصة في بعض الرتب : أتابك .

وفي العهد العثماني وخاصة في اواخره دخلت الالفاظ التركية في العربيـــة دون

---

(١) فجر الاسلام لأحمد أمين ص ١١٧ وص ١٣٨

ماضابط فأفسدتها وكانت بعض الفاظ التخاطب نشازاً على اللغة ذاتها : سعادتلو ، كتبخانة، قهوجي ، وقس على كل من هذه الكلمات الثلاث .

غير انه ، وخلال عصور الانحطاط ، وجد من غار عليها وتحمس لها فتحدث بلغة قوية وكان ثمة أيضاً من حاول تنقيتها وعد عليها دخائلها ـ إن في الكتب كالشهاب الخفاجي من ادباء القرن الحادي عشر للهجرة في رسالته : « شفاء الغليل فيا طرأ على العربية من الدخيل »(١) أوبين العوام ،وفي هذا يذكر لناالمؤرخ المرادي الدمشقي في ترجمة لمحمد أمين المحبي الدمشقي ايضاً أن من بين مؤلفاته كتاب" عنوانه على ما أذكر (قصد السبيل فيماورد في العامية من الدخيل)ونحن على ثقة من سعة تحقيق هذا العالم الأديب المؤرخ الذي ترك لنا مؤلفاً خالداً عن ادباء ورجالات عصره بدقة ولغة تفوقان الى حد كبير دقة ولغة خلفه المرادي (٢) ، وذلك السفر النفيس « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » جمع في ثمانية اجزاء وضعتها وطبعتها مطبعة بولاق بالقاهرة في أربعة مجلدات منذ نحو من مائة سنة والاعلام مرتبة حسب الحروف الهجائية ، وكان لدي في حداثتي نسخة منها بالاضافة الى تاريخ المرادي المسمى : (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر) . وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق نسخة من(خلاصةالاثر) وأظنأن لديها (سلك الدرر) أيضاً .

الترجمة والتعريب في العصر الحديث المصطلحات العامة

في أواخر العهد العثماني ، في القرن التاسع عشر ترجم بعض العلماء الأتراك الضليعين في اللغة العربية بعض الاسماء العلمية الاجنبية الى كلمات عربية حباً بلغة القرآن ونشط بعض أدباء وكتاب العرب آنذاك في هذا المضمار ونخص منهم بالذكر العلامة احمد فارس الشدياق (١٨٠٥-١٨٨٧) (٣) صاحب جريدة (الجوائب) في بعض مسمياته في التاريخ الطبيعي في كتابه طبائع (الحيوان) .

(١) طبعت في القاهرة ،حققها الاستاذ عبد المنعم خفاجة . ورغم احتوائها على عدد كبير من الكلمات الدخيلة لم يذكر المؤلف مصدر الدخيل فارسياً او رومياً او هندياً الخ ...

(٢) يحقق الصديق الاستاذ عبد المعين الملوحي مدير التراث القديم في وزارة الثقافة ، في أحد مؤلفات هذا الأديب — المحبي — « نفحة الريحان » .

(٣) تراجع نبذة عنه في العدد الخامس والخمسين من مجلة المعرفة في باب الكتب الجديدة . وقد نلمح اليه في عددقادم فلدينا قصيدة بخط يده ارسلها للوالد المرحوم رسول النجاري — وكان مصححاً لجريدته الجوائب ومطبوعاتها — معتذراً .

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى وبعيدها تأسس المجمع العلمي العربي بدمشق في العهد الفيصلي ووجدت الحاجة ماسة الى استكمال مقومات الاستقلال وعناصر النهضة وفي الطليعة استقلال اللغة العربية ونهضتها . فابتدأ نشاط الاعضاء والافراد العلميين واتسع نطاقه في اوائل الاحتلال الفرنسي لسورية حيث قام الاساتذة – وخاصة اساتذة المعهد الطبي العربي بدمشق – بترجمة وتعريب كثير من المصطلحات العلمية ؛ حتى أنهم اجتهدوا في بعضها ولم يتزمتوا للقديم فيضعوه في قدسية منزهة بل تجاوزوه الى ماوجدوه في العربية الفصيحة يفي بالأداء العلمي . فكلمة « دوسنطاريا » التي عربها علماء العهد العباسي عدلوا عنها الى زحار (١) . وتعرّف هذه اللفظة العربية الاصيلة في معاجم اللغة بما تعرف به تقريباً اللفظة اللاتينية المركبة Dysentérie . ثم بوشر في التحقيق بما ورد من كلمات علمية في المعاجم العربية تلائم الكلمات الاجنبية فالتجيء اليها في معظم اعضاء الجسم البشري وبعض النباتات والمركبات العلاجية وكان مصدر النشاط فيها كما ذكرنا المعهد الطبي العربي وذلك في مجلته (مجلة المعهد الطبي العربي) وأسهم بالكتابة فيها أيضاً بعض علماء اللغة كالأب الكرملي وعيسى اسكندر المعلوف .

الا انه اتخذ في بعض المسميات العلمية طرقاً ملتوية ، ورغم انتباه بعض العلماء المحققين – كما سنذكر – اليها فقد ثبتت رغم تداولها ونأتي بمثال كلمة الموثة التي لاتزال تستعمل ترجمة للفظة Prostare الأجنبية .

قصة الموثة

واضع الكلمة العلامة المغفور له الاب انستاس ماري الكرملي (١٨٦٨ – ١٩٤٧) ويذكر لها في مجلة المعهد الطبي العربي عام ١٩٢٦ قصة نستطيع ان نتبين مدى الحقيقة فيها :

خلاصتها انه زار العلامة نعمان آلآلوسي – عم شكري الآلوسي صاحب كتاب (بلوغ الأرب) ونجل محمد الآلوسي صاحب التفسير الشهير (روح المعاني) – وسأله تسمية العضو المسمى (بروستاتة) فطلب منه صورة له لان الالوسي – على حد رواية الاب – تعرف الى طبيب في بغداد قبل خمسين سنة – اي قبل منتصف القرن التاسع عشر – وكان الطبيب قد احضر له « صورة داخل رجل مصورة احسن تصوير بالالوان المناسبة وقد كتبت تلك الاسماء بالحروف الافرنجية وكان قد جلب له تلك الصور احد اطباء الافرنج المشتغلين في الزوراء

(١) استعمل المرحوم الشدياق كلمة زحير لهذا المعنى في ابياته التي قدننشرها له في عدد قادم .

وقد وضع مقابل كل لفظة افرنجية لفظة عربية تلقاها من احد شيوخه»(١) ويقول الآلوسي — حسبا يروي الاب — انه حفظ كثيرا من تلك الاوضاع وحينما اتى له الاب بصورة من عنده للجسم الانساني ووضع اصبعه على البروستاة قال له الآلوسي هذه تسمى بالعربية: (موثة). ثم يؤيد الاب وضع هذه الكلمة بنص فرنسي للحكيم الفرنسي لوكليرك Loklerc: « ان كلمة الشاه بلوط فارسية وتعني بلوط الملك احدى مرادفات الكستناء ونجد ترجمتها بالعربية موثة Mouha ولانرى ترجمة مائيول ».

وليس للموثة ذكر في معاجم اللغة العربية غير انه ورد فعل ماث أي اختلط وذاب وقد ذكر بعض العراقيين آنذاك للأب — حسب روايته: «أخذ اوراق الشاهبلوط وندوفها — نخلطها لتذوب — في الماء وبعد غسل الثياب تغمس في ذلك الماء لتنظيفها . . فاستنتج الاب ان الموثة من الموث بمعنى الدوف وعلى ذلك سميت موثة. غير انه يحاول الاستدراك في نهاية حديثه فيقول « هذا الذي اتوهمه ولعل هناك سببا آخر لاطلاق هذه التسمية على تلك الثمرة ». ونرى نحن ان السبب الذي حدا بالاب هو شبه البروستات بثمرة نوع من الكستناء.

والقصة طويلة ومعقدة حاولنا ما امكن تلخيصها وقد استغرقت نحوا من اربع صفحات من صفحات مجلة المعهد ولا تخرج عما ذكرناه.

يضاف الى هذا اني اطلعت ايضا على القصة ذاتها — تقريبا — الكرملي في المقتطف في عدد اغسطس لسنة ١٩٤٥ اي ان الاب اعاد القصة بعد نحو من عشرين سنة ولكن في هذه المرة مع الأوز العراقي لامع البروستات، إذ قال له الآلوسي حين اراه صورة الطائر ان هذا يسمى بالفيراق . وخطأ تسميته بالأوز العراقي.

وكان العلامة الأب يذهب الى حد التزمت في اللغة العربية فحيثما رأى لفظة أجنبية ورأى في بطون معاجم اللغة العربية ما يقاربها من لفظة عويصة ذهب إلى أن الأصل الأجنبي عربي . وقد أوقعه هذا في مآزق ما كان اغناه عنها لو أنه تجنبها . مثال ذلك أن الباحثين في التاريخ الطبيعي يعلمون أن للتماسيح أنواعاً ثلاثة تعيش في قارات ثلاث : الأول التمساح المعروف في اعالي واواسط النيل والثاني الألـغاتور Alligator في امريكا الجنوبية في الأمازون ويذهب الأب أن الكلمة من أصل عربي « القـاطور » صيغة مبالغة من (قطره) أي (صرعه) وفي بضعة أدلة لغوية كهذه يستدل الأب على اكتشاف العرب

(١) مجلة المعهد الطبي العربي نيسان ١٩٢٦ .

لأمريكا قبل كريستوف كولومبس(١) . والنوع الثالث الكافيال Gavial في الهند على شاطىء الغانج وقد ادعى الأب أن الكلمة من أصل عربي «جُبار» (٢) – انفلات البهيمة وإصابتها إنساناً فجرحها هَدَر – وهنا انبرى له على الفور عالم هندي ضليع في اللغة العربية هو الاستاذ ابو النصر احمد الحسيني الهندي فأعلمه «أن الكلمة في الحقيقة هندية الاصل وأصلها بالهندية (كَهْرِيال) وهذه الراء مفخمة في اللغة الهندية ليس لها شبيه في غيرها من اللغـــات وكتابتها في بعض القواميس الأجنبية Garial اقرب الى الصـواب من Gavial» (٣) .

على أن ماذكرناه بحق الأب المرحوم لايمنعنا من القول : إنه كان نادرة هذا العصر في سعة الاطلاع ووفرة التحقيق وكان عضواً في المجامع اللغوية الثلاثة في بغداد والقاهرة ودمشق . وكانت وفاته في السابع من كانون الثاني عام ١٩٤٧ خسارة فادحة للغة العربية.

نعود الى قصة المؤنة فبعد بضعة أشهر وعلى نفس المجلة – مجلة المعهد الطبي العربي – أبدى العلامة المرحوم الطبيب الدكتور جميل الخاني عدم اقتناعه بما ذكره الأب وذلك في حاشية على مقال له حول تأثير البروستات ببعض الحميات ورجح الاستمرار باستعمال لفظة «برصطات» راجياً النظر باسم فصيح وضعه العرب وذلك «خير من استعمال لفظ يحيق بوروده غموض وشبهات» (٤).

على أنه رغم هذا عم استعمال اللفظة – الموثة – واخذ بها اساتذة الطب في الجامعة السورية .

والحديث ذو شجون ، فالدكتور الخاني وقع بدوره في خطأ فادح حين حقق في مقال سابق أن الشهيق هو الزفير والزفير هو الشهيق أي بعكس مانستعمله اليوم وقـد أوقعه في هذا الخطأ بعض اصحاب المعاجم كالجوهري صاحب الصحاح والزبيدي صاحب التاج وابن منظور صاحب لسان العرب في مادة زفر (٥) . وقد نبه الى الخطأ العلامة

---

(١) المقتطف فبراير ١٩٤٥ من مقال للأب الكرملي : هل عرف العرب اميركا .
(٢) المقتطف مارس ١٩٤٢ .
(٣) المقتطف أبريل ١٩٤٢ .
(٤) مجلة المعهد الطبي ١٩٢٦ ص ٤٤١ .
(٥) مجلة المعهد الطبي العربي نيسان ١٩٢٦ .

الدكتور أحمد حمدي الخياط فبين بالأدلة اللغوية واوضح آلية التنفس في كل من الشهيق والزفير (١) وذلك حسبا نستعمله وندل عليه في اللفظتين . وهذا مثال على مدى الخطر في الركون الى بعض المعاجم إذ لابد من المقارنة وإعمال الفكر كيا تتبين اللفظة الصحيحة من اللفظة الخاطئة .

وعلى كل فالجهود التي بذلها اساتذة المعهد الطبي العربي بدمشق وخاصة في مجلته التي كان يشرف عليها العلامة الخالد الذكر مرشد خاطر ان في العلم أو في اللغة – وقد نوه بها الدكتور عزة مريدن في العدد الخامس والخمسين والدكتور عبد السلام العجيلي في العدد الرابع والخمسين من مجلة المعرفة وغيرهما – ينبغي أن تذكر وتشكر .

وليس من شك في أن أولئك العلماء المعاصرين فاقوا الاوائل في تحقيقاتهم اللغوية الى جانب بحوثهم العلمية وقد أتينا بمثال على هذا كلمة دوسنطاريا المعربة التي عدلوا منها الى زحار العربية الأصيلة .

تعدد المصطلحات

دارت المناقشات العلمية اللغوية المذكورة منذ نحو من اربعين عاماً وكانوا قد اطلقوا على البانكرياس اسم الغدة البطنية . وفي عام ١٩٣٢ اسماها الاستاذ فؤاد صروف – عميد الجامعة الاميركية ببيروت حاليا – بالغدة الحلوة وذلك حين تحدث في بعض كتبه عن الدكتور بانتنغ مكتشف الافراز الداخلي للغدة المذكورة – الأنسولين – (٢) ومعلوم أن هورمون البانكرياس – الانسولين – يعدل مفعول السكر في الجسم لذا أسماها صروف بالحلوة واستعمل هذا الاسم في بعض الأوساط العلمية العربية . غير أن احداساتذة المعهد الطبي بدمشق ونظنه العلامة المرحوم الدكتور مرشد خاطر أوجد لها اسم المعثكلة – وورد متعثكل في معلقة امريء القيس – والكلمة عويصة وثقيلة استغربها واستثقلها الدكتور مدني الخيمي في العدد الرابع والخمسين من مجلة المعرفة . والمعثكلة تستعمل في كتب الطب في الجامعة السورية وفي كتب التشريح للدراسة الثانوية بالقطر السوري .

وفي صدد المفرز الداخلي نلاحظ أن ثمة كلمات ثلاث يتداولها أرباب العلم في البلاد العربية . الأول (تور) وقد وضعها الدكتور شرف صاحب المعجم العلمي الآتي ذكره، والثانية (رسول)من وضع صاحب المقتطف الدكتور صروف وتفيد معنى اللفظة الأولى،

---

(١) مجلة المعهد الطبي العربي تموز ١٩٢٦ .

(٢) أساطين العلم الحديث للدكتور فؤاد صروف .

والثالثة (حاثة) وتستعملها الجامعة السورية حالياً وكلها ترجمة لكلمة هورمون اليونانية الأصل ومعناها (أحرك) أو (أثير) وقد وضعها العلامة هاردي W. B. Hardy بينما وضع لها ستارلنغ - أول مكتشف للافراز الداخلي - اسم رسول كيميائي Chemical Messenger (١) .

والهورمون ينصب في الدم مباشرة ، ولون الدم حسبما هو معروف احمر لوجود مادة الهيموغلوبين فيه . وكان العلامة الأمير مصطفى الشهابي - رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق حاليا - قد وضع كلمة اليحمور للهيموغلوبين في الحيوان بعد ان وضع حيالها ايضاً كلمة اليخضور - الكلوروفيل - في النبات. غير ان ثمة عالماً مصرياً وضع لها كلمة "حمير" واستعملتها بعض المجلات العلمية كالمقتطف . وكلمة اليحمور أيضاً وضعها العلامة المرحوم الدكتور امين المعلوف ترجمة للمصطلح العلمي Caprolens - حيوان مجتر من الأيائل ذوي القرون المتشعبة - وذلك في مؤلفه معجم الحيوان الآتي ذكره .

وفي المقطع التالي سنأتي أيضاً بأمثلة على تعدد المصطلحات العلمية العربية .

معاجم المصطلحات العلمية العربية الحديثة

وللعلامة الشهابي مؤلف قيم هو معجم الألفاظ الزراعية وفيه ترجمة وتعريب العديد من اسماء النبات والحيوان وبعض المركبات الكيميائية ، وكلماته يتداولها كثير من أرباب العلم في شتى الأقطار العربية غير أنه لا يخلو من بعض المآخذ مثل إصرار الأمير على استعمال كلمتي ليون وقاضم بدلاً من لدو وقارض. وفي الأولى - ليون - وجهة نظر منطقية أدلى بها العلامة المرحوم اسماعيل مظهر في مقتطف ديسمبر ١٩٤٥ وقد اتبع الشهابي في كلمته صاحب معجم الحيوان الدكتور المعلوف . أما قاضم فالكلمة حققتها بنفسي خلال بحث مطول لي في الثدييات فالقضم أكل الشيء اليابس ولا تغلب هـذه الصفة على القوارض Rongeurs - ثم إن بعض معاجم اللغة مثلت لكل من الكلمتين - قرض وقضم - بقولها «قرض الفأر الثوب وتقضم الدابة الشعير» . وقد جاراه في ذلك الخطأ الاستاذ اسماعيل مظهر عضو المجمع اللغوي في القاهرة خلافاً للمعلوف في معجمه الذي استعمل لفظة (قوارض) .

وكان العلامة الاب الكرملي لفت نظر الشهابي الى الخطأ الوارد في معجمه في استعماله تعبيري (حمض الكبريتيك) وحمض (الكبريتو) بدلا من (حمضي الكبريت) و (الكبريتي) وقال عن الثاني : « من المعلوم في لغتنا العدنانية انها لاتقبل الفاظاً تنتهي بواو ساكنة ولهذا قال علماء الجامعة الاميركية منذ نحو من سبعين سنة حامض كبريتوس وهذا أصح » (٢)

---

(١) المقتطف يناير ١٩٣٧ .

(٢) المقتطف فبراير ١٩٤٤

ثم انه عمد الى استعمال كلمة (غول ،بدلا من كحول) الواردة في المؤلفات العلمية العربية الحديثة وهب.ان(الغول) صحيحة الاصل غير انه يتعذر علينا ازالة كلمة عم استعمالها لدى المتعلمين في الاقطار العربية . وليس من ضير اذا ردت الينا بضاعتنا محرفة بقالب مستساغ وقد قيل خطأ مشهور خير من صحيح مهجور .

والغول حينما تخلو الواو من السكون تطلق حديثا على حيوانين يعرفهما الباحثون في التاريخ الطبيعي :الاول(الغوريلا)رأس فصيلة اشباه البشر Anthropoïdes التي تتناول ايضاً البعام – من اوضاع المعلوف – « الشمبانزي » وانسان الغاب – من اوضاع الاب الكرملي واسماه المعلوف بالسِّعلاة – « الاورانغ اوتانغ ».والغول من اوضاع الدكتور المعلوف بينما اوجد الأب الكرملي للغوريلا كلمة الطغموس ، والطغموس المارد من الشياطين(١) وقد استعملتها الكتب العلمية للدراسة الثانوية في القطر السوري مع العلم انه إن كان لابد من لفظة عربية فليكن الغول فهو اقرب للمصطلح العلمي الدولي Gorilla (٢) وأوفر دلالة من الطغموس ،إذ الغول حسبما جاء في المعاجم دابة شبيهة بالانسان رآها تأبط شراً فقتلها .

اما الحيوان الثاني فهو اكبر افراد فصيلة السراعيب Mustélidés – ودعاها الشهابي بالسموريات – اللاحمة واسمه العلمي Gula Luscus وبالفرنسية Glonton أي الشره،وهذا ما كان اطلقه عليه العلامة المرحوم احمد فارس الشدياق . وهو حيوان بحجم الدب يخاف الذئب شره ،سلاحه انيابه ومخالبه»(٣) يعيش « في الاصقاع الشمالية من اوروبا ويطلق عليه الاهالي اسم شيطان الشمال»(٤) وقد اسماه العلامة الخالد الذكر الدكتور يعقوب صروف الغول وذلك في كتابه القيم (فصول في التاريخ الطبيعي) .

معجم شرف

وقبل بضع عشرة سنة من صدور المعجم الشهابي – وقد طبع في دمشق عام ١٩٤٣ – كان قد طلع في القاهرة على المكتبات العلمية المعجم الطبي العلمي العربي للدكتور محمد شرف عضو المجمع اللغوي – بعد صدور معجمه بعشر سنوات – وفيه

---

(١) القاموس المحيط للفيروزابادي

(٢) Dr Paul Rode , Petit Atlas des Mammifères Fascicul IV Paris 1944

(٣) فصول في التاريخ الطبيعي الدكتور يعقوب صروف .

(٤) مجلة الهلال ١٩٥٠ .

مئات الكلمات الطبية العلمية وغير الطبية . غير أنه مما يؤسف له أن صاحب المعجم عمد فيه في بعض الكلمات الى عمل غير لائق مدعياً أنه توصل اليها بجهوده بينما هي مما حققها غيره وبعناه رغم خطأ بعضها ونقله الخطأ على علاته (١) .

والمعجم بمجموعه يعد خطوة مباركة وقد سد بعض الفراغ الذي كانت تنشده الكلمات العلمية في العالم العربي .

معجم الحيوان

والمعجم العلمي الثالث (معجم الحيوان) المطبوع في القاهرة عام ١٩٣٢ للفريق امين « باشا » المعلوف اللبناني الاصل وأحد أساتذة المعهد الطبي العربي في بدء تكوينه وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق والطبيب الأول في الجيش العراقي خلال عهد فيصل الأول وقد استقر أخيراً في القاهرة حيث وافته منيته فيها عام١٩٤٢ . والمعجم مجموعة كبيرة من الكلمات لاسماء كثير من الحيوان حققها الدكتور المعلوف بنفسه وكان قد نشرها تباعاً في المقتطف منذ عام ١٩٠٨ وقد قام برحلة الى جنوبي شبه الجزيرة العربية ثم الى السودان وأقام فترة بين القبائل العربية السودانية وتحقق من صحة اسماء بعض حيوانات المنطقة الاستوائية ولا سيما الثدييات منها غير أن في المعجم بعض الاخطاء والنواقص تلافى المعلوف عدداً منها في أعداد لاحقة من مجلة المقتطف وخاصة بعد أن تطور علم الحيوان وثبتت القبائل ordres والعشائر sous-ordres والفصائل Familles الخ .. بشكل تتضح وتتمايز فيه الأنواع .

معجم المصطلحات العلمية

وثمة معجم للمصطلحات العلمية للاساتذة الدكاترة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط وصلاح الدين الكواكبي وقد نوه به الاستاذ الدكتور عزة مريدن في مجلة المعرفة في العدد الخامس والخمسين وتبدو القيمـــة الحقيقية لهذا المعجم بما للاساتذة الاجلاء المذكورين من بحوث علمية ولغوية نفيسة كانت منار الجيل العلمي الحديث وخاصة في القطر السوري .

ونختتم قائمة المعاجم بما قرأناه في صيف هذا العام من أن لجنـــة أعداد القاموس

---

(١) أورد العلامة المرحوم الدكتور امين المعلوف في كتابه ملحق معجم الحيوان نحواً من ثلاثين كلمة أخذها منه دون أن يشير اليه .

العلمي العربي في القاهرة انتهت من وضع الخطوط الاساسية للمشروع وقدرت استغراق وضعه بثلاث سنوات وتقرر تكوين لجنة لتوحيد المصطلحات العلمية العربية برئاسة الدكتور أحمد رياض رئيس المجلس الاعلى للبحث العلمي (١) .

وبعد المصطلحات العلمية نذكر أن الجامعة العربية أصدرت كتاباً (٢) ضمنفيه معظم المصطلحات العلمية العربية القديمة والحديثة .

ثم ان المجلس الاعلى للعلوم في القطر السوري حينا أنجز في العـــام الماضي نقل الموسوعة الفيزيائية البريطانية الى العربيـــة قام بترجمة وتعريب كثير من الكلمات العلمية .

وهنا نود أن نلفت انتباه الهيئات العلمية العربية الى ضرورة الاتفاق على ترجمة موحدة لكلمة Atome فالاساتذة السوريون يترجمونها بجوهر بينما تترجم في مصر بذرة والذرة في سورية ترجمة للجوهر المركب Molécvle بينما يترجم هذا في مصر بجزيء ومن الغريب أن تترجم Atome بجوهر في الوقت الذي تترجم فيه Atomique بذري أوذرية في الصحف والمجلات . مع العلم أن لفظة جوهر فارسية معربة .

القياس في التعريب

وعلاوة على الترجمة والتعريب لجأ علماؤنا المعاصرون الى القياس في تعريب بعض الكلمات وحسناً فعلوا . فقد وضع العلامة المرحوم عز الدين التنوخي (٣) لفظـــة الفيزياء قياساً على لفظة الكيمياء التي استعملها الأوائل وهذا ينطبق ايضاً على الكلمات المنتهية بـ Logie الـــتي تفيد معنى العلم أو البحث : جيولوجيا ، بيولوجيـــا ، فيزيولوجيا الخ ...

ضرورة التعديل في الحروف الهجائية

أما وقد اتسع نطاق اللغة العربية سعة تناولت شتى مناحي العلم فثمة ناحية فنية إن في اللفظ أو في الكتابة لم يتطرق إليها الباحثون في هذا الباب من مجلة المعرفة ، وتلك

---

(١) جريدة الأخبار ١٦/٨/٩٦٦

(٢) عنوان الكتاب المصطلحات العلمية العربية في القديم والحديث قام بوضعه معهد الدراسات العالية في الجامعة العربية وطبع في القاهرة .

(٣) تراجع نبذة من حياته للاستاذ احمد الجندي في العدد الرابع والخمسين من مجلة المعرفة .

فيا يتعلق بالحرفين الاجنبيين P . و V : بانكرياس وفيتامين ، وكذلك المركب اللفظي الجيم المصرية (هيموغلوبين) . وفي هذا الصدد كان الاتراك العثمانيون لجأوا الى وضع ثلاث نقاط تحت الباء P وثلاثاً فوق الفاء V وخط مواز لخط الكاف G . وأذكر ان مجمع فؤاد — وكان هذا أسم المجمع اللغوي في بدء تكوينه — كان قد اوصى في احدى جلساته باجراء الكتابة المذكورة وذلك في عام ١٩٣٧ وكانت سورية ولبنان آنئذ ممثلتين في عضوية المجمع بثلاثة من العلماء : محمد كرد علي وعبد القادر المغربي وعيسى اسكندر المعلوف . غير أن القرار لم ينفذ واستمرت الفوضى فبينا نكتب نحن في القطر السوري هيموغلوبين يكتبها اخواننا المصريون هيموجلوبين حتى أن الجيم القاهرية — المصرية — تكتب أحياناً كافاً ولابد لهذا من حل والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها فان كانت الزيادة في الحروف الهجائية العربية أمراً يصعب تحقيقه فهلا نفذنا ما أوصى به المجمع اللغوي منذ ثلاثين عاماً .

كلمتنا الى الطبيب الأديب الدكتور عبد السلام العجيلي

نرى لزاماً علينا وقبل الانتهاء أن نتجه الى تصويب ماورد في كلمة الطبيب الأديب الدكتور عبد السلام العجيلي بحق اخواننا العلماء العرب وذلك في العدد الرابع والخمسين من مجلة المعرفة .

لقد وقع الدكتور العجيلي في خطأ كان في الاستطاعة تجنبه لو تروّى في الامر . واللوم واقع حتى ولو فرض أن ليس ثمة لمصر بحوث علمية وخاصة في ناحية طبية منها ، فكيف اذا كان الامر على غير ماذكره الدكتور .

يتساءل الاديب الطبيب العجيلي في حماسته فيتساءل «عن العلماء الأعلام بالمقياس العالمي الذين خرجتهم الجامعات من عربية واجنبية التي تدرس الطب في اللغة الفرنسية والانكليزية بالقاهرة او بغداد او بيروت. لقد عجزت اللغات الأجنبية في هذه الجامعات ومدرسوها الاعاجم من مقيمين وزوار أن تخلق وأن يخلقوا من طلابها البحاث الذين نفتقدم في جامعة دمشق التي تعلم باساتذة عرب ولغة عربية . وفي كل البلاد العربية لايزال الذين يكتشفون الأدواء المحلية هم العلماء الأجانب» . ونحسب أنه يستعمل منطقه الأدبي فيا يقول غير اننا لانرضى منه كعربي — ولو بصفته الأدبية — أن يعمد الى التخصيص فيستمر في اندفاعه حين يتكلم عن البلهارزيا المستوطنة للقطر المصري : «يرتبط اكتشاف ادوية هذا الداء الوبيل باسماء بحاث المان وفرنسيين بعد انشاء هذه الجامعة» — جامعة القاهرة — .

واظن انه لو رجع قليلا الى بعض المصادر – وليس كل المصادر بالضرورة – لما كتب عبارته تلك ولأنصف اخواننا في القطر المصري ولو بعض الانصاف .

ذلك انه بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣١ أكتشف الدكتور احمد خليل عبد الخالق – العربي المصري – دواء لعلاج البلهارسيا يحقن بالعضل وهو احد مركبات الانتيموان (Sb) الاثمد حسبما اسماه سابقاً بعض مدرسي المعهد الطبي العربي ، ولعل هذه التسمية من قبيل تسمية القلم الذي سودت به مقالي هذا بقلم الرصاص ! . . والمركب العلاجي يحوي فينولا ثنائيا $C^6\ H^5\ (OH)^2$ البيروكاتيشين مع كبريتات الصوديوم العضوية بالاضافة الى العنصر الفعال – الانتيموان – . وقد احدث الاكتشاف آنذاك ضجة كبرى في اوساط العالم الطبي وسمي فؤادين Fovadine نسبة الى فؤاد الجالس على عرش مصر . واظن ان شركة باير اشترت الاكتشاف بدليل أن (فؤادين) كانت تبيعه هذه الشركة وتعرضه في نشراتها الطبية كعلاج ناجع للبلهارسيا .

ويعلم الممارسون للبحوث العلمية ان مايفتقر في الادب لايغتفر في العلم ، ففي الثاني اسس موضوعية منطقية ينبغي على كل عالم ان لايتجاوزها وتلك من اولى وسائل البحث العلمي .

يضاف الى ما اوردناه ان لاخواننا المصريين في منحى علمي آن – غير المنحى الطبي – تقدما محسوسا . ولا أزال اذكر بعد الحرب العالمية الثانية قول احد القادة الانكليز : « ان عالماً مصرياً انقذ جيشنا في الشرق الأوسط من مجاعة حقيقية » .

ذلك ان وكالة الانباء العربية اذاعت في عام ١٩٤٧ خبر اكتشاف علاج قاتل لسوس القمح قام به الدكتور رزق عطية وعقدت جريدة الديلي ميل اللندنية فصلا لفتت فيه الانظار الى البحوث التي يقوم بها الدكتور المذكور من كبار المتخصصين في علم الحشرات بوزارة الزراعة في القاهرة قائلة انه هو الذي اخترع قاتل السوس لحماية القمح من آفاته المهلكة . (١)

وشد ما كنت اعجب بالبحوث الدقيقة التي كان يطالعنا بها العالم محمود مصطفى الدمياطي في مفردات النبات وقد فاقت بكثير بحوث ابن البيطار مع حساب الفارق الزمني والتقدم العلمي ان في الدقة او في التحقيق اللغوي .

هذه قولة حق ، والحق يعلو ولا يعلى عليه ، فليعذرنا الدكتور العجيلي ونحن من المعجبين بادبه الجم غير ان اعجابنا لايحول بيننا وبين الاتجاه نحو الصواب .

(١) المقتطف مارس ١٩٤٧

حول اسس التخطيط

في البلدان النامية ذات الاتجاه الاشتراكي

للدكتور هشام متولي

ان سؤال « لماذا نخطط » لم يعد ينسجم مع التفكير الاقتصادي الحديث وخاصة بعد ان اخذت الدول الرأسمالية نفسها بمبدأ التخطيط ، فوجب علينا ان نطرح التساؤل الاساسي التالي: كيف نخطط ؟

هل نخطط وفقاً للاسلوب المركزي الذي اتبعه النموذج الاشتراكي في التنمية ، ام ناخذ بالمراحل الاخيرة لتطور هذا الاسلوب في الاتحاد السوفييتي والديموقراطيات الشعبية وخاصة يوغوسلافيا ، أم نأخذ بالتخطيط على الطريقة الفرنسية ؟ ان الاجابة عن هذا التساؤل

(*) كتب هذا البحث لمناسبة انعقاد حلقة البحوث والدراسات للتخطيط في الجمهورية العربية السورية ، والكاتب هو رئيس دائرة الدراسات والمراجع في مصرف سورية المركزي .

تستوجب بنظري بحث اسس التخطيط الاقتصادي في البلدان المتخلفة من النواحي التقنية الخالصة ، ثم من ناحية الاطار العام الذي يجب ان تتوفر فيه بعض الشروط حتى يصبح من الممكن تطبيق النواحي التقنية المذكورة. فما هي إذن اسس التخطيط الاقتصادي في البلدان التي اختارت النموذج الاشتراكي في التنمية ، والتي مازالت مع ذلك ذات اوضاع وظروف خاصة بها ؟ إنها تلك القضايا التي تدور حول مسألة تحقيق اكبر عدد ممكن من المشاريع التثميرية الانتاجية التي تؤمن زيادة ملحوظة في الدخل القومي .

ولا بد لهذه الزيادة من تحقيق هدفين هامين : اولهما ان تؤدي الى زيادة الدخل الفردي ، ويشترط من اجل تحقيق ذلك ان يكون معدل هذه الزيادة اسرع من معدل زيادة السكان. والثاني هو امكانية اقتطاع جزء هام من هذه الزيادة لتوجيهه نحو تمويل المشاريع التثميرية الانتاجية . وهكذا فانه بالقدر الذي تقام فيه مشاريع تثميرية ذات مردود اقتصادي منتج ، وبالقدر الذي يتحقق معه توجيه هذه التثميرات نحو القطاعات التي يتأمن ضمن اطارها افضل استغلال للقطاعات الانتاجية للاقتصاد القومي واسرع معدل ممكن في التنمية وفي انعكاساتها على مجمل الاقتصاد القومي ، بالقدر الذي نضمن فيه توفر الاساس الجوهري والرئيسي للتخطيط الاقتصادي ، اي تشكل معدل مرتفع وسريع لتراكم رأس المال كما سنأتي على تفصيل ذلك .

ولكي يتحقق هذا التراكم ، لا بد من الانطلاق من التخطيط الاقتصادي بعامليه الاساسيين اللذين يربطانه بالنموذج الاشتراكي في التنمية : (١)

آ – تعبئة مصادر الثروة القومية بغاية تحقيق تمويل مشاريع التثمير المنتج .

ب – الربط بشكل منسق بين اهداف التخطيط وتوجيه المشاريع التثميرية الانتاجية نحو تحقيق هذه الاهداف .

يتم تحقيق العامل الاول ، بصورة عامة ، بوسائل متعددة ، اولاها تأميم المؤسسات المصرفية والمالية وقطاعات الصناعة والتجارة والمواصلات من جهة ، ومن جهة ثانية تطبيق قانون الاصلاح ، بما في ذلك قانون العلاقات الزراعية ، بحيث يمكن تغيير العلاقات الزراعية القائمة للتوصل إلى انشاء حركة تعاونية زراعية بعد توزيع الاراضي على الفلاحين . ولا بد لنا من الاشارة الى ان الغاية الرئيسية من عمليتي التأميم وصدور

---

(١) اوسكار لانجه – التخطيط والتنمية الاقتصادية . ترجمة هشام متولي : دمشق ١٩٦٥ .

قانون الاصلاح الزراعي هي التوصل الى تشكيل وتراكم رأس المال وتجميعه ثم توجيهه نحو تمويل مشاريع التثمير المنتج ، ثم اعادة توظيف الارباح المتشكلة نتيجة لنشاط هذه المشـاريع . فالارباح المتشكلة في القطـاع الصناعي والقطاعات الاخرى ، والارباح المتشكلة نتيجة لفروق اسعار المنتجات الزراعية ، حيث تشتريها الدولة بأسعار تقارب سعر الكلفة من الفلاحين الذين وزعت عليهم الاراضي ، تشكل الموارد الرئيسية لتمويل المشاريع التثميرية الانتاجية .

ولكن هذه الموارد ليست كافية لوحدها لتمويل تنفيذ المقدار اللازم من المشاريـع التثميرية المؤدية الى ادخال تغييرات اساسية على بنيان الاقتصاد القومي . لذا لا بـد للدولة من الاعتماد على موارد أخرى مثل الضرائب والقروض الداخليـة والخارجيـة ، وبصورة خاصة اعتماد البلدان المتخلفة على وسيلة كانت قد اعتمدتها البلدان الاشتراكية في بدء مرحلة انطلاقها ، وهي تشجيع وترغيب اصحاب الادخار الفردي على توظيف ادخاراتهم في تمويل مشاريع التثمير . وهذا يعني ، بلغة أخرى ، تنشيط القطاع الخاص في مساهمته في الحيـاة الاقتصادية ، شريطة استقطاب هذا النشاط بتوجيهه نحو تمويل المشاريع الانتاجية التي من شأنها تحقيق أسرع معدل نمو ممكن في البلدان المتخلفة . ولا شك ان الدولة تملك العديد من الوسائل لتتمكن من الهيمنة على توجيه امكانيات ونشاطات القطاع الخاص : فيمكنها تغيير معدلات الضرائب ، فيما بصورة ملحوظة على التوظيفات غير الانتاجية على صعيد الاقتصـاد القومي ، وكذلك على الارث ، كما يمكنها ايضاً اللجوء الى طريقة الادخار الاجباري والقروض الاجبارية واقتطاع جزء من الارباح لايجري توزيعه ... الى غير ذلك من الوسائل التي نعرف من أن أكثرها قد طبقـه القطر المصري منذ سنوات . وجملة القول ان الغاية هنا هي تحقيق حجم من المشاريع التثميرية الانتاجية المتناسب مع طاقات البلد المتخلف وامكانياته والكفيل في ذاته باخراج هذا الاقتصاد من مرحلة التخلف والجمود الى مرحلة النمو والتقدم .

اما عن الربط بشكل منسق بين اهـداف التخطيط وتوجيه المشاريع التثميرية الانتاجية توجيهاً يضمن تحقيق هذه الاهداف ، فان ذلك يتجلى بالنقاط الثلاث التالية :

١ – توجيه التثمير نحو المشاريع التي يتأمن عن طريق اختيار تنفيذها اسرع معدل ممكن لتنمية الاقتصاد القومي . وهنا يجد البلد المتخلف نفسه امام أمرين : اما الشروع في اقامة الصناعات الاساسية التي تضمن له انتاج وسائل الانتاج ، وفي هذه الحال

يجب أن يكون البلد صاحب مورد ثابت من العملات الاجنبية ، وذلك كالدول صاحبة الموارد الثابتة من عائدات النفط او ماشابه ذلك (العراق ، السعودية ، ليبيا ...) ، او انه يتوجب على البلد التركيز على انتاج السلع التصديرية التي تؤمن له مع الوقت العملات الاجنبية الكافية والضرورية لتمويل عمليات استيراد الآلات والتجهيزات اللازمة لإقامـــة المصانع التي تنتج وسائل الانتاج (مصر ، سورية ...) . ولاشك ان الوضع الخاص لكل بلد وظروفه وخاصة مدى غناه بالثروات الطبيعية والمواد الاولية ، او اضطراره لاستيراد المواد الاولية هذه من اجل تصنيعها ، يؤثر على قضية الاختيار المذكورة . ولابد هنا من الاشارة الى ان على الدول المتخلفة التي تعمل على تدعيم حركة التصنيع من اخذ درس من البلدان التي مرت بالتجربة الاشتراكية ، اي ان تعمد الى تطوير القطاع الزراعي في الوقت ذاته الذي تعمد فيه الى تطوير القطاع الصناعي وقطاع النقل والمواصلات ، والى تطوير قطاع الصناعات الاستهلاكية ايضاً ، مادامت الغـــاية النهائية هي رفع مستوى معيشة أكبر عدد ممكن من افراد الشعب ، وبالاضافة الى ذلك فان الامر يختلف باختلاف اكتظاظ السكان او عدمه : فهل يعمد بلد متخلف مكتظ بالسكان كالهند او مصر الى استعمال الآلات ام يفضل استخدام اكبر عدد ممكن من اليد العاملة وان يستغني جزئياً في سبيل هذا الاستخدام عن استعمال بعض الآلات ؟ إن حل هـــذا الامر يتعلق في الواقع اولاً وآخراً بنظرة البلد الى مشكلة التنمية : هل يرغب في تحقيقها خلال امد قصير ام طويل؟ ومن البدهي الاشارة الى ان هذا الموضوع غير وارد بالنسبة لسورية مثلاً .

٢ — ان توجيه التثمير المرتبط بأهداف التخطيط يعتمد بصورة اساسية على ما يسميه الاقتصاديون بالنمو المتوازن لمختلف قطاعات الاقتصاد القومي . ويتجلى ذلك بالتوازن المادي للخطة من جهة ، والتوازن المالي او النقدي من جهة ثانية . اما بخصوص التوازن المادي فلا بد من احداث توازن بين حجم التثميرات وحجم الانتاج . وذلك لأن انتاج احد فروع الاقتصاد القومي يؤثر على انتاج الفرع الآخر ، الامر الذي ينعكس في الانتاج النهائي . فنقص في انتاج او استيراد كمية معينة من الحديد اللازم لانتاج كمية معينة من منتوج آخر يؤدي الى خلق عقبات او خناقات اقتصادية في وجه سير عملية التنميـــة مثلاً . والمقصود من التوازن النقدي هو ان تتساوى تقريبـــاً دخول المواطنين مع حجم السلع الاستهلاكيـــة المتوفرة في الاسواق . فاذا لم يكن هناك من توازن ، وكانت زيادة الدخول أسرع من زيادة انتاج او استيراد السلع الاستهلاكية ،

ظهرت بوادر التضخم النقدي . ورغم ان معظم الدول التي سارت في طريق التنمية على هذا الشكل ، وخاصة الدول الاشتراكية ، تعرضت لمشاكل التضخم ، الا انه من الاجدر طبعاً تجنب حدوثه بشكل صريح ومفرط ، وتلعب الموازنة النقدية ، اي تلك التي تؤمن إحداث توازن بين المدفوعات والواردات الخارجية ، دوراً فعالا في هذا المجال .

٣ - والنقطة الثالثة من ربط أهداف التخطيط بتوجيهه نحو المشاريع التثميرية الانتاجية تتعلق بعائدية او مردود استخدام الموارد خلال سير عملية التنمية وبعدها . ومن الواضح الاشارة الى تحديد هذه العائدية يعتمد بشكل رئيسي على جهاز الثمن أو نظام الأسعار المطبق . فجهاز الثمن هو الأداة الرئيسية المحددة لتكاليف الانتاج من جهة، والتأثير على الطلب من جهة ثانية . وهذا يعني ان تحديد مقادير الأرباح انما يرتبط بمشكلة تحديد السعر . ومن هنـــا يتوجب بنظري على الدول المتخلفة الآخذةبنموذج التنمية الاشتراكية ان تتجنبالتجربةالتي مرت بها الدول الاشتراكية من تحديد اداري للاسعار على أساس من التخطيط المركزي القسري ، لأن هذه الدول توصلت مؤخراً بعد فترة من التجارب الخاصة بها الى اتباع طريقة التخطيط اللامركزي بالنسبة لانتاج الصناعات الاستهلاكية خاصة ، وترك عامل العرض والطلب ، أي عامل الربح ، يلعب دوره في تسيير الحياة الاقتصادية ، كما هو الحال مع التطورات الأخيرة في الاتحاد السوفييتي وبقية بلدان الديمقراطيات الشعبية ، وخاصة يوغوسلافيا حيث عادت سوق العرض والطلب الى الظهور ، ولكن ضمن اطار التحكم بحجم العرض والطلب من قبل السلطات العامة . وليس هنا مجال التوسع بمثل هذا الموضوع . على أنه من الجدير بالبلدان المتخلفة التي اختارت النموذج الاشتراكي في التنمية ان تتجنب المبالغات التي تعرضت لها الدول الاشتراكية ، وخاصة قضية مركزية التخطيط ، وبالتالي المركزية الادارية لجهاز الثمن .

فالأساس في التخطيط الاقتصادي اذن كما رأينـــا هو التوصل الى تشكيل معدل مرتفع وسريع لتراكم رأس المال . واذا كانت الوسائل التقنية المذكورة كفيلة الى حد ما بتحقيق هذا المعدل ، فان البلدان المتخلفة تخضع لتيارات خارجية وداخلية ، تيارات من شأنها وضع العقبات في وجه امكانية اختيار هذه الوسائل التقنية . ومن هنـــا رأينا ضرورة بحث الاطار العام لمشكلة التنمية في البلدان المتخلفة التي اختارت النموذج الاشتراكي.

فالى أي حد يمكن لمعدل تراكم رأس المال ان يتشكل في البلدان المتخلفة من أجل زيادة نسبة الاستخدام وانتاجية العمل وبالتالي الدخل القومي والدخل الفردي ؟ الواقع ان هناك عقبات جدية تقف في وجه تحقيق معدل مرتفع من تراكم رأس المال في الاقتصاديات

المتخلفة . ولمعرفة هذه العقبات التي تقف في وجه التنمية ، والتي لايزيلها الا التخطيط الاقتصادي ، لابد من ذكر بضعة أسطر عن القضايا الاساسية للتخلف الاقتصادي(١).

من المعروف ان الوسائل الانتاجية المتوفرة في الاقتصاديات المتخلفة تكون عموماً غير كافية لتعبئة واستغلال الثروات وطاقات العمل الموجودة وفق الاساليب والطرق الحديثة في الانتاج . وهكذا فان الاقتصاد المتخلف اما ان يلجأ الى استخدام اليد العاملة الموجودة وفق الاساليب والطرق القديمة البالية ، الأمر الذي يعني ضعف انتاجية العمل ، وبالتالي ضآلة الدخل الفردي . والواقع اننا نصادف هذا الاسلوب في الاستخدام في الميادين أو القطاعات التي لم تعرف بعد الطريقة الرأسمالية في الانتاج ، أي ان اغلب الصناعات القائمة هي عبارة عن صناعات يدوية تتم في البيوت والحوانيت الصغيرة أو لحساب كبار المرابين . او ان الاقتصاد المتخلف يلجأ الى استخدام الطرق والوسائل التقنية الحديثة في الانتاج ، الامر الذي يعني زيادة انتاجية العمل ، وبالتالي زيادة الانتاج والدخل الفردي ، والذي يعني بالمقابل البطالة الجزئية وعدم الاستغلال الجزئي للقوى العاملة والثروات . لأن وسائل الانتاج الموجودة لاتكون قادرة ، نظراً لضآلة حجمها ، على تشغيل مجموع اليد العاملة واستغلال معظم الطاقات والثروات . وهذا يعني بالطبع ان زيادة الدخل القومي تكون ضئيلة . واننا نصادف هذا النموذج من التخلف الاقتصادي في البلدان أو الاماكن التي حل فيها الانتاج الرأسمالي في المصنع محل الصناعات اليدوية أو البسيطة ، الأمر الذي يعني زوال اصحاب هذه الصناعات ، كما ان ظهور الملكيات الزراعية الكبيرة او الاقطاعية يؤدي الى زوال صغار الفلاحين كمنتجين .

رأينا فيما سبق من كلام ان تراكم رأس المال الذي تحقق في البلدان الرأسمالية بفضل التوسع والاستغلال الاستعماري كان العامل الأساسي في نمو هذه البلدان . وعلى هذا فان عملية تراكم رأس المال تشكل العامل الرئيسي للقضاء على التخلف الاقتصادي . ولكن عملية تراكم رأس المال هذه تكون ضئيلة او غير كافية لزيادة التجهيزات ووسائل الانتاج زيادة مقبولة اقتصادياً خلال فترة قصيرة بعض الشيء . وهنا تكمن في الواقع المشكلة الاساسية للتخلف الاقتصادي . اذ انه من اجل ان يتحقق « تشكيل او تراكم سريع لرأس المال المنتج ، لابد من ان يدخر ويثمر بصورة منتجة جزء هام من الدخل

---

(١) اوسكار لانجه : ابحاث في التخطيط والاقتصاد الاشتراكي . دار الطليعة — بيروت ١٩٦٦ .

القومي »(١) ، كما يقول احد الاقتصاديين . ولكن نظراً لضعف انتاجيـــة العمل في البلدان المتخلفة ، وكذلك ضآلة الاستخدام . ونقص استثار الموارد ، فان الدخل القومي يكون ضعيفاً ، او ان زيادته في حال وجودها تكون ضئيلة وغير قادرة على توفير جزء هام منه من اجل ادخاره وتوظيفه بشكل منتج ، اي من اجل توليد تراكم رأس المال .

هناك اسباب متعددة وراء ضعف المعدل التراكمي لرأس المـــال ، لعل من أهمها السببان التاليان :

١ — استمرار وجود النموذج الاقطاعي في روابط الانتاج، والتركيب الاجتماعي، وبالتالي الاقتصادي ، الطبقي حيث تسود طبقة صغيرة وتسير الحياة الاقتصادية طبقاً لمصالحها . وهذان العاملان مترابطـــان : فالفائض الضئيل الذي يتحقق من الزيادة القليلة للدخل القومي . وذلك تبعاً للنموذج الاقطاعي في روابط الانتاج حيث تكون الانتاجية ضعيفة ، وهو مايدعونه عادة « بالفائض الاقتصادي » ، يكون ضئيلاً . ومع ذلك نجد ان الطبقة الاجتماعية المهيمنة في المجتمع تنفق الجزء الاكبر من هذا الفائض الاقتصادي انفاقاً غير متفق مع العائدية او الانتاجية الاقتصادية لمصلحة المجتمع ككل . ولعل طراز المعيشة والتركيب الاجتماعي لبلد كالهند او مصر قبل التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت فيها — وفي غيرهما من البلدان المماثلة يدعم هذه الفكرة بوضوح . ولعله من الجدير الاشارة الى ان فكرة اليد العاملة المنتجة وغير المنتجة ليست خاصة بفلسفة النظام الاشتراكي . فالاقتصاديون التقليديون تحدثوا عنها . فآدم سميث وريكاردو مثلاً هاجا الطبقة الارستقراطية الاقطاعية في زمانها لانها اتبعت طريقة في الانفاق والاستهلاك أدت الى تبديد مصادر الثروة للبلد ، وتشغيل اليد العاملة في نشاطات غير منتجة ، وذلك عوضاً عن ان يوجهوا « الفوائض الاقتصادية » والدخول والريع نحو تمويل المشاريع المنتجة اجتماعياً ، الأمر الذي يؤدي الى التمكن من تحقيق تراكم لرأس المـــال . وفي اعتقادي ان الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلدان المتخلفة حتى عهد قريب (بلدان امريكا اللاتينية ، اكثر بلدان آسيا وافريقيا ، غالبية بلدان الشرق الاوسط) هي اسوأ من وضع البلدان الرأسمالية التي نقد الشكل الاقطاعي فيها كل من سميث وريكاردو .

---

(١) انظر ص ٤٧ من L. Marczewski : Planification et Croissance Economique des Democratics Populaires . Paris, 1956.

٢ – اما السبب الثاني فقد تقدم ذكره وشرحه اعلاه: فنتيجة للسيطرة الاستعمارية والصفة الاحتكارية للنظام الرأسمالي خلال وفي اواخر القرن التاسع عشر كانت الفوائض الاقتصادية المتحققة في المناطق المتخلفة تذهب اما الى الانفاق غير المنتج داخل البلد ، او انها كانت تحول الى الخارج وتعود لجيوب اصحاب رؤوس الاموال المثمرة . وهكذا فان ارباح الاحتكارات الرأسمالية ، بفعل النظام الرأسمالي نفسه ، لم تكن لتثمر في المناطق المتخلفة التي تمر فيها رأس المال وحقق الارباح الكبيرة ، بل كانت تذهب بمعظمها لتمويل المشاريع الصناعية في « البلد الأم » او انه كان يعاد تثميرها في المشاريع التي تسهل الهيمنة السياسية والاقتصادية لرأس المال الاحتكاري ، او في الصناعات الخفيفة. وبكلمة واحدة كانت الارباح المتحققة تذهب الى حفنة من الاقطاعيين الذين ينفقونها بصورة غير منتجة لمصلحة المجتمع ، والى اصحاب رؤوس الاموال الاجنبية الذين كانوا يحولون هذه الارباح الى بلادهم او يوطنونها في البلد المستعمر ، اي المتخلف بلغة اليوم ، ولكن في المشاريع التي تعود عليهم ، لا على البلد نفسه ، بالفائدة .

والنقطة الاساسية التي يهمنا استخلاصها بالنسبة لموضوعنا من الكلام المتقدم هي ان وضعا كهذا لم يكن ليمكن من تحقيق تراكم كاف لرأس المال في البلدان والمناطق المتخلفة. وبالمقابل ، فان الوسيلة الرئيسية لقضاء الاقتصاديات المتخلفة على تخلفها هي ليس فقط مجرد عملية تشكيل وتراكم رأس المال بل تحقيق الاستفادة من هذا التراكم ايضا . وبالاضافة الى ذلك فان مجرد تحقق درجة عالية من تشكل وتراكم رأس المال لايعتبر امرا كافيا ، اذ لابد من حسن استخدام هذا الفائض الاقتصادي وحسن توزيعه لتمويل مشاريع التثمير المنتج .

ولكن كيف يمكن لاقتصاد متخلف ان يشرع في تحقيق هذا التراكم دون الاعتماد على اداة توجيهية تكشف عن نقاط الخلل وتمكن من علاجها ؟ من هنا تبرز في اعتقادي الفكرة الاساسية حول ضرورة التخطيط . فالتخطيط الاقتصادي هو الوسيلة الفعالة التي تمكن من بدء عملية تراكم رأس المال على الصعيد القومي . ونظرا لكون هذه العملية يجب ان تكون كثيفة وسريعة لكي يتمكن الاقتصاد المتخلف من القضاء على الاسباب الاساسية للتخلف ، فلا بد من ان يكون القطاع العام هو الذي يقوم بتهيئة وتطبيق سياسة مراكمة رأس المال عن طريق التخطيط الاقتصادي .

فالاساس بالنسبة للبلدان المتخلفة الهادفة فعلا الى التحرر من التبعية الاقتصادية والسياسية للبلدان الصناعية ، والى تطوير اقتصادها القومي بزيادة مستوى الاستخدام

والانتاج والانتاجية ، وبالتالي زيادة الدخل القومي بشكل ملحوظ. ومن ثم اعتماد فكرة التثمير المنتج في توزيع الفائض الاقتصادي بين مختلف القطاعات ، اقول : ان الاساس هو تبني سياسة التخطيط على الصعيد القومي بغاية تحقيق معدل سريع وملحوظ لتشكيل وتراكم رأس المال .

فمن اجل ان يتمكن اقتصاد متخلف من الشروع في تحقيق تراكم رأس المال اذن، لابد له من العمل على ازالة اهم اسباب التخلف التي ورد شرحها اعلاه :

آ – ازالة النموذج الاقطاعي ، بما في ذلك الاساليب والطرق غير الحديثة ، من علاقات الانتاج ازالة مطلقة .

ب – التحرر من التبعية السياسية والاقتصادية تجاه رأس المال الاجنبي ذي الطابع الاستغلالي الاحتكاري من جهة ، وتجاه سيطرة طبقة متحكمة في الدخل لاتنفق ما تحققه من ارباح على مشاريع التثمير المنتج اجتماعيا ، من جهة ثانية .

جـ – توجيه مايمكن اقتطاعه من الدخل القومي او الفائض الاقتصادي نحو تمويل المشاريع التثميرية الانتاجية ، وايقاف عملية تحويل الارباح الى الخارج، او انفاقها بشكل غير منتج من الفئة التي تجنيها في الداخل .

وغني عن البيان ان تبني التخطيط الشامل من قبـل الدولة يشكل الركيزة الاساسية لازالة معالم التخلف هذه ، ووضع أسس السير في تشكيل وتراكم رأس المال . وهذا الكلام يعني بوضوح استبعاد رأس المال الخاص الاجنبي من المساهمة في المشاريع الانتاجية في البلدان المتخلفة ، وبالتالي في تشكيل تراكم لرأس المال . وذلك لان رأس المال الخاص في الدول الصناعية اصبح مقتصراً تقريباً على « التنقل » بين عواصم هذه الدول حيث تتوفر الضمانة . ولان الدول المتخلفة لم تعد تقبل بسهولة استثمار رأس المال الاجنبي بغاية الربح فقط ومن ثم تحويل هذا الربح الى الخارج . ولأن رأس المال الخاص الوطني في اكثر الدول المتخلفة مستعد دوما « للهرب » ، فضلا عن انه لايوجد في هذه الدول ، الا نادرا ، فئة من اصحاب المشاريع الصناعية من اصحاب المبادهة الكافية حسب مفهوم « شومبيتر » للمستحدث . والخلاصة التي يمكن استنتاجها من هذا الكلام انه اصبح من الصعوبة بمكان اليوم تكرار التطور او نموذج التنمية الذي تحقق منذ اوائل القرن التاسع عشر . فدور رأس المال الخاص او الاجنبي قد ضعف وحلت محله القروض الحكومية والقروض من المؤسسات ذات الطابع الدولي . والنقطة التي تعنينا هنا من هذا الكلام هي ان عمليات التثمير ، اي تراكم رأس المال ، إنما تتم عن

طريق القطاع العام . فمن اسس التخطيط الاقتصادي في البلدان المتخلفة اذن قيام القطاع بكامل عمليات التثمير المنتج او بالجزء الاكبر منها ، أو مراكمة رأس المال . وبذلك يكون تطوير القطاع العام او القطاع المؤمم هو القوة المحركة والموجهة - عن طريق التخطيط الذي يتناول مجموع قطاعات الاقتصاد القومي نحو تحقيق التثميرات العامة بغية خلق ركائز صناعية ومشاريع اساسية لتنمية الاقتصاد القومي لمصلحة المجتمع. وبصيغة اخرى ، يقوم القطاع المؤمم برسم وتنفيذ الجزء الاكبر من المشاريع التثميرية الانتاجية التي تم تصميمها في خطة شاملة بصورة مسبقة . وهذا يعني ان القطاع المؤمم يكون المولد لسير حركة اقتصادية تهدف الى خلق استخدامات جديدة ، ودخول جديدة . وهكذا فان القطاع المؤمم بقيامه بالمشتريات اللازمة لسير عمليات الانتاج ، وبخلقه لدخول جديدة متناسبة مع توسعه ، يعمل في الحقيقة على توسيع السوق وخلق طلب اضافي على السلع الاستهلاكية التي ينتجها القطاع الخاص ، وعلى التحكم في سير الاقتصاد الوطني لمصلحة البلد ككل ، وجعل تطور وتوسع القطاع الخاص مرتبطا ارتباطا جذريا بتطور القطاع المؤمم ، اي القطاع الذي يمثل مصلحة المجتمع . من المؤكد اني لا اعني من هذا الكلام الغاء دور القطاع الخاص ، والمبادهات الفردية ، في تطوير الاقتصاد القومي . ولكن الذي اعنيه هو ان يكون القطاع المؤمم الذي ينبغي جديا خلق اسس حركة صناعية لتطوير مختلف قطاعات الاقتصاد القومي ذا وزن او ثقل اكبر واهم من وزن وثقل القطاع الخاص في خلق تنمية اقتصادية متوازنة . ومن المؤكد ايضا ان هذا الكلام لايعني بصورة مطلقة ان يقوم القطاع العام بوضع يده على جميع المشاريع الموجودة او التي يمكن احداثها . بل يمكن القطاع العام ان يقتطع جزءاً هاما من الارباح التي يحققها القطاع الخاص عن طريق الضرائب والقروض وغير ذلك ، ويوجه هذه الارباح نحو تمويل المشاريع التثميرية الحكومية الانتاجية والمؤدية الى زيادة الدخل القومي ومراكمة رأس المال ، كما هو الحال في الخطة الهندية .

وجملة القول انه في الظروف والاوضاع العالمية منذ نهاية الحرب العالمية والتي ادت الى انفجار الثورات القومية في البلدان التي كانت مستعمرة او شبه مستعمرة حتى ذلك الحين ، لابد لهذه البلدان ان ارادت السير في طريق التقدم الاقتصادي الحقيقي من تقوية القطاع العام او المؤمم الذي يعمل ضمن حدود تخطيط يشمل بصورة عامة جميع المرافق الرئيسية الاقتصادية والاجتماعية ، والذي يكون الاداة الموجهة والمسيرة ، لا التابعة ، للقطاع الخاص .

وهنا لابد لنا من وضع النقاط على الحروف حول أسس التخطيط في البلدان النامية او المتخلفة التي اتبعت الطريق اللارأسمالي في التنمية الاقتصادية . فاذا كانت اسس التخطيط في البلدان المتخلفة على وجه العموم تتركز في تأميم القطاعات الحيوية لشرايين الاقتصاد القومي ، وتطبيق قانون توزيع الاراضي على الفلاحين ، وذلك بدرجات وطرق مختلفة بسيطرة القطاع العام على قطاعات الاقتصاد القومي ، فهل تكفي مجرد عملية التأميم او سيطرة الدولة على مقادير الحياة الاقتصادية الى القول بأن التطبيق الاشتراكي قد تحقق ؟ وبلغة عملية نكرر هذا التساؤل : هل يمكن اعتبار تأميم بعض المرافق الاقتصادية في بلدين متقدمين مثل فرنسا وانكلترا بعد الحرب الثانية اتجاها نحو التنظيم الاشتراكي ، وهل يمكن اعتبار مجرد سير فرنسا في طريق التخطيط الاقتصادي ولوجها باب الاشتراكية ، وهل يمكن اعتبار تأميم النفط الايراني ، اوجزء هام من التجارة الخارجية في المغرب العربي ، أو « الاشتراكية على الطريقة التونسية » او حتى قيام دولة الكويت بخدمات اجتماعية هامة لمصلحة المواطنين ،من باب السير نحو الاشتراكية ؟ من المؤكد ان الاجابة هي النفي القاطع .

فالنمو الهام والسريع للقطاع العام او المؤمم لايحدد لوحده ، وبحد ذاته ، طبيعة ومضمون ومرمى التطور الاقتصادي والاجتماعي لبلد من البلدان . فقد يؤدي نمو واتساع القطاع العام الى قيام رأسمالية الدولة التي تسيرها لمصلحتها الخاصة حفنة من كبار الرأسماليين والاقطاعيين ، وقد يؤدي أيضاً الى ازالة العلاقات الرأسمالية غير المتطورة واقامة علاقات جديدة على اساس اشتراكي . واذا كانت الاداة نفسها – أي اتساع القطاع العام او المؤمم – تستخدم بشكل أقل او اكثر وضوحاً في الحالين ، فان الضابط المميز يكمن في الهدف المأمول تحقيقه من وراء اتساع مجال القطاع العام . كذلك فانه ليس مجرد وضع الخطة الخمسية أو غيرها بكاف لوحده للدلالة على ان الخطة هي فعلاً لمصلحة الاقتصاد القومي بمجموعه . اذ لابد من استخلاص ذلك من اهداف الخطة ذاتها .

وهكذا يرى بعض الكتاب الاشتراكيين ان الرأسمالية الاحتكارية للدولة تظهر بوضوح في الولايات المتحدة بانفاقها على التسلح (١) . فالشركات الخاصة الاحتكارية او الانحصارية تنتج الاسلحة وتبيعها للدولة باسعار احتكارية لاتتعرض للمنافسة . فالحكومة التي تمثل القطاع العام إن تأخذ الضرائب من افراد الشعب لتدفع جزءاً هاماً منها للشركات الخاصة الاحتكارية المنتجة للاسلحة . فالقطاع العام هنا واتساعه انما يكون في خدمة

(١) Mauriee Dobb : Capitalism Yesterday and Today. London, 1958

ولمصلحة رأس المال الفردي الاحتكاري . ويمكن استخلاص النتيجة ذاتها لدى دراسة التأميمات التي جرت في فرنسا وانكلترا عقب الحرب الثانية . وبالاضافة الى ذلك فان بعض الاقتصاديين الفرنسيين اخذوا يشككون بامكان نجاح الخطة الخامسة في فرنسا لان واضعي الخطة رأوا أن مصلحة الاقتصاد القومي تستوجب دمج بعض الشركات ، ولكن اغلب الشركات رفضت ذلك لتعارضه مع مصالحها كشركات تبغي الربح .

هذا بالنسبة للبلدان المتقدمة . أما بالنسبة للبلدان المتخلفة ، فالأمر في جوهره يبقى كما هو . فقد قدمنا ان البلدان المتخلفة قد حصلت بشكل أو بآخر على استقلالها الوطني بعد الحرب الثانية . ونظراً لأن التنمية الاقتصادية كانت هدف هذه البلدان ، فقد أخذت تبحث عن نموذج للتنمية . فكان أمامها النماذج الثلاثة التالية :

١ – النموذج الرأسمالي التقليدي الذي يبغي تحقيق التوازن العام . والواقع ان الفكر الاقتصادي الرأسمالي ، وكذلك التجارب الرأسمالية الحديثة ، اخذت تستبعد هذا النموذج ، فالاحرى بالبلدان المتخلفة ان تستبعده إذن .

٢ – النموذج الرأسمالي المتطور الذي يقوم فيه القطاع العام او المؤمم بنشاطهام والذي اخذ يتبع مبدأ التخطيط الاقتصادي ، كما هو الحال في فرنسا وهولندامثلا .

٣ – النموذج الاشتراكي الذي تمثل في التنمية السريعة او التصنيع السريع على اساس من التخطيط المركزي القسري والشامل .

والنموذجان الثاني والثالث يرفضان – بشكل مختلف طبعا – الطريقة العفوية في التقدم الاقتصادي . واتبعت البلدان المتخلفة بشكل عام هذين النموذجين في وقت واحد دون ان تتبنى احدهما بشكل حصري . لذلك يمكننا القول ان البلدان المتخلفة ، وخاصة في السنوات التي تلت الحرب الثانية ، كانت تحاول ان توجد لنفسها نموذجاً معيناً في التنمية يعتمد بجوهره على هذين النموذجين . ولعل مثال التخطيط الاقتصادي في الهند يجسد هذه الناحية تمام التجسيد . ولكن مع الزمن اخذت بعض هذه البلدان تعير المشكلة الاقتصادية والاجتماعية على صعيد مجموع الاقتصاد القومي اهمية اكبر ، بالاضافة الى اوضاعها وظروفها الخاصة من الناحية السياسية خاصة . وهكذا فانه في الحين الذي بقيت فيه بعض البلدان المتخلفة اقرب الى النموذج الرأسمالي المتطور في طريقتها في التنمية الاقتصادية ؛ وذلك كتونس والاردن وبعض دول امريكا اللاتينية ، نجد ان بلداناً اخرى وجدت ان مصلحتها السياسية والاقتصادية تستوجب الاقتراب اكثر فاكثر من النموذج الاشتراكي في التنمية ، وذلك مثل سورية ومصر والجزائر وغانا* وكوبا .

* غانا اخذت تعدل عن النموذج الاشتراكي المشار اليه ، بعد ابعاد الرئيس نكروما المعروف .

فلتمييز البلدان السائرة في الخط الاشتراكي للتنمية عن تلك السائرة في الخط الرأسمالي بشكله الحديث ، لايكفي مجرد النظر الى وجود القطاع العام او التأميم او الاخذ بمبدأ التخطيط الاقتصادي ، بل لابدمن معرفة الغاية او الهدف من عمليات التأميم والتخطيط . ويتجلى هذا الهدف ويتوضح بالنسبة للدول المتخلفة الآخذة بالسبيل الاشتراكي في توجيه التنمية الاقتصادية الفعلية بالفكرة التالية : فبالقدر الذي تتمكن معه الطبقات الاجتماعية الواعية غير الاقطاعية والرأسمالية من توجيه سياسة الدولة ، وبالتالي التحكم بقراراتها الاقتصادية، بالقدر الذي يمكن معه القول ان البلد المتخلف يسير في الطريق الاشتراكي للتنمية.

والخلاصة ان اساس التخطيط الاقتصادي في البلدان المتخلفة الآخذة بالطريقة الاشتراكية في التنمية يتلخص بالظواهر الثلاث التالية والمترابطة فيما بينها :

١ – التحرر من التبعية السياسية والاقتصادية تجاه العالم الخارجي ، وخاصة تجاه الروابط الاستعمارية التقليدية وبشكلها الحديث .

٢ – التحرر في الداخل من سيطرة الطبقة الاقطاعية والرأسمالية الاحتكارية، وتسلم زمام التوجيه في الدولة من قبل الطبقات الاجتماعية الواعية التي تربط فعلا مصالحها بمصلحة الاقتصاد القومي ككل : من التصنيع الى رفع مستوى معيشة اكبر عدد ممكن من أبناء الشعب .

٣ – اتساع القطاع العام ولعبه الدور الموجه للاقتصاد القومي عن طريق الخطة الشاملة وهيمنته على قطاعات الزراعة والصناعة والتجارة والقطاع المالي والمصرفي .

ولا بد من الاشارة اخيراً الى أن البلدان المتخلفة التي تبنت النموذج الرأسمالي المتطور في التنمية الاقتصادية ستحقق بدون أي شك تقدما . ولكنها لن تتمكن من المحافظة على هذا التقدم في الأمد الطويل . ذلك ان وتيرة التقدم أو التنمية ستكون اسرع في البلدان المتخلفة التي تبنت السبيل الاشتراكي في النمو . وكما ان الدول الرأسمالية تبنت بعد الحرب الثانية مبدأ التخطيط الاقتصادي للاسراع في عملية التنمية وضبط معدلاتها على نسق ماجرى في الاتحاد السوفييتي ، كذلك فان الدول المتخلفة التي تبنت النموذج الرأسمالي المتطور في التنمية لابد لها في الامد الطويل من الاقتراب اكثر فاكثر من النموذج الاشتراكي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، كل ذلك مع اخذ فوارق البنيان الاقتصادي والتركيب الاجتماعي والمستوى الثقافي لهذه المقارنات بعين الاعتبار . أما عن وتيرة النمو السريع لبلد كاليابان الذي اتبع النظام الرأسمالي ، فقد تم في ظروف دولية تختلف عن الظروف الراهنة التي تتطور ضمن إطارها الدول المتخلفة .

وختاماً فاننا نرى ، بعد أن استعرضنا واقع التطور التاريخي للبلدان المتخلفة ، ونماذج التنمية التي بالاعتماد عليها وعلى مضمونها واهدافها يمكن توضيح معالم اسس التخطيط الاقتصادي ، بحيث يمكن تحديد مدى مركزية أو لامركزية التخطيط ، أي مدى الاخذ أو عدم الأخذ بالاتجاه أو النموذج الاشتراكي في التنمية ، اقول : أرى طرح الموضوع على بساط البحث والمناقشة . وان مناقشة نقاط الانطلاق هذه هي التي تحدد بنظري الأسس الواجب اتباعها في التخطيط الاقتصادي ، لذلك لم الجأ الى مجرد تعداد وشرح الوسائل والعناصر التي يقوم عليها التخطيط في الاتجاه الاشتراكي كتقسيم الاقتصاد القومي الى قطاعات والتحدث عن أهداف التخطيط وتنسيق مضمون الخطة مع الامكانيات الاقتصادية للبلد ، وعن المظاهر المادية والمالية للخطة ، وعن تأميم التجارة وبقية القطاعات الحيوية في الاقتصاد القومي .



مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٣٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الكتاب والموضوعات

الكتابة باعتبارها علاجا

Schreifen als TheraPie

للناقد الألماني ڤالتر هيلزبشر
Walther Hilsbecher
ترجمة محمد جديد

كتب غوته في كتاب « الشعر والحقيقة » يقول: « ان كل ماعوف عنه ليس الا اجزاء من مذهب كبير » وهذه بقية جملة توضح كيف ينبغي لنا ان ننظر الى مفهوم المذهب ، فان غوته يعتبر الدافع الى قوض الشعر عنده تلك القوة التي ترغمه على ان يحول كل مايسره او يعذبه او يشغله على نحوما الى صورة او قصيدة لينتهي الى سلام مع نفسه وليصحح مالديه من المفاهيم عن الاشياء الخارجية وليهدىء مايعتلج في داخل نفسه .

(*) الترجمة عن الألمانية

ولن نحاول الآن ان نفسر هذا الكلام ، بل نفضل ان نكمل سلسلة شواهدنا ، فالأديب « هوفمنزتال »[1] يقول في مذكراته :« ان مهمة الشعر هي : التطهير والتنظيم والتعبير ،وهذه المهام تتناول كل ماهو متناقض متعاكس في حياتنا ، كما تتناول اضطراب المادة في نفوسنا »

وفي محاضرة لبن(٢) بعنوان : « الشيخوخة باعتبارها مشكلة للفنانين يتحدث الكاتب عن الفن باعتباره ظاهرة تهدف الى التحرر والى تخفيف حدة التوتر العصبي وباعتباره عنصراً منفساً ، ويذهب الفيلسوف لودفيغ فتغنشتاين الى ان الفيلسوف يعالج السؤال كما يعالج مرضاً من الامراض ، ويقول الشاعر الغنائي فيلهلم ليهان ان الشاعر يرد على هجوم الحياة بهجوم اللغة ، ونستطيع ان نلخص ماهو مشترك في هذه الاقوال كلها بالكلمات التالية: التهدئة والتطهير والتحرير وتخفيف التوتر العصبي والتنفيس » ولكن مم يكون التطهير والتحرير ؟ انه التحرير من التناقض الشنيع في الحياة كما يقول هوفمنزتال، انه التحرر من اضطراب المادة الرهيب ، ويعبّر غوته عن هذا بصورة اكثر شمولا ، فالفن شيء « يسره » او « يعذبه » او يشغله على نحو ما وفي القصيدة يبني هذا العذاب ويبدىء مايعتلج في داخل نفسه . ولكن اذا كان هذا الشيء الذي يعذبه او يسره او يشغل باله على نحو ما شيئا حاسما يزعجه او يسلبه الراحة فأية راحة هذه ؟ اننا نستطيع ان نقول انها راحة النفس عندما نفهم من كلمة النفس في هذه الحالة شيئا يمكن ان يكون المادة الاساسية الشخصية أي عندما نعني بذلك مادة مشتركة تربط بين الجسم والروح وتعطي ردود أفعال متساوية بذاتهـــا للمؤثرات والحوافز والاضطرابات النفسية ، وعندئذ تكون راحة النفس نوعاً من حالة التوازن عند الفرد . أي حالة سكون مرآة النفس وصفائها ونقائها ، اي عندما لاينعكس على هذه المرآة شيء ولانحس بشيء ولايؤثر فيها شيء ولانفكر في شيء — اي عندما تكون في حالة الفراغ اللذيذ . واذا تناولنا المسألة من نقطة الفراغ اللذيذ هذه فلابد لكل اضطراب في المشاعر — سواء اكان ساراً أم مؤلما — ولابد لكل فكرة وكل سؤال موجه الى الفكر وكل مشكلة من ان يشعر بها الانسان كأنها تعكير للنفس ، ومن اجل ذلك يسمي الفيلسوف

---

(١) Hugo von Hoffmannsthal ولد بفينا عام ١٨٧٤ ومات عام ١٩٢٩ .

(٢) Gottfried Benn طبيب وشاعر غنائي ، ولد ببرلين عام ١٨٨٦ ومات عام ١٩٥٦ ، وهو من شعراء المدرسة التعبيرية . «المعرب»

فيتغنشتاين السؤال الذي يلقي عليه بالمرض،ومن اجل ذلك يتحدث الشاعر الغنائي قبلهم ليهمن عن هجوم الحياة المستمر الذي يتعرض له الانسان (وهل يكون المرض شيئاً آخر سوى هجوم الحياة على صحتنا ؟)

ونحن لما نتحدث بعد عن امكانات الاجابة على هذا الهجوم وانواعها ، فنحن نريد ان نرجىء التساؤل عن ذلك قليلا لنقرر ان اولئك الذين نستشهد بهم (غوته.وهوفمنزتال فيتغنشتاين ، ليهمن) يصفون طبيعة الوضع الاساسي للانسان بالاضافةالى وصفمركز الانطلاق قبل الاجابة على السؤال . وهذا امر مهم من عدة وجوه – وهو مهم بالقياس الينا لأننا سنتحدث فيما بعد عن المهام الاجتماعية للكاتب . تلك المهام التي تتجاوز الفرد ويهدف اليها الكاتب في عمله . وهنا يتبين لنا إن الصراع الدائر حول ماإذا كان الكاتب يكتب لنفسه او للمجتمع ، أي لعامة الناس ، ينطلق من مقدمات منطقية خاطئة ،وانه يصبح – بناء على ذلك – غير ذي موضوع .

غير انه ينبغي لنا الآن ان نظل في مواجهة ماسميناه (بالوضع الاساسي للانسان) وان نحاول ان نصوره باصطلاحاتنا الخاصة وذلك بأن نستخلص فحوى ماقدمه الياغوته والآخرون حول هذا الموضوع بصورة مباشرة او غير مباشرة .

ومن الطبيعي أننا نستطيع أن نفعل ذلك بشكل تصويري أو تشكيلي ، على نحو مايفعل علماء الذرة حين يحاولون أن يبينوا حقيقة الذرة بالصور والنماذج. وفي هذا الصدد نحلل تعقد الواقع الهائل ونبسطه وسنغض النظر بادىء الأمر عن التعقد الداخلي في نفس الانسان وعن الملابسات المتعلقة بعقدة الجسم والعقل والروح الـتي يمثلها ذلك الانسان ونعرضه في وحدة نفسية بسيطة أمام بيئة مبسطة كذلك . وبعبارة أدق : نحن نريد أن نصوره دائرة صغيرة مغلقة على نفسها تصطدم عند محيطها ببيئة لاتستطيع أن تتجاهلها ومن أجل التبسيطلن نقسم هذه البيئة الى أجزاء متفرقة لأنها تتألف من هذه الأجزاء بالبداهة ، والحق أنها لاتنطوي على تعقيد إنساني عضوي فحسب ، بل إنها تنطوي على تعقيد هائل . تعقيد الحياة والواقع نفسه ، ومع ذلك فان هذا التعقيدلايهمنا هنا إلابمقدار مايكون سبباً لكثير من المؤثراتالتي تعصف بهذه الذرة الروحيةالصغيرة(Monade)، وهذه الذرة تشبه في بحر بيئتها جزيرة ضئيلة تتعاورها الرياح والمياه وطعنات الضوء من كل ناحية ، إنها حصن صغير معرض لهجمات الحياة العديدة التي لاتنقطع .

ولابد لي هنا أن أبادر على الفور إلى الحيلولة دون إســاءة الفهم التي تؤدي الى

الاعتقاد بأنني أتأثر في ذلك بالفلسفة البطولية التي لاتعدو في أساسها أن تكون جانباً واحداً معيناً من الواقع . فان مصطلحات مثل هجوم الحياة وطعنات الضوء قد تؤدي الى مثل هذا الخطأ في الفهم ، وقد تؤدي الى الاعتقاد بأنني اتنكر لنصف الحياة الثاني كله ، وهو السرور والمرح والافتتان ، وكأن الالم والخطر الغامض قد امتصا كل امكانية السعادة الانسانية ، وليس الامر كذلك هنا ، وليس هذا ما أعنيه ، فلقد تحدثت قبل ذلك عن الراحة أو حالة التوازن النفسي وعن حالة الفراغ اللذيذ الذي يستطيع الانســـان أن يتمتع به ، وهذه الحالة يجب أن تؤخذ على انها نقطة انطلاق ، وهذا يعني بالقياس الى النموذج الذي نحن بصدده أن الدائرة أو الذرة الروحية (Monade) صحيحة والانسان غير مصاب في صحته ، وكل منا يدرك أن مثل هذه الحالة لاتوجد الا في عالم الفكر فنحن لانلبث جزءاً من الثانية في مأمن من تساقط قطع البَـرَد التي تعصف بنا ، فنحن نتعرض للضوء والمطر والرياح وأصوات الجيران وصخب الأصوات الأخرى ، والى أسراب عديدة أخرى من المؤثرات لانكاد نميز بعضها من بعض ، وعندئذ ترتعـــد بشرة الذرة الروحية الرقيقة تحت قصف هذه الارتجاجات التي يتسلل قسم منها الى جوف تلك الذرة **ويعيث فيها** فساداً فيثير فيها « **مشاعر** » و « أفكاراً » عندما **تكون في** حالة الصفاء فتصل الى المعرفة ، ثم تتسابق المشاعر والافكار الى عالم التعبير وعندها تصاب منطقة الفراغ اللذيذ وتصبح في حاجة الى الاصلاح ، ومن أجل ذلك لابد لكل جسم غريب تسلل الى النفس أن يخرج منها خروجاً كاملا الى أقصى حد مستطاع ، **واذا أردنا** التعبير عن ذلك بصورة أبسط فلنا أن نقول إن **الانطباعات** التي نستقبلها تحتاج الى أن نعبر عنها ، أي الى أن **نمحو انطباعها** من صفحة نفوسنا .

واذا تناولنا كلمة انطباع (Eindruck) بالمعنى اللغوي فسيظهر لنا كل ماقصدنا إليه بعبارة « هجوم الحياة المستمر على صحتنا » متضمناً في هذه الكلمة ، فلا بد لنا أن نتلقى « **الانطباعات** » ، التي « **تطبع أنفسها علينا** » وتصيبنا عند ذلك

---

(١) في هذه الجملة شيء من التصرف أوجبته طبيعة الجملة التي تتضمن في نصها الأصلي نوعاً طريفاً من الجناس لجأ اليه المؤلف تسهيلاً لفهم الفكرة مستفيداً من العلاقة اللغوية الوثيقة بين كلمتي Findruck انطباع Ausdruck تعبير . وقد يزداد هذا الأمر وضوحاً اذا قارنا بين هاتين الكلمتين في اللغة الانكليزية Expression - Impression .

« المترجم »

ولو كانت الإصابة طفيفة لانكاد نشعر بها ، ونحن نرد على ذلك بالتعبير (Ausdruek) ويمكن صياغة التعبير بسهولة ، فلنفرض مثلاً أن إنساناً يقف إزاء منظر غروب الشمس الذي يراه للمرة الأولى بكل روعته بحواس متيقظة ، فأي حرف يمكن أن يصدر عنه في هذه الحالة يعبر تعبيراً مباشراً عن الانطباع الذي تلقاه ، إنه محاولة الخروج من حالة الاضطراب الذي عانى منه نتيجة لذلك الى حالة التوازن الداخلي ، وبعبارة اخرى إن هذا الحرف الذي يمكن أن يصدر عنه يشبه صرخة الألم التي يطلقها من أصيب بحجر أو بضربة فأس ، وربما كانت الإصابة الطبيعية المرئية لاتعدو أن تكون العلامة الخارجية لهجوم أشد عنفاً على ذلك الانسان ، وربما كانت الطاقة التعبيرية لذلك الحرف أشدوأعنف غير أننا لانريد أن نقرر بذلك شيئاً حاسماً حول العلاقة بين الانطباع والتعبير ، بل يمكننا أن نستخلص من كل من المثالين اللذين تعمدنا أن نجعلها بدائيين ، اشارتين : فنحن نريد أن نقرر أولا ما إذا كانت الانطباعات أو « هجمات الحياة » ذات طبيعة فيزيائية أونفسية أو روحية ، وهذه المسألة ليست بذات أهمية أساسية ، والشيء الأهم من ذلك أن هذه الانطباعات « تصيب » على كل حال وأنها « تُسَجَّل » ولو كان ذلك في اللاشعور ، وأنها تبلغ في وقت من الأوقات مرحلة تستطيع فيها أن تهدد توازنالفكر والروح ، وقد تهدد في بعض الأحيان توازن النفس ، وقد يحدث ذلك عند الترنم أو التكرار . ونحن نريد أن نقرر ثانيا أن هذا التهديد أو الازعاج قد يكون ساراً أو مؤلماً ، فضربة الفأس تصيبنا اصابة تختلف عن الانطباع الذي يسببه منظر غروب الشمس ، غير أن كلا من الإصابة والانطباع يؤديان الى اضطراب في داخل أنفسنا ، وهذا يعني ، قياساً على حالة الفراغ اللذيذ ، التي سميناها بنقطة الانطلاق ، أن السرور والألم ، (أو المتعة والألم) لايختلف أحدهما عن الآخر من حيث الكيف ، فنحن نعرف من حياتنا حالات الانتقال من الضحك الى البكاء ، أي الحالات الفاصلة التي ينقلب السرور فيها الى ألم ، بل ان هناك أمثلة على أن الآلام الــتي لاتكاد نطاق يمكن زيادة درجتها وعندئذ تتحول فجأة الى مشاعر ذات متعة هائلة ، ان من يفهم السرور والألم على أنها ضدان يتمسك بالميزان الشائع للمشاعر ، واذا نظرنا الى المسألة من نقطة الصفر المطلق فان نقطة الصفر في هذا الميزان ليست الا درجة في قائمة القيم الصاعدة والهابطة واذا نظرنا الى الموضوع من هذه النقطة ، أي من حالة الراحة التامة للنفس فان حالة الإثارة الممتعة تعتبر تعكيرا (وان كان تعكيراً لطيفاً) ، أي أنه اضطراب وعلة ومعاناة وألم .

لقد بينا هذا كله لنوضح المصطلحات اللازمة لمناقشاتنا المقبلة ، انها المصطلحات التي عانت من سوء التقدير في المجال الديني ، فان المبدأ البوذي الذي ينص على أن الحياة هي الألم لايعني أن علينا ألا ننتظر من الحياة الا الظلمات بل يرمي من وراء ذلك الى تثبيت حالة الراحة النفسية المطلقة التي ذكرناها ، وحين اذكره هنا فانما اريد أن أبين أن جذور الفن والكتابة لاتمتد الى أسس اعمق من تلك الاسس التي تمتد اليها الأديان ، وهذا لايعني بالطبع أن الكتابة والفن ينتميان الى اصل ديني ؛ فالأحرى أن نقول ان الدين والفن والكتابة تعتبر محاولات مشتركة ذات أنواع مختلفة يقوم بها الانسان للتخلص من السبب الاساسي الذي يتهدده بالخطر (وهذا يعني تهديد صحته (١)) وبذلك نستطيع أن ننتقل من وصف هذه الحالة الاساسية الى الاجابة عنها . ان أي حرف يصدر عن الانسان ازاء منظر غروب الشمس وصرخة الألم التي هي رد فعل على ضربة الفأس يمثلان تلك الاجابة ، واذا شئنا فنحن نستطيع ان نعتبر اصل القصيدة شكوى بدائية ، وهذا أمر لاتتجاوز قيمته قيمة ملاحظة عابرة . والآن لابد لنا أن ندع العموميات جانباً وأن نتوجه الى الهدف الخاص المتعلق بالاجابة الخاصة الكاتب . لقد حاولنا حتى الآن ان نتقصى جذور اجابته فوجدناها متمثلة في الوضع الاساسي للانسان الذي يتفرع منه بعض الاجوبة الاخرى ، وربما كان علينا ان نقول ان هذا الوضع الاساسي يرتبط به كل جواب ، لأن من الممكن أن يكون كل نوع من السلوك الانساني والفعل الانساني رد فعل على هجوم الحياة ، محاولة دفاع ، محاولة للعلاج ، وهذا لايقلل مما نجد للفن والكتابة من قيمة ، بل يثبت لنا ، على النقيض من ذلك ، ارتباط الفن والأدب الوثيق بالحياة باعتبارها الظاهرة الكلية بمجموعها ، كما ان هذا يشير الى المعنى الجماعي للفن والادب انطلاقاً من ذلك الاساس الجذري ، فاذا كان الفن ، بما في ذلك فن الكتابة ، شأن كل سلوك انساني آخر ، محاولة للعلاج يقوم بها الانسان تجاه نفسه فان الفن ينضم الى كل محاولة للعلاج مهما كان نوعها ، وان تكن اكثر بدائية . ان الفن يقوم بالحركة الداخلية نفسها ، وهذا يعني ان كل انسان مشابه للكاتب يمكن ان يأخذ بحظه من الفن . ان الفن يتحول الى رمز لمطامح الانسان التي تختلف من حيث النوع ولكنها تشترك في الاتجاه ، وهو يكتسب القوة الشافية التي تمثله حسب حدة عمله التصويري ، وذلك عندما يستطيع ان يتغلغل حتى يصل الى اساس الألم المشترك . وسنعود الى بيان ذلك .

(١) Integritae

والآن يتصل الموضوع بمحاولة ترك العموميات والوصول الى الحلول الحاسمة . وهنا لن نتمكن ، في هـــذا الاطار على الأقل ، من وصف الظواهر المتعلقة بالفروق ووصف عملية تطورها، ولا بد لنا ان نكتفي بالاشارات . لقد قلنا ان الانسان يرد على البَرَد المتساقط عليه ، والذي يتجلى في الانطباعات ، بالتعبير لئلا ينهزم امام هـــذه الانطباعات ، ان اي حرف يصدر عن الانسان بفعل الدهشة او الافتتان ، وان صرخة الألم والسلوك البسيط والبحث اليومي عن الغذاء وبناء الكوخ – كل هذه اشياء ربما كانت تكفيه حيناً من الزمن ، ولكن لا بد ان الانسان قد اهتدى في مرحلة مـا من مراحل تطور الحياة المتزايد المتنوع الى ان هذا لا يكفي حقاً ، فان الانسان ، او هـــذه النماذج المرهفة الحس من جنسه التي ترك فيها الانطباع تأثيراً أعمق ، قـد شعرت بتفوق هـذه الانطباعات في القوة ، ولم يكن العمل اليومي والحروف شيئاً يذكر ازاء هذا التفوق . أجل لقد احس هؤلاء قبل فرويد بزمن طويل خطر النسيان الهائل ، اي خطر تكاثف الانطباعات وتراكمها ، وشعروا شعوراً اقوى من شعور الآخرين بالمتناقضات المؤلمة في عملهم اليومي .

وأنا لا أقول أنهم فعلوا ذلك كله عن وعي ومعرفة على النحو الذي نبينه هنـــا الآن – انني اقول انهم شعروا بالأمر على هذا النحو وانطلق شيء في أعماقهم بطرق ووسائل أخرى ، شيء من الرقة ومن الطاقة النفسية التي لا يمكن تحملها . لقد وجدوا الوسائل في صياغة الصورة والصوت واللغة .

وهنا يظهر مفهوم الشكل (Gestalt) لأول مرة في محاولتنا هذه (فان عبارة التشكيل Gestaltung تأتي من كلمة شكل Gestalt) ، وسنرى كيف ان هذا المفهوم يمكن توحيده مع تصورنا الخاص بالكتابة والعمل الفني وعملية المعالجة . لقد قلنا ان كل انطباع نتلقاه يعد اصابة طفيفة او فادحـــة تتعرض لها صحتنا ، وانما تعني الصحة (Integriât) على وجه الدقة : الصفاء والسلامة من كل شيء ، كما انها تعني انعـــدام التأثر ، فكل ما لم يتأثر فهو صحيح ، وهذا يعني ان نظام صورته الاصلية محفوظ محقق ، وعندما يتعرض هذا النظام للاصابة تسود الفوضى التي يطمح فيها المصاب الى العودة الى النظام ، ولا يحتاج المصاب الا الى قليل من الوقت ليتحقق من ان النظام لا يمكن اعادته كاملا ، فهو يبحث عن الكمال الذي يتوق اليه بحثاً مجازياً ، ويحاول ان يبتدع الكمال في شكل ذي نظام كامل الى ابعد مدى ممكن ، وهو يضفي هذا النظام على الانطباع الذي

تلقاه حين يعبر عنه ، ولنا أن نقول ان هذا يمثل انتقامه من ذلك الانطباع الذي اصابه، وانه لانتقام بارع فكري الى حد بعيد . ان صحة متلقي الانطبـاع المصابة ترد على الانطباع الذي يزعجها بالشكل السليم الصحيح ، وهـذا موضوع يحتاج الى المضي في التفسير من جـديد ، ولكي نفرغ منه الى غيره نقول انه لابد لنا ان نفسر الشكل تفسيراً أكثر وضوحاً ولا بد لنا ان نتعرف تعرفاً أعمق على التأثير المتبادل المعقد بين الانطباع والتعبير ولا بد ان نحول من جـديد دون اساءة الفهم التي يمكن ان تنجم عن اصطلاح (الشكل السليم) . فهذا الاصطلاح لايعني ان العـالم الذي يبتدعه الكتب من نفسه جواباً على مايعاني من الاضطراب لايكون الا عالماً جميلا ممتعاً ، ولو أننا جعلنا هـذا مبدأ اذاً لانتهت الكتابة (بل الفن كله) الى أن يكونا أكذوبة ، ذلك لان الكتابة ليست الا جواباً (وان يكن جواباً جزئياً) على الواقع بمجموعه وليس الواقع بمجموعه ممتعاً كله ولا جميلا . ان مفهوم الشكل السليم ينبغي أن يفهم على نحو آخر ، وطالما اننا قلنا ان كل انطباع يصيبنا ويتغلغل في نفوسنا ويسبب ألواناً من الفساد (في النظام المثالي لشكلنا) وان تكن ضئيلة جداً فان هذا يمكن صياغته صياغة أدق على النحو التالي : ان الانطباع جسم غريب ، انه فيروس مسبب للمرض نحاول ان نتخلص منه تخلصاً كاملاً إلى أبعد مدى ممكن ، وعندما نقول : كاملاً إلى أبعد مدى ممكن فانا نعني انه لايجوز ان تبقى منه بقية قيد الـ ، فعندما ننتزع قراداً أنفذ خرطومه في جلدنا ليمتص دمنا بعنف ثم يبقى الرأس فان هذه البقية تؤلمنا وهذا يعني بالقياس الى مشكلتنا اننا لانتخلص من انطباع حقاً إلا عندما لانمزقه ، بل ندعه في حالة فوضى الشكل . ووجه الصعوبة هو أنه اذا أصابنا انطباع ذات مرة وتغلغل فينفوسنا فان الفصل التام بين الشكل الخاص به والشكلالخاص بنا يصبح أمراً متعذراً. انالانطباع يذوب فينا كما اننا نذوب فيه ، غير ان شكلاً جديداً يحاول ان يتبلور من هذا «الحلول» (إذا فهمناه بالمعنى الكيميائي) . ان الحلول ، أي المزيج يحاول ان يفصلعناصرهبعضها عن بعض ، فان كلاً من الانطباع ومتلقيه لم يجتمعا اجتماعاً وثيقاً إلا ليعودا بفعل عملية الانفصال الى شكليهما القديمين . لقد تم التبادل : فثمةشيء من الانطباع يتخلف في نفوسنا كما أننا أضفينا على الانطباع شيئاً من نفوسنا وذلك بتعبيرنا عنه . ونعود فنقول إنه على الرغم من ذلك لايجوز أن يبقى بقية ، وعندما نقول إنه لايجوز أن يبقى بقية فانا نعني بالبقية هذا الشيء الذي لم يكتسب شكلا عن طريق التعبير . وهنا نواجه ضرورة تقضي

بأن نتجه الى مفهوم الشكل (Gestalt) بالوسائل المعروضة آنفاً لنزداد قرباً منه ، فنحن لانعني بالشكل شيئاً مادياً إذ أن الشكل مبدأ ذهني وهو بهذا الاعتبار يمثل نطاقاً تلقائياً مستقراً في نفسه . وعندما أصابنا الانطباع التقى نظامان تلقائيان وجهاً لوجه وتمازجا ثم جعلا يبحثان من خلال فوضى التمازج عن نظام جديد كامل ، أي عن شكل جديد وبذلك حقق متلقي الانطباع وذلك الذي أتيح له أن يعبر تعبيراً كاملاً عن الانطباع الذي تلقاه أمرين : لقد أوقفا عملية التخريب المتبادل بينهما وبين شكل الانطباع كما أنهما أعطيا نفسيهما شكلاً عن طريق اضفاء شكل على الانطباع أثناء التعبير عنه ، ومن هنا ينتج ماسمّيناه جوته بالتهدئة وما سميناه بالفراغ اللذيذ ، أي النقاء والخلو من البقع في صفحة النفس ، أي الصحة (Integrität) وهذه الصحة تماثل صحة الشكل الذهني الخاص بنا ، واذا تحققت هذه الصحة فنحن محتفظون بالنظام باعتباره كلاً كاملاً . إن نظام الشيء الذي عبرنا عنه ونظامنا الخاص المتمثل في الشكل يعكس كل منها الآخر ، فالأول رمز للآخر .

والآن قد يعترض معترض بأنه ليس كل انطباع يصيبنا ذا شكل وذا نظام كامل ، واذاً فهذا النموذج الذي يستخدم هنا لشرح عملية التشكيل واقع في غير محله ، وهنا ينبغي لي أن أقول ماقلت في موضع آخر على سبيل التحديد ، وهو ان النماذج التي هي من هذا النوع تبسّط الموضوع وتيسره ، وأخيراً ينبغي لنا أن نتناول في موضوعنا هذا كل تعقد الحياة وتركيبها ، ذلك التعقيد الذي يؤثر فينا تأثيراً لا سبيل الى تفاديه والذي نقوم بمحاولة لابد منها لمعالجته . غير ان هذا الرد ليس بالرد الوحيد ، ففي أساس كل شيء فاقد الشكل تكمن امكانية وجود الشكل وفي أساس كل اضطراب يكمن الهدوء . فاذا أصابنا شيء لاشكل له باعتباره انطباعاً فان حادثة الازعاج وحادثة اثارة نظامنا الداخلي تظلان على ماهما عليه ، وسواء أكنا نتلقى شيئاً ذا شكل ام كنا نتلقى شيئاً لاشكل له فان الانطباع الذي يصيبنا يفعل مفعول جسم غريب وهو يزعجنا مادمنا عاجزين عن طرده بتشكيله في صورة وفصله عنا وهذا امر يتصل ببنية عقلنا .

ان من الحق ان الانطباع حين يصيبنا (سواء أكان ذا شكل ام لم يكن كذلك) لايبقى لدينا وقت واسع لمعالجته قبل ان يفرض الانطباع التالي نفسه علينا بل اننا نجد انفسنا معرضين لهجمات الانطباعات التي لاتنقطع ، تلك الانطباعات التي تعيث فينا فساداً ان حالة الفوضى في نفوسنا انما هي حالة دائمة ، ونحن لانستطيع ان نحتملها الا بالتأكد مماقلت آنفاً وهو انه يوجد في أساس كل نوع من انواع الفوضى امكانية وجود الشكل

المنتظم . وان الهدوء يكمن في أساس كل اضطراب ، ونحن نستطيع ان نتثبت من هذا اليقين بصياغة « الشكل » فان الشكل المنظم السليم الذي يصدر عن نفوسنا يحررنا الى حين من وطأة الاشياء الفوضوية التي لاشكل لها ، أي من وطأة التأثيرات المتمازجة المتلاطمة التي تنتج في نفوسنا عن هجمات الحياة المستمرة ، ثم تتراجع الفوضى في نفوسنا وراء عتبة الاشياء التي لانحتمل وتمنحنا الشعور بالصحة وبأننا على مايرام، وحينئذنشعر بنقاء نفوسنا وصفائها وكأننا شفينا من حمى او من داء وبيل . وفي الحقيقة اننا لانكون « اصحاء » صحة كاملة ابداً (والصحة هنا مقصودة بالمعنى الفيزيولوجي) والحق ان الامراض بمعناها العام ليست الا انطلاقا للأخطار الكامنة في صحتنا، فالصحة حالةمثالية لايبلغها الواقع بلوغاً تاماً ابداً — انها حالة مثالية كحالة هدوء النفس وحالة (الفراغ اللذيذ) .

واذا فنحن نحس بشعور الراحة الداخلية « الى حين » — كما قلت — بعد عملية التشكيل الناجحة ونشعر بأننا اكتسبنا صحتنا بعد فقدانها . وعبارة « الى حين » تلقي شيئاً من الضوء على القفز الكامن في الحافز الذي يدفعنا الى التشكيل والتصوير لايهدأ ابدا ، ولو كان من الممكن ان نبلغ حالة الفراغ اللذيذ او حالة سكون النفس بصورة مطلقة لكان العمل الفني الذي يخلو في تشكيله من كل لحظات الاضطراب الممكنة كافياً وحده . وهذا العمل الفني المطلق هو عمل لم يبدعه أحد بعد على الرغم من ان كثيراً من الناس يطمحون الى ذلك ، وربما كان الناس جميعا يريدون ذلك دون ان يشعروا،وفي ذلك يتجلى تفوق الحياة على الاحياء ، فنحن لانملك اجابة فنية او فلسفية جاهزة تستطيع ان ترد على كل الاسئلة التي تطرحها الحياة علينا ، ونحن لانشعر بالتحرر من حاجاتها الا « الى حين » ثم لاتلبث هذه الحاجات ان تداهمنا من جديد واذا نحن نجد انفسنا مضطرين الى القيام بمحاولات للاجابة والعلاج . ان هذا لعمل يبدو ثقيلا لاطائل تحته .

ومع ذلك فنحن نجد في محاولات الإجابة نوعاً من النظام الهرمي (Hierarchie) إذ أننا نعرف أعمالاً في الأدب والفلسفة والموسيقا والفن التشكيلي نستطيع أن نقرأها ونكرر قراءتها والنظر إليها والاستماع إليها على مر القرون ، والثبات الذي يكمن فيها يبين لنا الى أي مدى نجحت في الاقتراب من مستوى العمل الفني المطلق مقاومة بذلك عنصر الفناء في مادتها البدوية . ونحن نقصد « بالمادة البدوية الفانية » هنا ألوان الرسام وخشب المثال والمهندس أو حجره ، كما نقصد بذلك الألحان التي يستخدمها الموسيقي ، وأخيراً اللغة ، وربما كانت اللغة نفسها أكثر هذه العناصر تعرضاً للفناء ، وذلك بالمعنى

الخاص للغة . (ونحن لانريد هنا أن نتساهل في مناقشة المعاني طالما أن الموضوع يتعلق بجوانب مختلفة لمعنى الفناء) ، وبهذه المادة الفانية يعمل الكاتب ، وأنا أقول « الكاتب » لا « الأديب » ، لأنني لا أريد أن استبعد من الموضوع المفكرين الكتاب ولا كتاب المقالات . أما لماذا أفعل ذلك فالجواب سيرد في سياق المناقشات التالية .

ان الكاتب يجد نفسه ، باعتباره ذرة روحية حساسة تمثل الجزر الدافعة في بحر الحياة الذي يغشاها من كل جانب ، عرضة للإصابة بآلاف آلاف الجراح ، فهو إنسان يجرحه جمال العالم كما يجرحه قبحه ، يجرحه العنف كما يجرحه اللطف والرقة ، وكلما كان أكثر قابلية للإصابة كانت الجراح التي تصيبه أعمق وكانت الحمى التي تغشاه أشد ، وكان في حاجة الى جهد أكبر من أجل التغلب على الحمى ، (وذلك حين لايريد أن يستسلم ، وحين تكون لديه القدرة الكافية) ، وإنما يكون ذلك بتنظيم ما أعطته الحياة من أجل العلاج وهو اللغة . أما الصرخات المتقطعة التي تعبر عن الافتتان والشكوى فيكتبها لأنه تعلم أن هذا لايشفي ، بل لايستطيع أن يوقف عملية التقبيح إلا لحظة من الزمان ، ولأنه تعلم أنه في حاجة الى النظام الذي يعكسه له خياله ليكون صورة للنظام الذي يتوق إليه في قرارة نفسه ، لأن هذا النظام الذي تتوق إليه في قرارة نفسه هو « نظام تلقائي » كما قلنا آنفاً ، ومعنى ذلك أنه نظام ينشأ تلقائياً دون عملية افتعال ، وكما أن الانسان لايفتعل عملية الولادة فانه لايفتعل غلبة الحمى أو الداء ، ولابد للانسان أن « يخرج » الحمى أو الداء كما تخرج الأم طفلها ، وليس هناك طريقة أقرب مأخذاً لشرح القانون المتمثل في هذه القضية ، ولا يملك المرء إلا أن يلجأ — عن طريق الخبرة إذا لم يكن من ذلك بد — الى إرهاف الغريزة التي تبين له متى تجيء اللحظة التي تبدأ عندها فوضى الحمى بالظهور . إن الطغاة أنفسهم لايستطيعون أن يفتعلوا نظاماً تلقائياً . أما الإكراه الذي يمارسونه فلا يدل إلا على فقدانهم لتلك الغريزة ، ففي داخل نظامهم السياسي الميت تعمل جرثومة التعفن بلا انقطاع ، والكاتب الذي يتحول الى طاغية يتحكم في لحظة ظهور الحمى ، ويريد أن يفتعل بالقوة تلك اللحظة التي تنشأ فيها الأشكال المنظمة عن الفوضى يتحول الى طاغيـــة مستبد باللغة كما يتحول الى طاغية يستبد بأمر علاجه ، وعندئذ لايلبث أن يتحطم تحت وطأة تسلطه بفعـــل ذلك النظام اللغوي الذي افتعله .

ولكن ماذا يعني « بالنظـــام التلقائي » في اللغة ؟ سنجيب عن ذلك بقدار إمكان تعريف هذا المفهوم ، فمن البديهي أن الموضوع متصل بمسألة أعلى من مسألة النظام النحوي

للغة وأعلى من كل نظام ثابت مسبقاً يمكن تعليمه وتقديره وتصنيفه ، وهذا أمر لايناقض استخدام الكاتب للأشكال الموروثة من أجل التعبير عن عقدة الانطباع التي تشغل باله (سواء أكانت هذه الاشكال مسرحية أو غنائية أو ملحمية ، أو مقاليــة) ، غير أن الصورة (Form) شيء آخر يختلف عن الشكل (Gestalt) فان « صورة » راقية من صور الشعر الغنائي كالسونيت (١) مثلاً لاتوحي بأي شيء عن « الشكل » الناجح لما تعبر عنه السونيت باعتبارها لغة . إن « الشكل » يعني هنا منظومة لغوية أو نسقاً لغوياً (٢) اكتسب الاستقلال متخذاً صورة السونيت (أو أي ثوب آخر يلائمه) وهو يعكس توازنه الذي حصـــل عليه مستقلاً عن شكله وكأنما ارتبط بهذه الصورة (أي السونيت) منذ ولادته . أما الشكل (Gestalt) فيعني توازن كل التوترات المحتشدة في القصيدة توازناً يبلغ من الكمال أن المرء ينسى إزاءه التوترات والصـــورة والثوب بل الشكل نفسه ؛ وعندها ينتشر الفراغ اللذيذ ، وتلك هي المعاناة الأولية التي يتيحها لنا الشكل اللغوي الناجح . ان مانسميه بالاستمتاع الجمالي،أي الاستمتاع بالبراعة الفنية التي تتوزع بها التوترات على نحو يتحقق به التوازن تحقيقاً تاماً ، هو أمر ثانوي ومن البديهي أن هذه البراعة الفنية ستستمر وتتقدم على مر العصور في التاريخ الطويل للغة وممارسة التشكيل بها، وأن الاوالية المؤلفة للتوترات عن طريق الكلمة تتحول الى لعب بهذه التوترات ، وأن هذا اللعب بالتوترات سيستقل ويتحرر ، وفي النهاية يشغل الانسان باللعب عن المعاناة والانطباع ، ويفقد قدرته على تلقي الانطباعات ويبدأ اللعب بالدخول في مرحلة التجمد .

غير أن هذا التطور كان يقطعه على نحو دائم ذلك الحادث الاولي المتمثل في إمكان اصابتنا بالجراح ، وبهذه القابلية للاصابة تنتصر الحياة دائماً على البراعة الفنية البحتة وعلى اللعب المحض ،إن قابليتنا للاصابة تمثل قوتنا الى حد بعيد ، فانها تمنعنا من أن تنحدر بهذا التشكيل اللغوي الشاق الى مجرد لعب بالصور او باجزاء الصور . إن الصورة ليست الا الهيكل العظمي للشكل ، والنظام التلقائي للشكل يتنفس ، أي أنه يعيش ، وهـــذا

---

(١) قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتاً تقسم الى اربعة اقسام ، فنها قسمان يتألف كل منها من أربعة أبيات ويتألف كل من القسمين الآخرين من ثلاثة ابيات ، ولكل قسم من هذه الاقسام قافية خاصة به .

(٢) Sprachwesen « المعرب »

يعني ان التوترات الموجودة في القصيدة أو في النثر الفني تعتبر في حالة توازن غير أنها ليست في حالة امحاء ، بل هي رمز للواقع بمجموعه ، ان هذه التوترات يفيض بعضها على بعض ويلهب بعضها بعضاً ، ولا يكمن في هذه التوترات الا الوحدة العليا للجسم اللغوي المتشكل ، أي العالم الصغير الغنائي والملحمي والمسرحي والمقالي ، وهذه الوحدة العليا تؤمن لتلك التوترات الهدوء على وجه الاجمال . وهذا الهدوء مفعم بالاضطراب المتفجر (وهذا هو القلب الناتج عن الجملة التي قلنا فيها إن الهدوء يكمن في أساس كل اضطراب، وما الفراغ اللذيذ الا امتلاء دافق ولكنه مع ذلك امتلاء يتسم بالتفوق والسمو) .

وعندما نربط هذا الرأي بالافتراض القائل بأن الكلمة المتشكلة ليست إلا رداً على « هجمات الحياة » يمكننا ان نقول إن هذا الجواب هو الصورة المتحولة الى شكل .إن هذا الجواب هو صورة الاسئلة المتلاحقة التي تطرحها علينا الحياة ، وفي شكل هـــذه الصورة(أو في صورة هذا الشكل) تجنح هذه الاسئلة الى الهدوء غير أنها لاتمحي ، ثم إن (الفيروس) الذي يسبب المرض في داخلنا لاينعدم ، إذ أننا ننتقل وذلك(الفيروس) من مرحلة المرض وقد تغيرنا . إننا لانستطيع أن نقتل الاسئلة التي تطرحها علينا الحياة، فان جملة فلسفية أو قولاً مأثوراً أو مقالاً لايعتبرن جريمة قتل ترتكب ضد جدارة الحياة بأن نتساءل عنها ، بل إننا نستطيع أن نقول إن الآثار الفنية اللغوية (والآثار الفنية على وجه الاطلاق) تزداد حيوية بمقدار ماتعبر عن جدارة الحياة بالتساؤل عنها تعبيراً مشرقاً، ومن الطبيعي أننا استعملنا عبارة « جدارة الحياة بالتساؤل عنها » هنا بالمعنى الحرفي ،إن بداية التساؤل ونهايته هما التعجب ، والتعجب يشير الى خاصـــة الحيـــاة الحافلة بالاسرار ، ونحن نصادف أسرار الحياة في كل شيء تواجهنا به فنمنح هذه الأسرار تعبيراً عنها (وهذا مايقوم به الرسام والموسيقي والمعماري – كل في مجال مادته) أما الكاتب فيقوم بذلك عن طريق اللغة والكلمة .

وهنا نبلغ مرحلة نحاول عندها أن نبين لماذا نقول « الكاتب » ولا نقول« الشاعر»، وتبيان ذلك أمر بسيط في أساسه ، انه يستند ببساطة الى موضوع هذه المناقشة الذي سميناه (الكتابة باعتبارها علاجاً) ، فالفيلسوف الذي يكتب وكاتب المقال والكاتب المسرحي والناثر والشاعر الغنائي، هؤلاء جميعاً يحاولون أن يتحكموا في فيض الانطباعات الذي تواجههم به الحياة وذلك عن طريق التعبير اللغوي ، وهؤلاء جميعاً هم قبل كل شيء اناس يكتبون ، أي انهم كتاب ومؤلفون ، وفي الاقطـــار الاخرى يسمون الأدباء (Dichten) شعراء (Porten) وماالشعر هناك الا جزءاً محدداً كل التحديد من الأدب،

انه الشعر الغنائي (Lyrik) فالشاعر هناك هو الشاعر الغنائي ، وكلمة « الشاعر » تدل على مفهوم نوعي . وبناء على الحس اللغوي في بلادنا نجد أن « الأديب » (Dichten) يحيط به نوع من هالة القداسة ، انه قديس الأدب ، بل انه يكاد يماثل المنقذ(١) . وحينما نتذكر ما سميناه بأساس الألم المشترك بين الدين والفن بما في ذلك فن الشعر فان هـذا التمجيد يمكن فهمه ، فكلمة الشفاء(٢) (Heilen) وكلمة مقدس (Heilig) يرجعان الى جذر لغوي مشترك ، ولا بد أن الأديب قد عانى باعتباره قديس اللغة معاناة أعمق من معاناة الآخرين ولا بد انه نقل هذه المعاناة الى اسمى تعبير لغوي ليتغلب على ألمه ، ونقول بالاضافة الى ذلك انه كان يعاني بالنيابة عن غيره — ومن تغلبه على ألمه بوساطة اللغة تنبثق القوة الشافية للغة متجهة الى الآخرين . وهنا نتطرق الى المهمة الاجتماعية للكتابة التي وعدت بأن أعود اليها ، وقبل أن نتجه الى هذه الناحية اتجاهاً تاماً نريد أن نقول شيئاً عن مسألة الخيار بين مصطلح الكاتب ومصطلح الأديب . لقد كان في وسعنا بعد كل ما قلناه الى الآن ان نرضى بأن نقرر وفقاً للحس اللغوي الألماني ان الأديب هو الكاتب ايضاً ، أي الكاتب الذي ينقل الاهتزازات والاضطرابات الانسانية بأعظم طاقة لغوية الى صورة ، وبعبارة اوضح : انه ينقلها بأعظم قوة شافيـــة للغة . واذاً فالأديب يمكن أن يكون مماثلاً للكاتب عندما يكون الكاتب في أعلى مراحل قدرته . ولكن هنا يدخل موضوع الحديث شيء آخر ، انه خيار ثان ، ففي هذه البلاد يرتبط بمفهوم «الأديب» بصورة عامـــة تصور « العقل المبدع ابداعاً حقيقياً » الذي نطرح ازاءه مهمة « العقل العاكس » على سبيل التفريق ، وفي هذا تبسيط للموضوع لاينبغي لنا أن نقبله دون اخذ ورد .

إن عملية الانعكاس (Reflektion) عملية تتجاوز تعجّب الانسان الأصيل انها عملية تحوير ، ففي الانعكاس تصفى المشاعر متحولة الى افكار . اما التعجب ازاء الغاز الحياة وأسرارها فيتحول بالارهاف الى تساؤل صريح . ان الانطباعات التي يستقبلها المرء ترسل خلال المتاهات المؤلفة من المقارنات الفاحصة والاختبارات القائمة على المقارنة وهذا المسار الحافل بالمتاهات هو نفسه الذي يكتسب التعبير عنه .

واذا فان التعبير الذي يصدر عن العقل العاكس يعكس لنا بطريقة ما اضطرابا

---

(١) هو السيد المسيح .

(٢) لو رجعنا الى اللغة الانكليزية لوجــدنا تشابهاً مماثلاً بين الكلمتين (Heal) و (Holly) . « المعرب »

أكثر ، ولاعلاقة لهذا الاضطراب بكمال اللغة التي يستعملها ذلك العقل . إن هذا التعبير يعكس بنية للعقل الواعي مأخوذة عن أولئك الذين يعيشون في جو اسطوري أصيل ، وفي هذا العالم الاسطوري السحري أوتي الانسان قدرة على ان يعبرعن دهشته ازاءأسرار الحياة تعبيراً مباشراً . وهذا التعجب المباشر انما يمثل السذاجة (Naivitaet) والشاعر الساذج يمثل هذا التعجب المباشر . ان العقـــل العاكس يخلف الشاعر الساذج وراءه ويمهد للشاعر الخبير .

وبما أن كل مجتمع يتألف في كل وقت من البسطاء ومن ذوي العقول العاكسة ومن اولي العلم والخبرة (حيث تختلف المقادير فحسب من عصر الى آخر) فان القوة الشافية تنطلق من كل انسان يكتب الى اجزاء المجتمع . انها تنطلق الى الساذج والى العالم والى ذي العقل العاكس . ان هذه القوة تختلف شدة وضعفاً حسب حدة(١) الخبرات وحسب الحدة التي حول بها الكاتب تلك الخبرات الى لغة . وهذا الأمر ينقلنا الآن بصور نهائية الى مشكلة العلاقة بين الكاتب والقارىء .

لقد تحولت هذه المشكلة منذ حين الى التساؤل عما إذا كان الكاتب يكتب لنفسه أم يكتب للمجتمع ، أي أنه يكلف من المجتمع بالكتابة على نحو ما ، لقد قلت في موضع آخر إن السؤال ينطلق من فروض خاطئة ، وبيان ذلك أن المسائل يرى أن من الأمور التي تتحكم بها إرادة الكاتب أن يكتب لنفسه أو للآخرين أو للمجتمع بأكمله . ومن الطبيعي أن الانسان والكاتب أيضاً مرتبطان بالمجتمع الذي يعيشان فيه بآلاف الأواصر ، غير أن الكاتب ليس إلا مخلوقاً واحداً ، فرداً ، أنا ، وهو باعتباره فرداً وأنا يحس قبل كل شيء آخر بمسرات الحياة وآلامها ، كما أنه يصاب بهذه المسرات والآلام باعتباره فرداً ، إنه يتعرض للجروح والإيذاء ، وقد يحدث ألا تترك الاضطرابات الجماعية في عصره أي أثر في نفسه لأن شيئاً آخر ، شيئاً يتعلق به (به وحده على مايبدو) يشغل باله . وعلى الرغم من ذلك قد تنطلق من ذلك الشيء الذي أضفى عليه تعبيراً لغوياً طاقة شافيـــة كبيرة تشع على عصره أو على عصر يليه ، ولا ريب أن الفرد يمكن ارغامه على أن يولي عصره ومجتمعه من الاهتمام في كتاباته قدراً أكبر مما يوليه إياهما بحكم طبيعته ، وليس عصرنا الحاضر بالعصر الوحيد الذي يقدم الأمثلة على ذلك ، غير أن هذا الارغام سيشل بالضرورة طاقة لغته وتعبيره لأن العلاقة بين الانطباع والتعبير قد تعرضت للتشويش ، وقد يكتب الكاتب تحت وطأة هذا الإرغام — وليس من أجل العامة من الناس — قصائد

(١) Intensitaet

سرية أومذكرات . وكتاب المذكرات الذي يحمل طاقة معاناته الشخصية يغالب الأيام والعصور . إن الكتابة باعتبارها محاولة للعلاج هي إذاً محاولة للعلاج الذاتي . فالذرة الروحية (الكاتب) تحاول بعد أن تصيبها هجمات الحياة أن «تقول ماتعاني» كما يقول جوته وأن تعبر عما تحس به وما تفكر فيه حين تجيش بها ضروب الاحساس. ولا يتحول اضطراب الكاتب الى هدوء وسكينة الا بالصيغة اللغوية الكاملة قدر الامكان للقصيدة والقصة والحكمة والمقال . اما الذي لايملك القدرة على التعبير (او يملك قدرة عليه غير كاملة) فانه يساهم حين يقرأ في الثروة التعبيرية للكاتب ، واما الانطباعات التي استقرت في نفسه دون ان يتناولها العلاج والتي تشابه الانطباعات التي تتناولها القصيدة او القصة او المقال فستندفع الى الخارج بقوة الحركة الداخلية التي اطلقها تيار لغتها وتلقى حين يقرأ القارىء شكلاً يحررها . ففي القراءة يتحول القارىء الى كاتب يعالج نفسه بنفسه ، وكلما تناول الكاتب انطباعاته جميعاً (اي انطباعات القارىء) تناولاً اكثر حدة ودقة كان التماثل الذي يتم بين القارىء والكاتب اكبر وكان المفعول الشافي له اكثر قوة .

وهذا امر يمكن يحدث لقارىء ولكثير من القراء ولجماعة بأكملها ولمجتمع بأكمله . ان اتساع نطاق تأثير الكاتب يتوقف على بنية المجتمع ، وبعبارة ادق : ان تأثير الكاتب يتوقف على مدى التوافق بين بنية العقل الواعي للكاتب وبنية العقل الواعي للمجتمع . وفي عصر يتميز بوعي اجتماعي قوي ووعي مشترك قوي (او بوعي جماعي) (Boliektiv) لابد أن الكاتب سيعالج المجتمع ايضاً عندما يعالج نفسه عن طريق الكتابة ؛ انه يتلقى انطباعات مماثلة كل المماثلة لتلك الانطباعات التي يتلقاها المجتمع ، كما انه يشعر بالحاجة الماسة نفسها الى ان يتحرر من تلك الانطباعات عن طريق التعبير عنها ، ان الصفاء والجلاء اللذان يطمح اليهما الكاتب انما يمثلان صفاء المجتمع الذي يحيط به ، غير ان مجـال تأثير الكاتب ينحصر ويضيق في عصر يتميز بتزعزع العلاقات الاجتماعية وانحلال الوعي الجماعي وانقسامه. وفي اقصى الحالات حيث تدل عبارة « المجتمع » على ذلك المجتمع الذي لايتألف الا من افراد او من ذرات من الوعي الفردي يظل تأثيراً الكاتب مقصوراً عليه وحده ، وعندئذ يغدو كل فرد طبيب نفسه ، اما الانتاج الفكري الذي يقدمه الآخرون فسيحمله على ان يقرر أن هذا ليس له معنى بالقياس اليه ، اذ أنـــه يرى ويحس ويفكر بطريقة تختلف كل الاختلاف ، ففي ذلك الانتاج لايوجد شفاء له .

ولاريب ان في مجتمعنا الحاضر بعض الملامح من هذه الحالة القصوى ، وبناء على ذلك توجح في الأدب كفة النزعات الانشقاقية ، وهذا الأمر لايشكل اول الامر مشكلة الأدب ، بل هو مشكلة المجتمع ، او بعبارة اوضح — على سبيل الافتراض — انه قضية انسانية اولية ، ولا يستطيع أي قسر ان يلمها ، وقد تستطيع ان تحلها المعرفة ، معرفة ماسميناه بالوضع الاساسي المشترك للانسان او الاساس المشترك المؤلم الذي يمثل التهديد الدائم لصحته .

حكايات من الماضي

الشيخة ام رشيد

وذكرى الدراسة الأولى



للدكتور كاظم الداغستاني

كان ذلك منذ مايقرب من ستين عاماً ، وهو لايبرح يذكر مرارة ذلك الصباح القاتم المؤلم الذي سلمه فيه الخادم الى شيخ الكتّاب القديم في حي سكة الصالحية في دمشق ثم تركه بين يديه . لقد كان صبياً مدللاً لم يتجاوز السادسة بعد إلا قليلاً ، فهو الصبيُّ الأول بعد مولد أربع بنات ، والبنت ، كانوا يقولون ، لاتعمّر بيتاً ، ولاتخلّد اسماً . وكان الشيخ محمد معتم صاحب الكتّاب رحمه الله ، رجلاً مديد القامة ، عريض المنكبين ، لم ير الصبي بعد رجلاً أضخم منه . وكانت لحيته الكثّة الفاحمة وحاجباه العريضان الاسودان ورأسه الكبير الذي لاتعرف ، إذا رفع العمامة عنه ، أأملس هو أم أصلع ، عوامل تزيد في رهبة منظره فتجعله وكأنه أحد اولئك العمالقة الذين كان يتخيلهم الصبي في بعض لياليه ، وقد سمع من حكاياتهم ماترك في نفسه الشيء الكثير من الخشية والخوف .

وكان كتّاب الشيخ محمد الذي يقع في اول طريق المدارس المتصل بحي سكة الصالحية كغيره من كتاتيب الأحياء ، يتألف من غرفة واحدة لعلها من بقايا إحدى المدارس القديمة الكثيرة في الحي ، وكانت لهذه الغرفة التي تكاد تكون مظلمة عفنة ، نافذة واحدة صغيرة تطل على الطريق ، وقد ترك عرض الجدار القديم - الذي فُتحت فيه - متسعاً استفاد منه الشيخ ، فجعله كمنصة يضع عليها شيئاً من طعامه ، وبعض حوائجه وكتبه . وتكسو أرض الكتّاب قطعة او قطع من الحصير البلدي السميك ، يجلس الصبيان عليها متربعين ، وقد يبلغ عددهم العشرين او الثلاثين ، تقوم بينهم عوارض من الخشب طويلة ضيقة ، يضعون عليها مصاحفهم والواحهم الحجرية ، وقد تكفي العارضة الواحدة لعشرة صبيان يحيطون بها ويرأسهم واحد منهم هو العرّيف ، ويجلس الشيخ - كما لايبرح الصبي يذكر ذلك - في الزاوية القائمة على طرف النافذة ، ويكاد لايختلف عن

تلامذته إلا بحشية رقيقة ، يتربع عليها ، وبهـذا الصندوق الخشبي الصغير ، الموضوع امامه ، وقد سترت سطحه طبقة ناعمة تشبه الدهان ، او شيئاً من بقع الزيوت ، وهذه القضبان الثلاثة المنصوبة في الزاوية الى جانبه ، مختلفة في طولها وقصرها ، ينال بالأول والثاني منها ضرباً ، الصبيان القريبين منه ، وينال بالثالث وهو قضيب طويل من القصب ، الصبيان القاعدين في منتهى الغرفة إذا وجد احدهم لاهياً عن دراسته ، او مخلا بنظام الكتّاب .

لم يقل ابو الصبي حينما جاء الشيخ لزيارته ماعتاد ان يقوله بعض الآباء للشيخ محمد في سكة الصالحية حينما يتركون أولادهم بين يديه « اللحم لك والعظم لي » بل اوصاه به خيراً ورفقاً ومعاملة لينة حسنة .

وماطل الصبي على الشيخ في الكتاب ، حتى هش له وبش به ، وكأنه على علم من موعد قدومه ، واخذ بيده فأجلسه الى جانبه على حشية جديدة ، كان قد اعدها له من قبل ، وكم كان اصلح للصبي ان يتركه الشيخ وشأنه يسرح ويمرح مع اولئك الصبيان من ابناء حيه دون ان يوليه هذه العناية الخاصة التي اساءت اليه والى الشيخ نفسه فيما بعد .

وكان صباح ذلك اليوم ، صباحاً مشهوداً في كتاب الشيخ محمد معتم ألهى الصبيان عن قراآتهم كما انسى العرفاء واجباتهم فانصرفوا جميعهم بانظارهم يتطلعون الى الصبي ابن الافندي ، ويحملقون فاحصين بنظراتهم الحادة كل قطعة من ملابسه وكل حركة من حركاته ، متغامزين فيما بينهم ، وكأنهم يشيرون الى مارأوه من حفاوة الشيخ به ، واهتمامه بأمره ، وهم لا يشعرون ماأورث الصبي ذلك من ضيق وكآبة وحزن ، جعله يشيح بوجهه عنهم خجلا ، وليس امامه مايصرف نظره عنهم اليه ، سوى عتبة الكتّاب التي تقع قبالته ، وادار بصره اليها محدّق بها فرآها

ملآنة بنعال الصبية ، واكثرها من القباقيب الخشبية التي براها قدم السير عليها ، فأصبحت رقيقة كأنها من قشور الاخشاب اللينة ، وقد وصلت بين طرفيها (سيور) من جلود ضيقة عتيقة ، ثم رأى حذاءه الى جانبها جديد المنظر لامع الجلد مضفور الشرائط كأنه تُرك هنالك ليعلن عن نفسه ، فزاد ذلك في حيائه وضيق صدره ، وما هي الا دقائق حتى طفرت عيناه اللتان مابرحتا شاخصتين الى العتبة ، بدموع غزيرة ما استطاع لها رداً .

ويرى الشيخ بكاءه المفاجىء فيحنو عليه ، ويروح عنه ، برفق ودعة ، ويعلله بانه سيعتاد الكتاب وانه سيحبه حباً ينسيه اهله وذويه ، ثم يعطيه (الصبيرة) وهي لوحة من ورق سميك مهترىء كتبت عليها حروف الف باء ، منفردة غير متصلة ، واضحة جلية ، رغم ما تراكم عليها من اوساخ قديمة العهد ، وكان الصبي يعرف هذه الاحرف ولعله تعلمها من اخوته في البيت ، فسره ان يعلم الشيخ ذلك ، وراق له كثيراً ان يقرأها بين يديه حتى آخرها دون توقف او تردد . ويظهر الشيخ رضاه ويتكلف الاعجاب فيبلغ ذلك من نفس الصبي مبلغاً كبيراً حتى يكاد ينسى بعض ماهو فيه من هم وغم ، ويأتيه الشيخ بالصبّيرة التالية وقد كتبت عليها بعض الحروف متصلة بالحروف الصوتية ، فيتلعثم الصبي بقراءتها فيقرؤه اياها الشيخ بنغمة يطلب اليه ان يرددها معه ، فيقلد الصبي النغمة ، ثم لايلبث ان يحسنها ويعتاد تردادها . ثم لايذكر الصبي بعد ذلك كيف قضى ماتبقى من اول النهار في الكتّاب ولكنه يتخطر انه لم قرب وقت الظهر حتى عاد الى ما كان عليه من كرب وضيق صدر ، وعاوده النحيب والبكاء ، وكاد الشيخ ان يضيق به ذرعاً ، بعد ان عز عليه الترفيه عنه ، فعمد الى مصطبة النافذة المشرفة على الطريق يخلي منها ماوضعه فيها من حوائج

وكتب ودفاتر ، يُعينه على ذلك صبي اسمر كبير هو عريف الكتّاب الاول ، الذي مازال - وبعد عشرات السنين يذكر ابن الافندي بهذا اليوم الذي قدم فيه على الكتّاب حزيناً باكياً وما اسداه اليه من معونة اذ ذاك ، واخذ العريف بيد الصبي فحمله الى مصطبة النافذة حيث اعد له فيها مجلساً يرى منه الطريق فيتلهى بالنظر الى المارين فيه ، ويتذكر الصبي مجلسه من النافذة بوضوح ، وما وجده فيها من عزاء وسلوى ، بعد ان كفكف دموعه ومسحها بكم ردائه ، واراح نفسه من اهتمام الشيخ وتطلع الصبيان اليـــه كما اراحهم هم انفسهم من انشغالهم به .

وجاء وقت الغداء ، فشعر الصبي بالجوع ، وقد منعه همُّ الكتّاب من تناول طعامه عند الصباح كاملاً ، وهو ماعاد ليذكر كيف اكل الصبيان في الكتّاب ، وكل ماتذكره ولا ينساه ، هو ان الشيخ محمد معتم عمد الى صرة حمراء ، فكهّا واخرج منها رغيفين كبيرين من نوع الخبز الرقيق التنوري ، ثم اخذ رأساً من البصل الاحمر كبير الحجم ، فوضعه على طرف الصندوق الصغير وضربه براحة يده الضخمة ، ضربة خفيفة سحقته الا قليلا ، ثم ازال قشرته الحمراء ووضعه فوق الرغيفين ، بعد ان رشه بالملح والفلفل الاسود ، وبدأ يقتطع من الخبز قطعة كبرى ثم يحشوها بشرحات البصل ويتناولها كلها لقمـــة واحدة يكاد يضيق بها فمه ، ليحتفظ بها في طرف احد فكيه ، ثم يمضغها شيئاً بعد شيء ، بينما هو يعتني باعداد لقمة غيرها ، وكم كان الشيخ يحسن الى الصبي ، لومنحه اذ ذاك لقمة من طعامه هذا ، فقد عاش الصبي بعد ذلك طويلاً ، وهو مولع ولعاً شديداً بأن يأكل الخبز التنوري الرقيق مع البصل اليابس الاحمر ، مرشوشاً بالملح والفلفل الاسود .

وبينما كان الصبي لاهياً بالنظر الى الشيخ وهو يأكل ، سمع وكأن صوتاً يناديه ، والتفت فرأى على رصيف الجهة الثانية من الطريق فتاتين كأنهما تشيران اليه ، وتبينهما فعرف انها شقيقته ومعها صباح ، خادم بيت الأفندي الزنجية ، واقتربتا من النافذة تشيران اليه وكأنهما تسألانه عن حاله ، ورأى دموع صباح تسيل على خديها بعد أن رأته من وراء قضبان الحديد في مجلسه من النافذة وفي عينيه أثر البكاء ، ونظر اليها وهي تبكي فلم يتمالك من البكاء في دوره ، ورآها بعد ذلك ، وكأنها وهي تتحدث الى اخته تصيح وتهدد بكلمات لم يفهمها ثم اشارت اليه بان يصبر ولو قليلاً فهي عائدة اليه .

وعادت صباح بعد قليل لوحدها ، وكانت كما عرفها جريئة مقدامة ، فدخلت على الشيخ تخبره انها موفدة لتعود بالصبي الى البيت ، وقد آن أوان الغداء كما قرب وقت العصر ، موعد الانصراف من الكتّاب . ولم يجد الشيخ بدّاً من ان يسلم الصبي الى الجارية بعد أن اوصاها ان تعود به في الصباح الباكر من يوم الغد ، كي لا يضيع عليه ما أعدّه له من علم وفائدة ، وسار الصبي مع الخادم فرحاً وكأنها انقذته من سجن ، حُبس فيه حيناً من الزمن .

وكان ذلك اليوم ، يوم الخلاص ، آخر عهده بكتّاب الشيخ محمد معتم ، ونشأ في نفس الصبي ، منذ ذلك اليوم ، ودّ عميق للجارية صباح رافقه كلّ ايام حياته ، ولقد شعر في كثير من الاوقات ، انها احب أهل البيت اليه ولطالما آثرها على اخوته وامه .

لقد كانت صباح فتاة زنجية حالكة السواد ، من اولئك الجواري اللواتي كان يأتي بهن جدّ الصبي حين عودته من الحج ، ليحتفظ بهن لنفسه ، او يهديهن الى بعض ذوي السلطة في دمشق ، والى نفر من اقاربه او اصدقائه ، وكانت

الجواري اذ ذاك وعلى الاخص الزنجيات منهن ، يهدين كما تهدى الاشياء ، بعد العودة من سفر بعيد ، ويفضل بعضهم الصغيرات منهن على الفتيات ، وكانت صباح هدية جد الصبي الى حفيدته ، وقد وفدت على بيت الافندي ، وهي لم تبلغ الثامنة من عمرها ، فنشأت وتربت في البيت ، فكانت خير الجواري واشدهن ذكاءً ونبلاً ولباقة ، وقد عرف الصبي فيما بعد ، ان صباح كانت بارعة الجمال ، فهو لم يكن ليعرف او يقدر الجمال في الزنجيات ، على ان معرفته هذه لم تكن الا لتزيد في اعجابه بها وحبه لها حتى توفاها الله ، وهو لايزال يذكر ، يوم كان واخوته صبياناً وصبايا ، يحطن بها اذا جاء المساء ، ويطلبن اليها ان تقص عليهم قصة اختطافها ثم بيعها بعد مقتل اخيها الصبي الكبير الذي أراد أن يخلصها من أيدي مختطفيها فلم يفلح ، ثم حزنها وما لقيته من ظلم وتعب وشقاء ، وهي تنقل الى بلد بعيد عن أهلها وموطنها ، وما ساورها من خوف وقلق في باديء حياتها في بيت الافندي ، تلك القصة التي كثيراً ما بكوا لها ، وكان الصبي أشدهم تأثراً وبكاءً .

لقد ذكر الصبي صباح حينما بدأ بدراسة الجغرافيا ، فحسب وقدر تقديراً ان صباح جاءت ، وعلى ضوء ما كانت تقصه وترويه ، من بلاد النوبة على شواطيء البحر الاحمر ، وقد اختطفوها مع غيرها ، من احدى تلك البلاد او من ضواحي مدنها ، فاجتازوا بها البحر الى الحجاز ، حيث بيعت ونقلت مع الحجيج الشامي الى دمشق .

وكم تذكر صباح وجمالها ايضاً حينما كان يستمع لغناء من كانت تشبهها ، الزنجية الحسناء جوزفين بيكر ، عندما التقى بها في مسرح الاوبرا في باريز وقد منحته قبلة اخذها بشوق ولهفة بعد ان ساهم بما كانت تجمعه في تلك الامسية من مال للمشوهين من قتلى الحرب العالمية الاولى .

لقد اسدت صباح للصبي في حياتها ايادٍ كثيرة لعله لم يف بحقها كلها، وقد كانت اولاها يوم انقذته بجرأتها وعنادها ـ وهي ابنة الألم وربيبة التقاليد المظلمة ـ من كتاب الشيخ معتم المظلم فجعلته بذلك يوجه وجهة ثانية يكفيه منها انها حببت اليه فيما بعد القراءة ونمّت فيه الميل للدراسة والعلم .

ليست ذكريات ايام الطفولة والصبا كغيرها من ذكريات السن الناضجة الواضحة في معالمها من زمان او مكان ، بل هي صور او لوحات منفردة ، يكاد لايتصل بعضها ببعض ، بما يحيط بجوانبها من غموض او نسيان، ولكنها كثيراً ماتكون رغم اختلاف كيانها عن كياننا الحاضر ، جلية بما ابقته في نفوسنا من آثار ، عملت عملها في تطوير بعض وجهات الحياة التي عشناها او التي نعيشها .

لم يعد الصبي يذكر ماصار اليه امر تعليمه بعد ان غادر الكتّاب مع الجارية صباح عائداً الى اهله، فقد مرت عليه بعد ذلك ايام لايعرف اطويلة كانت ام قصيرة ، ولا يذكر شيئاً واضحاً منها سوى انه وجد نفسه ذات يوم من ايام الصيف ، في كتّاب آخر يكاد لايشبه الكتّاب الاول بشيء ،يجلس متربعاً ،على طرف ليوان ، يشرف على ساحة تتوسطها بركة ماء صغيرة ، وبين يدي امرأة ذات وقار ، ظهرت في وجهها النير غضون عميقة من الشيخوخة لم تؤذ نفس الصبي، بل تركت فيها ، كما يذكر ، اثراً يبعث على الراحة والطمأنينة .

واخذت هذه المرأة تؤانسه وتسأله عما يعرفه بما تعلمه ، ثم تمتحنه فتقرؤه بعض كلمات من مصحف وضع على صندوق من الخشب امامها حيث اخذت مجلسها في طرف الليوان . ويذكر ، وقد فشل الا قليلاً حينما حاول القراءة ، ان الشيخة نادت فتاة صبية ذات قامة هيفاء ، ووجه صبوح وتدعى امينة ، كانت تجلس مع طائفة من البنات والصبيان ، فاسلمته لها واوصتها بما لم يفهم الصبي منه

شيئاً ، ولكنه كان مغتبطاً سعيداً حينما وجد ان الفتاة تأخذ بيده برفق ، ثم تجلسه على حشيّة اعدتها له ، بين الفتيات والصبيان في صحن الدار ، وفي ظلال كرمة دالية كبيرة معلقة ، تشابكت اغصانها واوراقها ، حتى اصبحت وكأنها مظلة كبرى تحجب عن مجلسهم وهج الشمس .

لقد عرف الصبي بعدئذ ، ان هذه المرأة هي الشيخة ام رشيد ، وان الفتاة الصبية هي ابنتها العريفة امينة التي اصبحت فيما بعد الشيخة امينة الكلاس ، صاحبة الكتّاب الكبير في سكة الصالحية ، وقد كان من حظ الصبي ان يُقرأ القرآن ويختمه على ايديهما كما سبقه الى ذلك الكثيرون من فتيان الصالحية وفتياتها .

ولو اتيح لأحدهم في يوم من الايام ان يكتب تاريخ التعليم والتدريس في دمشق لوجب عليه ان يقف صفحات من تاريخه للشيخة ام رشيد ، ولابنتيها الشيختين فاطمة وامينة اللواتي كرّسن السنين الطويلة من حياتهن الطيبة المباركة لتقرئة القرآن وتعليم القراءة والكتابة الألوف من فتيان الصالحية وفتياتها الذين مابرح الكثيرون منهم يعيشون حتى الآن ذاكرين لهن جميلهن وحسن صنيعهن .

لقد بدأ الصبي درس القراءة ، بأن كان يردد مع رهط من الصبيان والفتيات الصغيرات ، كلمات وكبت من حرفين أو ثلاثة ، كانت تتلوها عليهم العريفة امينة ، بصوت عال تطلب منهم ان يقلدوها بالقائها ، ثم يكتبونها على الواحهم الحجرية السوداء . ولقد كان لصوت الفتاة العريفة وقع غريب في نفس الصبي ، فقد قضى شطرا من عمره وهو لايبرح يذكر رجع ذلك الصوت الحلو في اعماق خاطره ، وكان اذا عاد من الكتاب الى البيت وقت العصر ، وخلا الى لهوه ولعبه ، اخذ يتغنى بتلك الكلمات دون اي وعي او قصد ، وكأنما يردد انشودة سمعها وأحبها فحفظ نغمها وتعلم كلماتها .

لم يطل بقاء الصبي مع الرهط الاول من التلامذة في الكتاب ، بل الحقته العريفة امينة بالرهط الثاني ، الذي هو اقل عدداً من الأول ، ولكنه اكثر معرفة بالقراءة ، ثم مالبثت بعد قليل ، ان اختصته بدراسة منفردة ، جعلته يتفوق بها على رفاقه ، ويسرع الخطى ، فيصبح بعد اسابيع قليلة ، بين أيدي الشيخة ام رشيد تقرئه القرآن .

لايعرف الصبي كم لبث في الكتاب ، يقرأ القرآن حتى ختمه ، ولكنه يذكر ان ايامه مع رفاقه من صبية وبنات ، وبين ايدي الشيخة وابنتها العريفة ، كانت أياماً سعيدة هانئة لم يتبرم بيوم منها او يشقى ، كما يذكر ، في ساعة من ساعاتها ، ولعل اطرب الهنيهات وقعاً على نفسه ، هي حينما كان يأخذ مجلسه بين ايدي العريفة امينة ، يعيد عليها ما اقرأته امها من آيات فتصحح له منها ماتصحح ثم تثني على نشاطه ، وتمتدح شطارته ، فتجعله فرحاً مغتبطاً لايعلم ان كان بتيه اعجاباً بنفسه او بما كانت تبديه هي من اعجابها به .

وكان اليوم الذي ختم فيه ابن الافندي القرآن ، يوم عيد في الكتاب ، جاء الصبية والفتيات فيه ، يلبسون الجديد من البستهم ويضعون مايتزينون به في يوم العيد ، ويحضر الصبي يلبس في دوره الجديد من ثيابه ، ويضع على رأسه الطربوش الذي هيء له من قبل وخصيصاً لهذا اليوم ، ويجلس بين يدي الشيخة ام رشيد التي كانت تتمتم بعض آيات تنفخ في نهايتها على رأس الصبي ووجهه ، وتطلب اليه ان يقرأ في اول المصحف الذي تفتحه امامه ، وقد وقف تلامذة الكتاب يحيطون به فيرتل سورة الفاتحة ثم يتبعها بسورة البقرة ، ولا يكاد يصل الى مطلع الآية السابعة منها ، فيقرأ مطلعها « ختم الله ... » حتى يتوقف عن القراءة وقد تقدم احد التلامذة الكبار من ورائه مسرعاً ، فيخطف الطربوش

عن رأسه ، ثم يخرج من الكتاب راكضا ، ويتبعه بعض التلامذة ، ولا يزال في ركضه ، حتى يصل بيت الافندي ، فيدخله ويسلم الطربوش لأبي الصبي ،منتظرا هدية البشارة ، التي لايلبث ان يتسلمها . ويسير الصبي بعد ذلك ، ومن حوله تلامذة الكتاب ينشدون ، فيدخلون البيت ، حيث تقام الفرحة ، وتبكي ام الصبي ، وتبكي الجارية صباح واخوته وبعض قريباته فرحاً ، ويقبلون عليه ، يقبلونه ويباركون ختمته ، ويتناول تلامذة الكتاب طعامهم ،ويتسلمون هداياهم قبل ان ينصرفوا .

وينقضي النهار والصبي لايبرح يلهو بين اهله والمهنئين الوافدين عليهم ، فيشعر بسعادة عارمة ماعرف لها شبيها بعد ، لولا غصات من الوحشة والالم ، اخذت بخناقه حينا اقبلت عليه العريفة امينة مع المساء ، تودعه وتباركه له قبل ان تنصرف .

لقد علم الصبي ان هذا اليوم يوم (الختمة) هو آخر عهده بكتاب الشيخة ام رشيد ، فاحس بما كان يتنبأ به شعوره الخفي وما هتف به من اعماق كيانه من انه سوف لايلقى ايام دراسة اهنأ ، او اوقات تعلّم اسعد . ويشهد انه قضى بعد ذلك مايقرب من اربعـــة وعشرين عاماً في مختلف المدارس والكليات والجامعات ، في الشرق والغرب ، فلم يجد مايعادل هناء تلك الأيام، أيام الدراسة الاولى ، التي قضاها في كتّاب شارع المدارس في صالحية دمشـــق ، مع رفاقه ورفيقاته ، وبين يدي الشيخة أم رشيد ، وابنتها العريفـة أمينة ، تغمدهما الله برحمته .

الطعام المالح



قصة مصطفى الخش

طويل القامة ، وسيم الطلعة ، ممتلىء الكتفين بالعافية ، تنبعث من عينيه الزرقاوين جاذبية آسرة ، يمشي على الأرض مرحاً ، فيفيض الزهو والخيلاء من اعطـافه ، وتعمر نفسه بالثقة والاعتزاز ويتدفق قلبه بالمحبة والايناس ، له الشباب والجدة ، وقد توحا بالفراغ في عطلة الصيف المدرسية – إذ كان يدرس في بيروت – فبات الشباب والفراغ والجدة مفسدة له أي مفسدة .

كان بكر والده – صاحب الجاه العريض في محيطه – ومحبوباً لدى الكبير والصغير وقد آثره والده بالعناية لأنه كان يتيم الأم مع شقيقه وشقيقته .

لبى دعوة بعض أبناء بلدته للذهاب معهم في زيارة لقرية « الشيخ بدر » التي تبعد مسيرة ثلاثين كيلو متراً وسط الجبال الشم الخضراء . وحبذ والده هـذه الزيارة فاوعز بتهيئة مؤونته من الطعام واعطاه فرسه وخادمه « شفيقاً » يمشي امامه ويكون طوع بنانه .

وسار أحمد ممتطياً الفرس ، يتقدمه شفيق ويحف به نفر من ابناء بلدته ، يسيرون على الأقدام . وكان الخادم يذكر له اسماء القرى التي يمرون بها أو التي تترامى لهم من بعيد ، فكان لايعير أي انتباه لقائمة الاسماء بل كان يكتفي بالنظرة المجردة يرمي بها هذه القرى عن كثب أو من بعيد ، ولا يعرف كيف ان القرية التي مروا بها قبل نهاية الطريق قد انشرح لها صدره راستحوذت على لبه . وزاد في فضوله لمعرفتها ان الخادم كتم اسمها وتهرب من الاجابة عن ذكره .

وحط الركب رحله في القرية المنشودة فتبردوا قبل كل شيء بالماء العذب النمير يعبون منه ويغسلون وجوههم وايديهم وارجلهم ثم تحلبوا حوله يرعونه بالمحبة الخالصـة ويرنون اليه بمزيد من الاحترام ، يود كل واحد أن يقدم له أية خدمة ، كبيرة كانت أم صغيرة . وبدلاً من أن يتجاوب معهم ويبتسم لهم ويمازحهم ، كعادته ، اكفهر وجهه وغاضت فيه البسمة المعهودة ونزع الى الوحدة فابتعد عنهم قليـلاً ثم تمدد على صخرة واغمض عينيه في اغفاءة قصيرة ثم فتحها على قادم من القرية التي هفا لها قلبه ، لايشرب القهوة المرة التي اعدت له ، قبل أن يستلب وعداً منه بانه ذاهب معه الى تلك القرية ، حيث والده بانتظاره وقد عنفه كثيراً لأنه لم يستقبله في مروره بها فيتشبث به ويصرفه عن متابعة الطريق .

وإنه ليقبل الدعوة ، بارتياح ، يزايل وجهه العبوس ويعلوه الانسام بل ويفيض

فيه الابتهاج فيودع أبناء بلدته ويعود في الطريق التي جاء منها ، مع مضيفه ، كل على فرسه يتبعهما على الاقدام خادماهما شفيق وسلمان .

ود أحمد لو أن له جناحا طائر أو أن يسابق الريح بفرسه للوصول الى القرية في أقصى سرعة ولكنه تمهل ، صابراً ، مسايرة لمضيفه ، لكي يتبادلا الحديث فلا يبتعدا كثيراً عن خادميهما . ولكن ما ان بانت له القرية حتى نفد منه الصبر فاطلق لجواده العنان فدخل القرية وحيداً في مثل سرعة البرق . وتلفت ليعرف الدار التي سيحل فيها ، واذا بنور يتخطف منه البصر ، يشع من كاعب حسناء على أحد السطوح فتومىء له أن هذه جنتك وأن هذه هي حوريتك .

ويكاد لايصدق عينيه ، فلعله في عالم الحلم لا في عالم الحقيقـــة ، ولا يدري كيف اضطرب جانحاه وكيف بدأت دقات قلبه تتعالى فتسمعها اذناه ، لأول مرة ، وكيف هبط الأرض وهو شاخص ببصره الى مصدر النور وكيف سمر في مكانه لايبغي انفلاتاً تجليه غيبوبة هانئة رغيدة ، ولا يخرج من هذه الغيبوبة الا على مناد ينادي :

— أهلاً وسهلاً .

ويفتح عينيه واذا بصاحب الدار — وهو شيخ في مثل سن والده — يتقدم نحوه ، بادي السرور ، فيحتضنه وهو يردد كلمات الترحيب المثلج صدوره ، ويدخل الدار ، يحسب أنه في بيته وبين أهله ، ويتمنى لو لم يكن له بيت غيره ولو لم يكن له أهل غير أهله .

ويخلو الى خادمه فيضحك قائلاً :

— ها إني جئت القرية وعرفت اسمها كما ادركت سر كتمانك لها ، ألأنها الجنة وفيها الحور العين ؟ ولايبتعد عن الجنة الا الكافرون الضالون ولست منهم لتبعدني عنها . لقد نفذ المقدور وليست لي بالأمر حيلة .

— أية حيلة ؟ أورأيت احداهن فعلق قلبك بها ؟

— أي والله واريدك أن تعرف من هي الحورية التي كانت واقفـة على سطح هذا المنزل وأومأت لي عنه . ومنذ الوهلة الاولى سلبت لبي وأطارت عقلي .

فخرج شفيق يستقصي الخبر وعاد بعد قليل يحمل النبأ التالي : إنها وديعة شقيقة الرسول الذي جاء به وابنة صاحب الدار .

وإن أحمد ليحس ازدياداً في الالتصاق بهذا البيت . وإنه ليحزم امره في انيكون احد افراد اسرته لاسيا وان لها وجاهتهامثل‌اسرته . واطبق الليل على القرية فاذا بالسماط يوضع ، وفيه الشراب ، يصطف حوله نفر من الرجال ، فيهم صاحب البيت وابنه ، يتحلبون حوله وبيد احدهم الرباب . ولا تمضي الا هنيهة حتى تعلو اصوات المغنين بالعتابا والميجنا فيزداد حبوره ويتمنى أن لايكون له براح من هذا البيت . ومع الشراب والعتابا والميجنا يتراءى له طيف حوريته فيحسب انه في الجنة التي وعد بها المتقون . ومن يحيا في رغد من العيش بالجنة لايذهب الى الجحيم فتكوي جلده النار . ولاينفض الحفل الا في ساعة متأخرة من الليل ، ينتقل بعدها احمد الى سريره وغير بعيد عنه شفيق على فراشه .

ويفتح عينيه في الصباح ، ويكاد لايصدق مايرى ، يحسب انه في حلم ، ويحرص أن يظل غارقاً في لذاته ، فما من شك في أن نوراً قد سطع في وجهه فبهر عينيه فاغمضها ثم فتحها ليشهد اختفاء النور ثم مالبث أن نهض يستوثق فيما اذا كان مارآه في عالم اليقظة أم انه اضغاث أحلام . ورمى بعينيه الباب فاذا هو مفتوح وقد احكم اغلاقه عند النوم وتبين الى قربه شفيقاً يغط في نومه فرجح لديه أنما ما ابصره حقيقة ، فشاء ان يتأكد منها فايقظ خادمه ليفصل له في الأمر فانطلق الى الخارج فاذا به ، وجهاً لوجه، مع وديعة وبيمناها ركوة القهوة فامطرها بالسؤال :

— كيف تدخلين الغرفة ؟

— لم أدخلها .

— ولكن الباب مفتوح ومثلك من لاتكذب .

— ألديك بئر للسر عميق ؟

— اجل .

— إذن فاسمع : إن والدي وشقيقي مايزالان نائمين . وقد ولجت الغرفة بحجة تقديم قهوة الصباح الى أحمد بغية التعرف عليه . فوالله ان حبه قد استحوذ لي ودخل شغاف قلبي ، منذ البارحة ، إذ رمقته يدخل القرية على فرسه يسابق الريح، كالفارس المغوار . لكني لما دخلت الغرفة أبصرته مسترسلاً في نومه ، يعلو محياه البشر ، كأنه يبسم لي ، فانحنيت استرق منه قبلة فلما أحسست أنه استيقظ انكفأت راجعة اولي الادبار .

ولما فرغت من الاعتراف ، أشعلت سيغارة فدخنتها قليلاً ثم ناولتها له ليسلمها بدوره الى احمد كي يكملها عربوناً لحبها له ، وعبثاً يلح عليها شفيق لتعريفها بـــه ، فلقد أرجأت ذلك الى فرصـــة اخرى لاسيا وأنها تتوقع أن يستيقظ والدها أو

شقيقها ... وقدح أحمد زناد فكره عن حيلة ، وسرعان ماواتته ، فأفرغ ما بابريق الماء، ثم اعطاه شفيقاً ليسلمه بدوره اليهـا كي تملأه ماء عسى ان تدخل به عليه فيطفيء نار الشوق في تلهفه لمرآها ولكنها بعد ان ملأت الابريق لم تدخل الغرفة كما كان يتوقع بل وقفت بالباب ومدت يدها بالابريق الى الخادم فتناوله منها .

ولا يعرف احمد كيف قضى نهاره ، في سعادة عـارمة ، يعلل نفسه بالاماني في ان يسترق منها نظرة يتزود بها في رحيله الذي حزم امره على ان يبدأ غب حفلة العشاء التي لن تنتهي قبل مطلع الفجر . وعنــدما هبط الليل دب فيه اليأس من ان امنيته لم تتحقق وانه ذاهب عنها وقد بهره نورها دون ان تصافح عيناه عينيها فلم يتعرف اليهـا ولم يحظ منها ولو بكلمة واحدة تبرد غليله .

وجلس الى حفلة العشاء — وكانت ادسم من سابقتها — وجاء الرجال انفسهم وبدأ السمر والغناء . ولكنه كان شارد الذهن، منقبض الصدر، يتصنع المجاملة فيرد على الحديث بكلمة مقتضبة وبوده ان لايتكلم ابداً . وتنفرج شفتاه عن ابتسامة مغتصبة لا عهد له بها، ترين فوقه سحابة من الحزن لمجرد تفكيره بأنه راحل عما قريب . ولكم تمنى ان يطول الليل ويمتد فلا يتنفس من الصبح، لا لشيء الا ليظل قريباً منها وتظل قريبة منه ولو أنه لايراها ولو انها لاتراه ، وأفرط في الشراب، عزاء لما يساوره، ولكن كلما زاد في الشراب توقد الجمر في صدره . ويسأله صاحب الدار :

— اترانا قصرنا بالواجب نحوك يا ابن الأخ ؟

ـ لا ياعماه فالخير كثير ومثلك من لايقصر في شيء وقد غمرتني بلطفك وأفضت علي من كرم الوفادة مـافيه الكفاية وفرحي لايوصف في التعرف اليــك والى محروسك اخي ولم استشعر بينكما والحاضرين الا أنني بين أهلي وعشيرتي .

— إذن فيم وجومك وقد كنت في الليلة الفائتة مرحاً غاية المرح ؟

ويفجؤه هــذا السؤال فيحار في الجواب ويخشى على عينيه ان تنفرا بالدموع ، فيتخلص من هذا المأزق بالهرب الى الخارج متذرعاً بقضاء حاجة . وفي عتمة الليل لايعرف كيف أن صدره قد ارتطم بصدر حبيبته وقد وقفت بالباب ، تتملاه وتشنف اذنيها بسقطات حديثه . ولا غرابة اذا لاحظها احد الحضور ، لأن العادة المتبعة في القرى ان

الصبايا يقفن خارج الباب ليستمعن الى الغناء . وغب الارتطام يقف الاثنان – هي وهو – جامدين لايبديان حراكاً ولا ينبسان ببنت شفة ولا يخرجها من ورطتها ألا شفيق وقد لحق به فابعدها عنه وعاد به الى داخل الغرفة ليختتم سهرته ويودع الحضور مستأذناً بالسفر الى بلده حيث والده بانتظاره .

– ٢ –

سارا صامتين ، وسط الاحراج الكثيفة ، في ليلين : الدجى والوجوم . فلا يسمع في الطريق غير طقطقة عصا شفيق وحوافر جواد أحد وإلا نباح الكلاب في القرى التي يمران بها وصياح الديكة إيذاناً بقرب مطلع الفجر . وما هي الا ساعات حتى دخلا بلدتها والشمس تتعالى في كبد السماء . وترجل أحد فدخل غرفته مسرعا ، يذرعها طولا وعرضا ، فخفت اليه زوجة والده تتلقفه بالترحاب وتحوطه بالرعاية – كما لوكان ولدها – فتحييه تحية الصباح ولكنه لايرد عليها ويكاد أن لايراها ثم مايلبث أن يصيح في وجهها :

– اين وديعة ؟

ويعقل لسانها فتخرج الى شقيق تستنطقه لانها ادركت سر المسألة وإنها لتتصنع الجهالة فتزيد من رعايته له طول النهار وبقية ايامه ، وتبدل حال أحد كليا فهو يتطير من الناس ، يستوحش بهم فيركن الى العزلة عنهم ، لايبالي بما يتقولون عنه فيبعث والده اليه قريبا يلازمه ويكون له ناصحاً ومرشدا ولكن أنى له ان يبالي بالنصح والارشاد فحب وديعة طغى على تفكيره وخالط كل ذرة في كيانه .

وجهر برأيه في الزواج منها ولكن والده كان قد سبقه في طلب يد فردوس ابنة أخيه له . وبتّ الايجاب والقبول بين الاخوين ، وكلا الخطيبين – الابن والبنت – لايدريان من امرهما شيئاً ، وهيهات ان يتراجع أبوه عن طلبته ، وانى له ان يقبل بزواج ابنه من غير من طلبها له ، فوت ابنه خبر له من ذلك ، وعبثا يلح الوالد على ملازم ابنه يستصرخه ليعدل به عن رأيه .

ولا تمضي ثلاثة أيام حتى يكون بوديعة مثل مافي أحد ، فتبعث اليه رسولا تحثه على الحضور ثم تتبعه بعد يومين بواحدة . ويجد أحمد ان لاسبيل له لزيارة قريتها قبل فترة طويلة حسماً للظنون ومجاراة لعلو مقامه ، فما عسى أن يقول فيه والدها وشقيقها إما رأياه عندهما بعد ايام معدودات . ولكنه لايجد منــاصاً من ان يلبي نداء معشوقته فيعلن أنه

سيكون عندها مساء اليوم الثاني . وطبيعي انه اكرم وفادة الرسولين – الرجل والمرأة – فقد عادا محملين بالهدايا لها وفي جملتها هدية ثمينة لها .

وبالفعل فانه في عصر اليوم الثاني لبس ثياب السفر ، متقلداً سلاحه وموصياً شقيقته أن تجيب والده : « انه نائم » اذا ماسأل عنه ثم يغذ السير وحيدا على قدميه ، لأول مرة ، واضعاً نصب عينيه ان يصل القرية في اول الليل . وإنه ليصلها في الموعد المحدد فيختار له طريقاً يوصله الى عشه المنشود ويتحوط كي لايراه أحد ثم يرتقي السطح الذي رآها فيه ، بادىء ذي بداءة ، فينبطح عليه ويسترق السمع الى ان يرن في اذنه صوتها وهي خارج المنزل فيلقي بحصاة على الأرض فتهمس: أحمد ، فيجيب بصوت خافت:

وديعة : ها اني وفيت بنذري وجئت اليك حسب طلبك . خاطرك .

ومع كلمة « خاطرك » عاد مسرعا لايتلفت الى شيء فبلغ منزله مع الصبح . وقطعاً لدابر ظنون والده – وكان مايزال نائماً – فقد آثر ان يفتح المتجر بدلاً من ان ينام فيستريح من وعثاء السفر ، تدليلاً على عدم مبارحته المنزل في الليلة الفائتة .

وجاء والده ، بعد قليل ، فجلس وراء منضدة ، يقابله أحمد على مقعد خشبي وقد حاول جاهداً ان يقيم الدليل على نومه ولكن عينيه تشيان بالعكس تماما فهما حمراوان والنعاس يدب فيهما ، برغمه ، من حين لآخر .

– أرى بعينيك الاحمرار فهلا نمت ليلتك يابني ؟

– لقد نمت من عصر البارحة حتى هذا الصباح ولعل ما بعيني رمد ، لا اكثر ولا أقل .

ولم يشأ والده تكذيبه فاوعز اليه ان يبتاع « قطرة » ويستجم في البيت .

– ٣ –

ويمر اسبوع واذا برسول من لدنها يستحثه على الحضور اليها فوراً ، فما عادت تطيق غيابه لأن صحتها بدأت في الاعتلال . وكان قد مضى على زيارته الاولى زهاء اسبوعين فلا بأس عليه اذا مابدأ زيارته الثانية ، بصورة رسمية ، وفي هذه المرة ، يذهب وحيداً وقد حمل فرسه مختلف الهدايا .

وما ان يصل قرابة المغيب حتى يهب لاستقباله والدها وشقيقها ، وهما باديا السرور

لمعاودته زيارتها . وبعد أن يتقبلا الهدايا بوفير من الامتنــــان ، يقيان على شرفه حفلة عشاء يحضرها وجوه القرية والمعنون فلا يجد بدأ من التودد الى كل فرد منهم ومجــاملتهم بالحديث وخاصة مضيفه ، على أنه ما ان انتصف الليل حتى تصنع التعب فانفض الجلساء وافردت له الغرفة لينام فيها . ولكنه مقر رأيه على ان يكون كالسمك فلا ينام في القرية ، ليلًا ، على الأقل ؛ وانه ليجلس في سريره يترقب ساعة اللقاء على احر من الجمر . وتمضي ساعة يحسبها عاماً كاملا فاذا بالأضواء تنطفئ من جميع البيوت تلفها الظلمة ويسودها السكون.

وتدخل وديعة ، تخطر كقضيب البان ، في موكب من السناء والعطر والفتنة . وإن في عينيها لألقاً يتوهج كأنه النور الساطع فتلقي التحية فيردها بأحسن منها وتمد اليه يمناها بارتعاش فيسعى اليها مشرق البسمة فيأخذها بيمناه المرتعشة ايضا ويقول :

— أهذه أنت ؟ يامرحبا .

— طوباك ياعيني ويامهجتي

وتتعانق اعينهما برهة ثم يلتقي الثغران في قبلة كأنها السلسبيل ثم يغيبان في احشاء الدجى ، ترقه قبلة ويرشفها قبلة ، مثل الذي يجري بين طاهرين وقد تقابلا على ضفة غدير . وترتد عنه ، مع الفجر ، ليطوف في عالم زاخر بالبهجة لا أحلا ولا أسعد ! يمشي ! فلا والله لايمشي وانما يطير برجليه بجناحي السرور والغبطة .

ويمضي النهار ، بطيء الخطى ، يعدان ساعاته ساعة ساعة ودقيقة دقيقة ، ينساب في عروقها الدفء من حبها الدفاق . ويتكرر مشهد العشاء ثم يأتي الموعد المنشود فيلفها الحب بجانحيه في خلوة يسكران بها من غير خمر ، تمدهما بالدافق العــذب من الصبابات فيطوفان في لذاذات دونها لذاذات الدنيا طرا ، تغمرهما حيا المشاعر . وتلاقت روحاهما في درب الاماني . وسمعا وجيب قلبيهما متساوقاً بين اضلعهما فلكأنما وجد كل في الآخر نفسه فيتعاهدان على شركة العمر . ويدركهما الصباح فيكفان عن الفعل المباح ثم مايدري كيف تضرجت بدم الحياء حينا ألقى اليها ان رحيله قد حان ولاسبيل له عليه فتبسم له عن الدر المنثور وتقسم عليه وهي مدبرة أن لايطيل غيابه عنها .

ويشيع خبرهما في الناس فتلوك الألسن ظهور قيس وليلى جديدين ، واسقطفي يد والده فأحس انه يضرب في حديد بارد ولكن هيهات ان يرضى بزواجها بعد ان اطلق لسانه بان يكون ابنه لابنة اخيه لاشريكة له غيرها . ولكنه يخشى في الوقت نفسه ان يصيبه

فلذة كبده مكروه – أي مكروه – ولكن كرامته اغلى عليه من ماله واولاده جميعا وحتى من حياته نفسها بله ولده احد فقط .

وكلما تكرر لقاء احد معها يزداد ضراما في احشائه فهيهات ان تخلو لعينيه غيرها !..
ويبدأ الصراع بينه وبين والده فكل منهما متمسك برأيه تمسكا لاسبيل الى الافلات منه .
وتتجه النية عندئذ الى تحدي مشيئة والده فيستقر رأيه على ان يفك اساره منه فيستشيرها في ان تهرب معه الى جده من والدته في بلدة اخرى قريبة فلا تبدي اعتراضاً ، فلقد وهبت له نفسها كلها ، فلا تعصي له امراً ولا تروم انفكاكا .

وانه ليتمنطق بعشرات الليرات الذهبية من صندوق والده الحديدي ثم يتجه خلسة – لايدري به احد – إلى القرية فيصلها لا على فرسه بل سيراً على قدميه ، خلافا لعادته ، في موعد حدده لها بعد العشاء فيراها بانتظاره قرب النبع فيعيد عليها السؤال :

– هلا فكرت في الامر مليا ؟ اوتقبلين بالهرب معي ؟

– كلي لك ومهما تكن النتيجة .

وانه ليسدد نظره نحو الهدف ثم يسيران ، تحت ستار الليل ، تائهين بين الاحراج والادغال فلا يبدو التعب على اي منهما ، رغم أنهما لم يتعودا مثل هـذا السير ابداً .
وبعد مسيرة ساعتين يصل بها منزل جده ويتطلع من ثقب في الباب فيرى جده وحوله ابناؤه يسمرون فيتراجع قليلا يتناوشه دوار من الفكر ويطرق ذهنه احتمال مريب :
ماذا يجري لو امتنع جده عن ايوائها ، بل ماذا يجري لو شاع الخبر في الناس ، أفلا تتعرض حبيبته الى التهلكة ، الى الذبح ، على يد شقيقها ووالدها بل على ايدي بني عمومتها وخؤولتها وكلهم مؤمن أن الشرف السليم يراق الدم على جوانبه . وثمة نقطة اخرى ، أفلا يعيره المعيرون؟ او يضلها الهوى فيتبعانه ويعميان عمـا حولهما فيحطان من قدرهما ومكانتهما من أعلى عليين الى اسفل سافلين ؟؟..

وينتفض بـه الإباء ويغلي الدم في رأسه ، دفاقا ، فيعلن في اصرار وحزم انه لن يتزوجها الا جهاراً ، بطريقة سليمة ، وبعد ان تدق طبول الافراح في المنطقة كلها ، ويمسك بيدها فيعودان من حيث اتيا ، يحثان الخطى ، اكثر من ذي قبل ، فعليهما ان يبلغا قريتها قبل ان يكشف النور ستار الليل فتأوي الى مضجعها ويمضي الى حال سبيله لايدري أحد من أمرهما شيئا . وقد تم لهما ما ارادا فنامت وديعة على فراشها بسلام وتوجه احمد بكبره وخيلاءه نحو بلده قرير العين مرتاح الضمير .

— ٤ —

ويحتدم اوار المعركة بينه وبين والده فينقطع عن الدراسة ويهجر متجر والده فيركن الى العزلة، يرين عليه الاسى ، فيزود الدمع عن عينيه، ويقبع ساهراً ليله ، يناجي طيفها الغالي ، ويستذكر حديثها عن الحب وثار الوجد والسهد فيزكو جوى قلبه فتارة يضحك وطوراً يبكي ، فلا يجد عزاء له ولا سلوى الا أن يخف اليها ويجتمع بها ثم ما ان يفترقا حتى يعلل نفسه بالآمال في ان زواجه منها صائر لا محالة ، ان عاجلاً وان آجلا .

وينشب القدر اول سهم في تاريخ علاقتهما فيخالط الكدر صفوهما ذلك أن والده يرمي بكل ثقله عليه فيوقع احمد صك زواجه من ابنة عمه وكأنه لايفعل شيئاً بل كأنه يلهو ،لكنه ماان تدخل عليه عروسه حتى ينصاع للقضاء والقدر اذ يبطل السحر والساحر.

ويتطاول البعد بينهما ولكن هيهات ان تنسيه حياته الجديدة ذكراها التي لاتبرح خاطره والتي تظل أبداً في قلبه وفي مقلتيه فحبها مايزال ينساب في عروقه بالدفء وبالجدة. وكلما اوشكت جراحه ان تغور الى البرء يتراءى له طيفها فتنزف جراحات غرامه فتنهنه الدموع عينيه تحنانا اليها فلا تستريح مهجته من السقم ويهتز كيانه بالأسى والهيام حتى لتقرأ في عينيه سطور الشقاء والآلام واضحة جلية . وان آهته التي لم تعد بخافية على أحد لتصخب بالضر في حشاشة قلبه فيود محالاً ان يأس من جرحها او أن لاتزيد من ضراتها .

ويطرق مسامعه خبر مرضها فيهب كالملسوع يصحب الطبيب الوحيد في المنطقة فيعالجها بما لديه من دواء ويصف لها دواء آخر فيبعث احمد بمن يجلبه لها من طرطوس إذ أنها اقرب من بلدته . ويدب الشفاء في اوصالها وما كان الطبيب مداويها وانما كان احمد هو الطبيب المداوي فما ان رأته حتى انتعش قلبها ولم تلبث ان نهضت من فراشها :

— اراك اطلت غيبتك عنا فجزعت ان يكون قد اصابك مكروه فرضت .

— عافاك الله ما كان غيابي الا لأنني ارتكبت ذنباً .

— مثلك من لايأثم .

— هذه عين الرضى . لقد حنثت بعهدي لك وتزوجت بغيرك على كره مني والله .

— نفسي فداك ولا اصابك مكروه ، ماهمني زواجك .

— اذا كان هذا لايهمك فما يهمك اذن ؟

– مايهمني فقط هو ان افقد حبك لي . أما وقد تأكدت من ديمومة هذا الحب بحبيك الي واهتمامك بي في جلب الطبيب فلا شك أن التنغيص يجانفني وسأموت هانئة قريرة العين لأن من أحبني لم يحنث بعهده فبقي يحبني بالرغم من جميع العقبات .

– ان حبك يسري في كياني مسرى الدماء في العروق وسيظل في خلدي الى آخر نسمة في حياتي .

– لقد امتزجت روحانا في روح واحدة ومحال أن تنشطر الى روحين حتى الى مابعد الموت .

– لاسبيل الى السعادة الا اذا اجتمعنا تحت سقف واحد . ولئن تزوجت غيرك فلن يضمني البيت السعيد الا اذا كنت أحد ركنيه .

– لقد فرط الفارط فلا تهتم بي بعد الآن .

– مستحيل ،مستحيل، فالقلب يخفق مرة ولن يخفق مرتين .

– أمرنا وصبرنا لله .

وفاضت عيناهما بالدموع التي تبلل الخدود فلا يشهد الطبيب أروع من هذا المنظر ولا يسمع بارق من هذه المناجاة فيمتنع عن قبض الأجر الباهظ ويستأذن بالرحيل فيهم به أحمد لولا أن والدتها تقبل استئذان الطبيب وتتمسك بأحمد للبقاء في سبيل شفاء ابنتها تماماً بعد ان وثقت بانه لن يتم الا اذا بقي الى قربها .

ويمكث اسبوعاً فيشفي مابها وتسترد عافيتها فتبدو وكأنه لم يلم بها مرض – أي مرض – وجاءت ساعة الوداع فاذا الدموع تنهمر من عيون البنت والام على السواء . وتحتضنه الام ، هذه المرة ، بكل عواطف الامومة ، وتلح عليه أن لايطيل غيابه وان يتردد على ابنتها باستمرار فما تطيق ان تراها مريضة .

ويتابع زياراته ، من حين لآخر ، وتكون الوالدة – منذ ذلك الحين – واسطة العقد بينهما ، تختار لابنتها أهون الشرين . فتفضل خلوتها على أن تمرض فتذبل كالزهرة فتموت فيذوي عطرها ويضيع عبيرها .

وكان يدفع ضريبة العذاب – عقب كل زيارة – اذ تتجدد كامنات هيامه وباوحات غرامه ، ويكاد يتفتت كبده باللوعة وتبكيت الضمير لما اقترفت يداه . فما كان له ان ينقض عهده لها ويتزوج سواها – ولو كانت بنت عمه – ولن ينجيه من عذابه ان الأمر

إنما تم على كره منه ، ولم تكن له فيه اية حيـــلة . لقد أدى به الخجل من والده الى أنه يكون طوع بنانه ، فأسلم امره اليه مثلما تستسلم الشاة الى الجزار فيذبحها غير متردد ولا وجل .

وكلما تلمس أحمد عنقه يحسب ان الدم يسيل منه فلقد ذبح ذبح الشاة وهو مايزال على قيد الحياة . وإنه لرهين امرأة يعيش الى جانبها ويحسب أنها بعيدة عنه . وتطير به الاحلام الى اخرى يحسب أنه يحيا بها وهي بعيدة عنه فهو يبكي دما ، في حقيقته ، ويرقص فرحا ، في خياله . وإنه لتائه أبداً فـــلا يدري ان كان يعيش بواقعه أو انه الى خياله أقرب . لكأنه يتقمص شخصيتين : الاولى تلصقه بالأرض بالحبال الشداد ، والثانية تحلق به في الاجواء فيبدو في خفة الطير تارة وفي ثقل الجبـــال الراسيات طوراً . وهيهات ان يجد له مخرجاً ، من سجنه الذي أحكم غلاقه بنفسه أو الذي وضعه والده فيه . فليس له من متنفس غير ان يجر خطوه في البراري أو أن يخاصم زوجه ، لايقر له قرار ولا يهدأ له بال بل لايشعر بالطمأنينة والسعادة الا في الاوقات المتيئة التي يقضيها بين الفينة والفينة ، في القرية مع معبودته .

وإنه ليذكر ، مرة ، أنه عاد من احدى زياراته وفاجأ زوجه — وهي تقلب في محفظة اوراقه — فما راعه الا انها تتناول صورة حبيبته تتصفحها اربا اربا فلا يدري إلا ان عقله طار من رأسه فانقض على زوجته لكما باليدين وركلا بالرجلين الى ان تعبت يداه وكلت رجلاه ، فـــا شفى منه ذلك غليلا لأنه افتقد أغلى ذكرياته فضاعت منه الصورة ، ومن قبلها الأصل .

— ٥ —

وتمر الايام والشهور على وديعة ، وهي ترفض الايدي الكثيرة التي تتقدم منها ، تعلل الآمال بأن يتخذ منها زوجة ثانية ولكنها لاتكاشفه ابدا ، يرضيها منه ويزيد في قناعتها ان حبه لها باق ولاأدل على ذلك من انه يتردد عليها . واما ضمها بين ذراعيه لاتجد بها فتوراً . والغيبوبة هي نفسها عندمايترشفان أعذب القبلات فلا تجد على اطراف شفتيه أي أثر للملوحة .

وعيل صبر والدها ، بعد أن امهلها طويلا فصمم ان يزوجها ، برغمها ، فلم تجـــد مناصاً من الرضوخ لمشيئته . وجاء من يحمل اليه ، في كفه ، ثلاثمائة ليرة ذهبية ، وهومن وجوه القوم ، فاستلم الوالد الليرات الذهبية ، بيد ، وسلمه ابنته وديعة ، بيد .

وخلفت وديعة جاها ، مربع صباها وموطن ذكرياتها وسارت بحذاء بعلها الجديد، مجذوبة العينين ، مكبوتة العبرة ، فلا تجرؤ ان ترسلها خشية ان تضام . وتعقبته فامتطت جواداً ، مثلما اعتلى جواداً وبيده زمام جواد آخر على متنه حوائج العرس من الثياب .

وقطع الموكب المسافات الطويلة وكأن على رأسه الطير ، فاقتبس وديعة ببنت شفة . وانها لمفتوحة العينين ولكنها لاتبصر بها احداً وتكاد لاتحس بمن يجاورها بل وتكاد لاتصدق انها شدت اليه بحبل من مسد ، فمن ذا الذي يحل مكان احمد وليس في قلبها مقام لأحد غيره فهو ابداً ملء العين ، ملء السمع ، ملء البصر .

ووقع دابة احمد في منتصف الطريق بين قريتها وموطنها الجديد مسقط رأس بعلها. فلا تكاد تبلغها حتى يراها ، وكان جالساً على هضبة ، يعاقر الخمرة مع صديق له . وانه ليفتح عينيه على الحقيقة المذهلة ، فالفراق اصبح محتوماً بينها وبينه . وانه يهم بالنهوض فلا يستطيع حراكا ومابنشي يشعر ان السماء قد غامت بقلبه وأن القدر قد أسدل الستار على الفصل الأخير من رواية أمنيته الوحيدة . فود لو يغمض القدر نفسه عينيه الى الابد فلا يراها تكون لغيره . ويفطن جليسه الى الانقلاب المفاجيء فيه فيحاول عبثاً تعزيته . فاعاد احمد يمتص الخمرة امتصاصا وانما اصبح يعب الكأس حتى الثمالة عباً وكأن مابه ماء وليس بخمر . ويعاود العب مرات ومرات فتذهب روحه هباء وتسح عيناه بالدموع الحرار .

واعتراه الذهول ، فما استساغ طعاماً ولاعرف نوماً طوال خمسة ايام بلياليها حتى دب فيه السقم لكنه تجلد فلم يأو الى الفراش لكيلا يشمت به الشامتون ثم اسلم امره الى الله يفعل به مايشاء .

— ٦ —

أغلق أحمد قلبه على غرامــه ، يطوي صفحاته ، كمن يطوي صفحات كتاب جيد ، يستذكر بلذة أسلوب الكاتب وكلماته وعباراته وصوره فيكاد ان يحفظها عن ظهر قلب . وإن احمد لتراوده النشوة اما ترامى له طيفها ، وما اكثر مايترامى !.. وكلما ذكر اسمها الذاكرون ؛ فما في كل مكان اثر محبب عنده : فالمقعد الخشبي في المتجر أثير لديه لأنها جلست عليه اما جاءت مع شقيقتها الصغيرة تبتاعان الثياب ، وهذه الزاوية من الشارع حبيبة الى قلبه لأنه قرأ فيها اول كتاب منها وو . . . وحتى في البيت فان كل شيء يذكره بها . دفع خالته مرة ان تدعوها اليه ففعلت ولكنها اشترطت عليــه إن لايراها فيه فقبل .ولكن هيهات! فما استطاع تنفيذ الشرط ، ذلك انه ترك ضيفه — والدها —

واقتحم جناح الحريم يرحب بها ويتلطف معها بالحديث ، فلا يسمع العبارة التي كررتها خالته :

– ابرح مكانك يا أحمد وعد الى ضيفك .

أبداً لم ينعم بالسعادة في بيته مثلما نعم بها عندما كانت فيه . كأنها لم تخلق الا لتكون زهرته الفواحة ومصباحه المنير وطيره المغرد . محال ان تكون لزوجته عذوبة حديثها وجرس صوتها . لكأن هذا الجرس زقزقة العصافير . وأنى لزوجته جمالها ودلها ونظرتها وبسمتها بل قدها ورشاقتها : فلا تمشي كما تمشي زوجته بل تنقل خطوها على رؤوس اصابع قدميها فلا تسمع لمشيها ضجة ، كالطير ، وانها لتأكل كالطير أيضا : قليـــلا من الطعام ولقمة صغيرة صغيرة . وتجرع الماء فلا تكاد تجرع شيئاً ، كالطير سواء بسواء ، لايميزها عنه الا الحجم .

ويظل على هذا الحال ، يعدد صفاتها ، لاسمير له غير النجوى والنجوى فقط ولكنه لايكشف أمره للناس فلا تظهر عليه علائم المدله الولهان بل لكأن مامضــى قد انقضى وراح ...

– ٧ –

ويزداد ضراراً في أحشائه عندما يوافيه غريمه – زوجها – بعد حين ، فيعترف له بخطيئته ، فما كان له ان يتزوجها وهي لاتحب احداً سواه بل لاتقوى ان تحب أحداً سواه ، تناجيه في نومها ويقظتها فما تبصر في الدنيا أحداً غيره . ويعلن له أنه ما كان ليحس أن حبها له بالغ هذه الدرجة ، فوق المستوى الطبيعي . ويشهر هذا الغريم إفلاسه فما ان يبلغ وطره منها حتى يستشعر كأن جداراً قد اقيم ليفصل بينها وبينه فما كانت معه أبداً بروحها وأية قيمة لجسد بلا روح ، فالجسد سبيل الشهوة العابرة وفيما اذا امتزجت الروح بصنوها فهي الى النعيم أقرب . وما السعادة إلا أن يكون الزوجان روحاً واحدة في جسدين وإنه بالتالي ليعترف بجريرته وأنه اقترف إثماً بزواجه وأنه إنما جاء اليه ليكفر عن جرمه . ويكاشفه بالقول :

– إنني مستعد للتخلي لك عنها فهيا بنا اليها تفك إسارها من سجنها معي لتعيشا معاً بصفاء ونعيم : روحاً واحدة في جسدين .

– إنني أُكبر تضحيتك فلقد شاء القدر أن يفصمنا فلا يجمع بيننا ، ولا راد.

لمشيئته، كما كتب علينا في اللوح المسطور أن ندفع ضريبة العذاب فلا أسعد بزواجي ولا تسعد هي بزواجها وليقضي الله أمراً كان مفعولا .

ويكرم احمد وفادة الزوج كثيراً ، ولو انه عاد مكسور الخاطر لأنه كان عاقداً العزم على ان يجمع بينهما ، لكنه اكبر في الوقت نفسه شهامته ونبله فما يعرف حباً عذريا مثل حبهما . وانه لأكبر شاهد على هذا الحب .

وتمضي السنون سريعة متلاحقة واذا بوالد احمد في ضيافة هذا الزوج بمنزله في القرية، يقيم له مأدبة سخية . وشده الوالد عندما ذاق طعم الملوحة الشديدة في الالوان المتعددة من الطعام ، فتوجه اليها نفسها بالسؤال وكانت واقفة تشهد بتشفٍ أثرها :

– اعرف انك تحسنين الطهي مذ كنت في منزل والدك فلم هذه الملوحة الزائدة ؟ لقد احرقت قلبي بطعامك .

وتحسب أنها ادركت ثأرها فتجيبه في حرقة بالغة :

– لئن احرقت قلبك لدقيقة واحدة فلقد أحرقت قلبي الى الأبد !...



النافذة المغلقة



قصة لأم عصام

ليرة سورية واحدة لاغير كانت تملكها .. وحينما ابتسمت لتفتح الفجر كانت غافية عما عذبها طيلة الليلة الماضية .. كان النوم يهرب من عينيها لتتركزا على السقف المظلم الصامت .. تتساءل وتتساءل .. وتخال حياتها صامتة مظلمة كئيبة كهذا السقف المطبق على أنفاسها حتى الاختناق .. تراها متى تشعر بالرضا والهدوء باعتبارها انساناً كاملاً في المجتمع .. انها امرأة وما عليها الا أن تمد يدها وتقول : اعطني .. كم من المرات أحست بالغصة المريرة تجرح

صدرها وهي تقف ممدودة اليد الى زوجها لتطلب منه بضع ليرات تفي بحاجتها .. كان الذل يرتسم في عينيها مرعبا يخنق الالم ويمحو البريق الذي يرافق قناعتها حينما تكون معها نقود .. على الاقل تستريح من كلمة : اعطني ..

ويمضي الليل وهي مسهدة يهدها الارق وبيت منها العذاب والتساؤل كل حافز على استمرار البشر في أيامها .. ويتفتح الفجر .. وترفرف عيناها ليوم جديد ككل يوم تستفيق فيه على بعض أمل وتنام في مسائه على لوعة وحزن .. ويتسرب الى اطرافها المخدرة من أثر النوم شيء جديد كدبيب النمل يسري الى خلاياها وجدران قلبها المسكين وتتساءل : ماذا لوكان هذا اليوم مميزاً عن سواه؟ لربما تتغير ساعاته عما مضى من الساعات المملة البطيئة .. لربما يلثمها بريق جديد أو تأتي مفاجأة لم تكن تنتظرها .. وتتسلل من سريرها الى الحمام تغسل بقايا النوم وبقايا الليلة المسهدة عن جفنيها .. ثم تتجه الى المطبخ تبدأ عملها اليومي ..

منذ أسبوع تغفو في محفظتها ليرة سورية واحدة .. كانت تجبن معها عن شراء أي شيء لئلا تضيعها . مشاريعها الكبيرة والصغيرة تسكن المخيلة والرأس فقط .. أما التنفيذ فهو حلم يكبر ويصغر حسب سعة خيالها وأبعاده .. البارحة قالت لها ابنتها : ماما .. أريد شراء حذاء جديد ، لقد بلي حذائي القديم وأخجل به أمام زميلاتي وزملائي في الوظيفة ، خاصة وأنا جديدة لديهم ، يجب أن أحافظ على أناقتي .. وتبتسم الام بمرارة .. ابنتها تريد حذاء جديداً ؟.. منذ شهرين فقط اشترت الاول والآن تريد تبديل آخر به رحم الله أيام طفولتهـا وصباها منذ عشرين سنة ، كان الحذاء الجديد لايعني لديها الا قدوم العيد .. ولشدة فرحها به حينذاك كانت تنام ليلة العيد وهي تعانق الهدية الوحيدة في

كل السنة .. حتى في ربيعها السادس عشر كانت تفعل هذا ؟ وعندما قالوا لها :
ستتزوجين من رجل يملك كل شيء .. غمرها زيف فرحة لانهم وعدوها بأثواب
كثيرة وأحذية ذات كعوب عالية تزيد من طولها عدة سنتيمترات .. ستتخلص
اذن من ثوبها الاسود .. الوحيد الذي وشح جسدها أربعة أعوام متتالية .. حتى
اللون الفيروزي الذي أدخل عليه بعد السنة الرابعة من ارتدائها له لم يغير من
احساسها شيئاً الا أنها ستستقبل به الخطيب .. مع زيف هذه الفرحة عارضت
في الزواج وقالت لهم : اريد أن أتم علمي .. أريد أن أحصل على وظيفة اعتمد
فيها على نفسي .. كان جوابهم تجهماً في الوجه وغضبا في العيون .. وصراخاً
تسمعه في أذنيها حتى الآن : ليس لدينا فتيات يرفضن الزواج من أجل العلم
أو الوظيفة .. الفتاة خلقت للبيت والزواج .

ومع تنهيدة طويلة مشحونة بعذابات الماضي البعيد تتذكر الأكل على
النار .. تتحرك قدماها باتجاه يتسرب الى انفها رائحة الغاز .. تلعن في سرها
هذه الرائحة الكريهة وتخبرها .. كلما تعطرت انفاسها بها يصيبها غثيان وصداع
لاتتخلص منها ابداً .. رحم الله ايام وابور الكاز .. على الأقل كانت تدغدغه
وتملأ له بطنه ليعطي .. وحين يبدأ غناؤه الروتيني تبدأ هي في اغانيها الحلوة التي
كانت تترنم بها .. كانت الموسيقى ضجيج الوابور ، امـا الغناء فكان لحناً شجياً
يسكرها .. لحناً يسري مع انسياب ذكرياتها وتفاصيل حياتها ..

هذا الصمت القاتل الذي يتحفها به الغاز لم تستسغه يوماً .. صمت كصمت
القبور وسكون كسكون الموتى .. ورائحة الآخرة في لهبه واشتعاله .

صحيح أن زوجها يزودها دائماً بالمخترعات الجـديدة ليهبها بعض الوقت
تختصر معه طلبها لخادمة تساعدها في اعمال البيت .. لكنها كانت تحب كل شيء

قديم .. الماضي لها معه صلة وذو ألفة .. لها معه حكايا في الاصباح والعشايا .. لها معه احساس قتله المدنية وشلت اوصاله .

الصمت يعذبها .. تريد النسيان.. تريد ضجة تملأ رأسها.. تريد الموسيقى التي اعتادت كل يوم سماعها ليسرح فكرها في الفناء والصور الرائعة من الاحلام الدافئة المدفونة مع الامس .

تدهش حين تجد رأس الغاز مطفأ ومرق الطعام قد سال على جوانب القدر الى الثنيات والثقوب فسدت طريق الغاز .. ويتبخر الجو بهواء لا يطاق .. تلعب اصابعها بعلبة الكبريت لتشعل عوداً .. تجبن جامدة العينين مشلولة الحركة .. تبرز امامها صورة مطبخ لاحدى صديقاتها .. اذ أهملته بين يدي خادمة صغيرة وحين اشعلت هذه الخادمة مرة رأس الغاز المطفأ مثلها، كان امامها ثلاثة اولاد صغار للصديقة .. وفي لحظة خاطفة امتد في الجو لهيب مسعور يشوي اربعة اجساد معاً .

يرتسم الخوف في جحوظ عينيها .. تحاول ان تغلق لولب القارورة ثم تهرع الى النافذة لتفتحها وتطهر الهواء السام ، ولتغرف رئتاها ما تحتاجه من خلف النافذة المغلقة . . عناد المصراعين المتعانقين كان صامداً تخاله ابدياً لا ينفصم . . يداها في عراك مع النافذة حين تبدأ قواها تخور .. وترحف اصابعها من النافذة الى عنقها تحصر سعالاً شديداً أخذ ينتابها .. ثم تهرب هلعة من المطبخ لترتمي على اريكة واهية القوى عليلة الانفاس .. تسمع صوت دقات الساعة .. موعد عودة زوجها قد قرب . ماذا ستطعمه ؟.. الأكل لم ينضج بعد .. تراه سيعذرها .. ان هذا البيت لا يسبح في صمت وهدوء الا حين يخرج منه هذا الزوج . . اما بوجوده فهو ثائر..ثائر دائماً .. اي شيء يحصل معها يثور من اجله.. دائماً اعصابه

متوترة وصبره قليل .. وهي بصمتها الأبدي تضفر الف حكاية وتغزل الفقصة .

حين تزوجته قالوا لها : يملك كل شيء .. وماذا وجدت ؟ وجدته لايملك الا الثورة والصراخ والعصبية .. وفي ماعدا ذلك .. لاشيء .. من لطف الرجال وغزلهم .. لاشيء من بذخهم وعطائهم . . لاشيء . . من صداقتهم وطمأنينتهم لزوجاتهم .. لاشيء من الاستقرار والهدوء يعم بيتها . . ثورة وصراخ وعصبية ويدها الممدودة دائما تقول : اعطني ..

حينما ناقشت أهلها في اتمام علمها لتؤمن مستقبلها في وظيفة ،ثار واكلهم.. المرأة تشتغل ؟ياللعار !.. المرأة مهما تعلمت .. خلقت للبيت والمطبخ والاولاد. في قرارة نفسها كانت واثقة بأن المرأة لم تخلق هكذا .. هم جعلوها هكذا . . أهلها .. قصوا لها الاجنحة .. ونتفوا منها الريش حينما كان كالزغب .. خنقوا افكارها .. سمموا حياتها .. وقالوا لها : ستتزوجين من رجل يملك كل شيء . . لقد جربت وعرفت خطأهم وخطأ تفكيرهم القديم . .

ابنتها تريد حذاء جديدا ؟منذشهرين اشترت حذاءها الابيض هذا..والآن تريد تبديل آخر أسود به .لابأس لتبدله .. لماذا حفزتها لان تدرس وتنال البكالوريا ومن بعدها الوظيفة .. ستقبض هذا الشهر اول راتب لها . . فلتتمتع . . لماذا تمنعها ؟ ألتعيش مثلها في مرارة الحرمان ؟..

على الاقل سترتاح ابنتها من مد يدها وكلمة : اعطني . . ستتزوج يوماً وتلحظ احترام زوجها لهاباعتبارها فرداً فعالاً معطاء. لقد تمنت هي ان تملك يوماً أي شيء لتقول : خذ. تلك الكلمة حلمها الوحيد .. ستحققها الآن في ابنتها . . ستعطي ابنتها ولاتأخذ .. ستفتح فمها وتحتج اذا كان زوجها صعباًقاسياً كأبيها.. ستثور وتصرخ وتجاهد في سبيل انصافها كنصف آخر في المجتمع.. ولن تستكين

مثلها .. ستعلمها الا تستكين وتذل .. ستنمي لديها الكرامة التي هدرها من عاشوا في الرواسب القديمة .. ستسكب فيها حياً كل ماقتل في اعماقها ..

منذ سنة توفي والدها وخلف لها خمسة آلاف ليرة . . يارب طول حياتها لم تكن تحلم بمثل هذا المبلغ .. ثمن الحلم فقدان ابيها .. وفقدانه اعطاها خمسة آلاف ليرة .. لقد زوجها هذا الأب وظلمها لكنهعادينصفهابارثه هذا . . ماافدح ثمن هذا الانصاف . .

قبل سنة بالضبط كانت في المحكمة مع أهلها .. وعد رجل في يدها : الف .. الفان .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. وضمت يدها بشدة على النقود وفي أعماق قلبها تنام حسرة .. ولوعة أبدية ..

في البيت استقبلتها ابتسامة زوجها الواسعة .. وأحست معها بالرضا يملأ قلبها الحزين .. ستفي له الدين الذي أثقل كاهلها سنوات طويلة .. ستقول له ولو مرة واحدة : خذ .. مهما كان الثمن

لم تتردد لحظة .. ولم تفكر .. بل مدت يدها..وقالت له : وهي تشدد على الاحرف :

ـ خذ ..

قالتها اخيراً .. هذه الكلمة الكبيرة في نظرها..قالتها ولو مرةواحدة.. ودفعت ثمنها كل ماتملك وكل ماستملك .. وتجرحها المرارة ويشويها الأسى .. منذ سنة فعلت هذا ؟.. فماذا جنت ؟.. لقد عادت الى الطلب وكلمة : أعطني.. وعادت ابتسامة زوجها الى الشحوب وعادت الثورة والصراخ يسيطران على البيت ويخلقان الجو المحموم الدائم الغليـــان .. حينا كانت تشدد من عزيمتها لتقوم الى المطبخ تتمم الأكل كانت الفرحة في اطلالة وجه ابنتها تدخل البيت مسرعة :

ــ ماما ، انظري .. لقـــد قبضت اول راتب لي .. انظري .. معي نقود .. خذي ماتريدين منها ..

وتنازعت الاحرف على فم الأم .. وارتجفت ذقنها ، وبوادر دموع تكاد تهمر من عينيها .

تهمس الابنة :

ــ ماما اتبكين ؟ .. وتئن الرعشة في بحة صوت الام :

ــ ابكي فرحاً ياحبيبتي ..

وتكاد تقف الام لتتجه الى المطبخ .. لكن ابنتها تقعدها على الاريكة قـائلة :

ــ ارتاحي يا أماه .. سأتم الأكل بدلاً عنك ..

وترتمي الام بجانب النقود المفروشة على الاريكة تملأ عينيها الدموع .. وتهرع الابنة الى المطبخ وتفتح النافذة المغلقة ..

دمشق عدنا

للدكتور زكي المحاسني



عدنا نحييك بالأرواحِ والذِّممِ
بنتَ البطولة والأمجادِ في الأممِ

أختُ الفداءِ يروي الدهر سيرتها
بأنَّ مِنْ دمها ممزوجةَ العلمِ

مجدانِ زينتُها : في السلم مكرُمةٌ
وصونُ حريةٍ بالمجدِ والشممِ

وفي الوغى صدمةٌ يهتزُّ راعِدُها
كأنَّ زلزالها أوفى على القِممِ

حماسةُ الشامِ هابَ الدهرُ جاحِمَها
فاسألْ بها المتنبّي بَطشةَ النِّقمِ

لو جاءَ هوميرُ غنّاها بملحمةٍ
فردّدَتها جدودُ العُربِ في الرِممِ

شوقي إلى بردى يهتاجُ خاطرتي
من بعد حر يذيبُ الجسمَ بالحمم

دعني بربوته أنشق نوافحه
وألمس الماء لمس البارد الشبم

أنا ابن ضفته الهيفاء ناسمها
في النيربين وفي الغوطات ملتزمي

بنت القشاعم ما الاشعار موفية
حقاً لعلياك في رتابة الهمم

أمية بك عادت في انتفاضتها
لتبعث العهد في وهاجة النجم

خلف الغيوب أرى الفرسان طاحمة
على خيول الى الهيجا بلا لجم

تمثلت بتهاويل الحديد لها
صوت يعج بابطال على دهم

شاهدتُها يوم عرض الجيش هازجة
أنشودة العز عند الحرب والسلم

على الحدود أرى الأيقاظ راصدة
كأنها قدر الثأر لم ينم

لابد من عودة الدار التي سلبت
والشرب من نهرها مهما جرى بدم

دمشق غدت، وكم أهواك في شغف
من قبل الخلق حتى غيبة العدم

باريس



من مشارف السماء

ـ بغداد

شعر محمد بهجة الأثري

إلى أُفُقٍ أبهى من « الطيف » ألوانا
طربتُ ، وناغيتُ الأمانيَّ نشــوانا
كأن الهوى الظمآن بين جوانحي ،
اليـــه ، من التبريـــح يلهب نـيرانا
تعشّقتُــه أُذْناً ، وكم هـام ذو هوى
على السمع واستشرى به الشوق طغيانا

رؤىً مثل ريعان الشباب نضارةً
وأطيافِ أحلام الكواعب أَزْيانا
تمُور على عيني تَشاوى نواعساً
وتهمس في أذني غناءً وألحانا

* * *

سموتُ ، وأجوازُ الفضاء مسالكي
إليه ، أُجاري الشمسَ في السبح إمعانا
على مركبٍ ، للطير فيه مشابهٌ :
جناحاً ومنقاراً وذيلاً وجثمانا
طوى من (بساط الريح) ماشاع ذكره
وما صنعت في الدهر (جِنُّ سليمانا) :
عقابٌ ،من الفولاذ . . إنْ هي حوَّمتْ
أخافت نسوراً في الفضاء وعقبانا
تشق فضاءً لا عُباباً ولا ثرى ،
وتقطع ريحاً لا رمالاً وكثبانا
كأن الضرامَ المستكنَّ بجوفها
مواجدُ قلب هاجه الشوق أشجانا
تشأى سبحُها وهمَ الظنون ، وجاوزت
صدى الصوت وَشْكَ اللمح خطفاً وإيذانا
إذا هي زفّتْ ، ظنّها السَّفْوُ ، ونَقّتْ
سكوناً ، وشدَّتْ في ذرا النجم أرسانا

وما عرفت ما البُعدُ يوماً ، ولا شكت
من السـير إعيـاءً يخونُ وإدمانا

* * *

دنتْ وأصيلُ اليوم في عنفوانه ،
وقد بارحت في ضحوة اليوم (بغدانا[1])
أطلّتْ على (باريسَ) والفكر ساهم
يشكّكُ فيما تبصـر العين إعـلانا
أ (باريسُ) في مرأى العيون تبرّجَتْ ؟
أم العينُ قد زاغت على البُعد إنسانا ؟

* * *

نعم . هذه (باريس) تسبح في السَّنا ،
يغازل منها (السينُ) حسناءَ مفتانا
بدت تحتنـا ، والعينُ بالعين تلتقي
وتبصـر مالا يبلغ الوهم أحيانا ،
زُمردةً ياقوتـةً تحت شعشـع
من الشمس أذكته الأصـائلُ عقيانا
تنوّرُ من فرط التوهج رونقاً
تبدى به وجـهُ الطبيعـة جذلانا
تألقَ كالافرندِ .. مـاج رُواؤه ،
فشعشـع أطيافـاً ، ومازجَ ألوانا

---

(١) بغدان : بغداد .

إذا أخذته العين ؛ يخطف برقُــه

سناها ، ويُضْنِيها لحاظاً وأجفـــانا

* * *

ترامتْ على ضاحي السهول خمائلا

تردّ حَسيراً ، سابحَ الطّرْف ، وسنانا

لعــلّ مَداها ، والعيونُ حواسرٌ ،

يَنال خيالاً ، أو يُقرِّب حِسبانا

فراديس حُوٌ .. كالحرير مُنَشَّراً

مُلاءٌ كوهّاج الكواكب مزدانا

تلفّ حنــاياها جداولَ فضــةٍ ،

وتحوي ثنــاياها حدائق أفنــانا

تكاد من السَّرّاء من فرط رِيّها

تناغم شَدْوَ الطــير سجعاً وإرنانا

رَبَتْ زهَراً غضّاً ، ورطباً مثمراً

جَنيٌ : عنباً حلواً ، وتيناً ، ورُمّانا

وعانقَ فيهـــا الأيك أيكاً شبيهه ،

وراقصَ فَيْنانٌ الذوائب فينانا

وماجت بعيـــني حيثما دارَ ناظري

مفاتن مثلَ الغيد عُرينَ أبدانا ؛

تخايلْنَ زُهراً ، كالشموع .. تألقتْ

فأشمسَ منها الليلُ ، كالصبح ضَحْيانا

هو حسنَ قُدوداً فاستثنَونك خاطراً

ورُعْنَ نهوداً فاستبحنَك وجدانا

وبين الرياض الضاحكات مباسماً

جرى (السينُ) مفتوناً بهنَّ وفتّانا

جرى بنثيرِ الماس رقراقُ مائه

وصفّقَ جذلان الأسرَّة سكرانا

تحوّى بجراه شمالاً ويمنَـةً

كما أبصرت عيناك في السهل ثعبانا

وهام فتوناً هاهُنـا ثمَّ هاهُنـا

كما هامَ ذو عشق تدلّهَ ولهـانا

تعشَّقها صباً ، ومالت حبيبةً ،

وبعضٌ على بعضٍ تعطّفَ ظمـآنا

وحفّتْه مثـالُ البدور زواهراً

حوالمَ في شطّيْه أنساً وسلوانا

دساكرُ بيضٌ ، شارعات مسالكاً ،

ينافس ميدانٌ لديهنَّ ميدانا

وناغت حفافيْه القصورُ عرائساً

بهنَّ وجوهاً مشرقاتٍ وأودانا

شبعن نعيماً وارتوين مباهجاً

وفضْنَ حبوراً مستنيراً وغنيانا

تَطِلُّ عليه ضاحكاتٍ لضاحكٍ
كما تتلقى القيدُ في العُرس ولدانا
ترى منظراً ، ماتنظر الدهرَ بَعدَه
أحبُّ وأحلى منه في العين رَيْعانا

* * *

تَمليتُ حسناً ، لوتمثلت (عبقراً)
لما كان إلا دونَ سيماه إحسانا
يظنُّ خيالاً طافياً لا حقيقة
ويُحْسَبُ حلماً لاوجوداً وعمرانا
هل الشعرُ إلا لمحةٌ من خياله
وألوانه معنىً وسحراً وأوزانا
سَباني على نأي العيان ، وكلما
دنا كان في عيني أجملَ أعيانا
تخيلتُ إذْ أمعنتُ فيه تَمَلّياً
كأنيَ بين السحب أحلم يقظانا
نعم ، وودِدتُ الدهرَ أنيَ طائر
على أُفْقه النشوان أنظر نشوانا

* * *

رُوَيْداً عُقابَ الجوّ ، لاتهبطي بنا
وإن حنّ قلبي للمنازل لهفانا

قفي. ونَقّي فوق المشارف . إنّا

لأمثــال هذا السحر تعشق دنيـــانا

دعيني ، أنَلْ من جملة الحسن شهوتي

فقد عزّ مشهوداً جليّـــاً وعريانا

إذا لم تَنَلْ نفسي من الحسن ريّها

ففيمَ اقتحامي الجوّ ناراً و «بركانا» ؟

تجاهلت دون الحسن كلَّ عظيمـة

فطرت إلى مأواه حبّـاً وتحنانا

* * *

سيمثلُ في عيني ماعشتُ مائداً

رُواءٌ ، ومحيا في ضميري غَيْسانا

تساقيني الذكرى هواه ، فأنثني

وقد رحتُ من سقيا الصّبابة ريّانا

إذا شئتُ ناجاني خيالاً وصورةً ،

وإن شئتُ ناغاني صفياً وندمانا



من أغاني المطر

مهداة الى عيون المطر المتساقط فوق مدينة
دمشق بعد منتصف ليلة شتائية من ليالي كانون

شعر محمد عدنان لطفي



الليـــلة ساحرة النغمات
والمطر يغني في الطرقات
والناس تواروا .. وتواروا
في المقهى .. في ظل الشرفات
ووشاح ضباب .. ورزاز
ونسيم قد لف الشجرات
فبدت في الليل كأشبـــاح
تتراقص رقص الجنيـــات
وغنـــاء المطر على مهل
يتجاوب في كل الساحات

والضوء الخافت يرسلـه ... مصباح منسكب العبرات
والحارس في صمت يروي ... قصصا للموقـد وحكايات
والصوت تلاشى . . وتلاشى ... الا من بعض السيارات
تجتاز الشارع مسرعة ... حيرى كقطيع سنونوات
ووراء المنعطف الخـالي ... يتثـاءب بائع حلويات
والبـلدة امست مزوعة ... لكلاب تسرح في العرصات
وشباب الليل . . بلا هدف ... يرتاد الشارع . . والحانات
يبحـث عن زاد يأكله ... يبحث عن خمر .. عن فتيات
ماأحلى الليل .. وبلدتنـا ... تستقبل هاتيك اللوحـات
اثنان أنا . . يافـارستي ... ماأهوى دهري من صبوات
عينيك . . وليل أوّلـه ... قُبَلٌ ، ونهايته آهـات

* * *

فاتنتي . . ياحلمـا أشهى ... من مزوعة ملأى نجمات
ملآى تبغا ، مـلآى عسلا ... ملآى دفئاً ، ملآى رغبات
يغويني كأس . . يغويني ... لحن . . تغويني الشقراوات
لازلت أحب التبر ومـا ... أهداه لشعرك من خصلات
لازلت أحب الورد ومـا ... في الخد تزاحم من وردات
لازلت أحب الزهر ومـا ... فتح في صدرك من زهرات
وأحب . . أحب فماً أشهى ... من نهر نبيذ . . وصبابات
وأحب . . أحبك ياقمري ... وأحب الخضراء الصدفات
وأحب الحب .. وغانيـة ... تسقيني الخمر مع القبلات

فدعيني . . لا . . لاتقتربي   من ناري..من تلك الجمرات
أخشى أن تحترقي فيها   أخشى أن تأكلك الشهوات

* * *

الليلة ساحرة النغمات   والمطر يعربد في الطرقات
واحبك دافئة سكرى   كالصيف.. كشلال الآهات
فعبير انوثتك .. الحرى   أشهى ماأملك من نفحات



اعلان

عن تأليف (اوبريت) سورية

تعلن وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي عن اجراء مسابقة لتأليف اوبريت غنائية شعبية راقصة تقدم للجمهور في اعياد الثامن من آذار عام ١٩٦٧ وفق الشروط التالية :

١ – ان يكون موضوع الاوبريت : تصوير روح الريف العربي السوري وتقاليده ووصف مشكلاته والتعبير عن آماله ومطامحه في الانتقال الى الحياة الاشتراكية (كما يجوز ان تعالج الاوبريت بدلا من ذلك احد الموضوعات القومية البارزة) .

٢ – أن تكون الاوبريت زجلية أو شعرية باللغة الفصحى المبسطة صالحة للتمثيل والغناء والرقص وقابلة للتنفيذ ضمن امكانات فرق الوزارة الحالية .

٣ – أن يستغرق تقديمها حوالي ساعتين .

٤ – أن يقدم نص الاوبريت ضمن غلاف مسجل مصحوب بمغلف مغلق يذكر فيه اسم المؤلف وعنوانه وعنوان الاوبريت والرمز الموضوع على غلافها الى مديرية المسارح والموسيقا في الوزارة قبل نهاية دوام يوم الخميس الواقع في ١٥ كانون الاول ١٩٦٦ وذلك ليتاح للوزارة اختيار الاوبريت الفائزة والعمل على تصميم ملابسها ورقصاتها والحانها وتدريب ممثليها بحيث يمكن تقديمها للجمهور في الموعد المحدد .

٥ – تحتفظ الوزارة بحق تمثيل الاوبريت الفائزة لمدة خمس سنوات ابتداء من تاريخ اعلان فوزها ويجوز لها طبعها في هذه المدة على أن يعطى صاحبها في هذه الحالة بالاضافة الى الجائزة تعويضات التأليف وفق القواعد النافذة .

٦ – تكون الجائزة الاولى للاوبريت الفائزة ١٠٠٠ ل . س والجائزة الثانية ٣٠٠ ل . س .

٧ – يسمي وزير الثقافة والسياحة والارشاد القومي لجنة لدراسة النصوص المقدمة ويكون قرار اللجنة مبرما بعد مصادقة الوزير عليه .

دمشق في ٢/١٠/١٩٦٦ — وزير الثقافة والسياحة والارشاد القومي

الكتاب والموضوعات

- في مسرح العبث
الدكتور غسان المالح

الفنون

في مسرح العبث

الدكتور غسان المالح

يعود مؤرخ المسرح بمسرح العبث الى ألفرد
جاري والى مسرحيته «الملك اوبو» التي مثلت
في باريز عام ١٨٩٦ لتترك صدى لايقل عن ذاك
الذي تركته هرناني عام ١٨٣٠ او مسرحيات
ابسن حين مثلت في انكلترا لأول مرة في اواخر
القرن الماضي .

والفرد جاري هذا توفي بعد عشر سنوات
من كتابته للملك اوبو بعد حياة قصيرة قضى
معظمها في استهلاك كميات هائلة من الكحول
وفي محاولات مستمرة للتأكيد على فرديته

(*) ليست كلمة العبث بخير ترجمة لتعبير Absurd الا أنها أقرب الى معنى الكلمة بالفرنسية والانكليزية من تعبير اللامعقول .

واختلافه عن الآخرين . والملك اوبو ، التي أثنى عليها مالارميه واعتبرها الشاعر والكاتب المسرحي الايرلندي وليام بتلر ييتس بداية طريق جديدة في المسرح ، نسيت لسنوات طويلة بعد تمثيلها عام ١٨٩٦ الى أن اشاد بها وبكاتبها انتونين ارتو الذي اسس عام ١٩٢٧ مسرحاً اسماه مسرح الفردجاري والذي أصدر عام ١٩٣٨ كتاباً عن المسرح ترك صدى كبيراً . الا أن جاري مع ذلك لم يلق اهتماماً كبيراً من النقاد حتى اوائل الخمسينات من هذا القرن حين ظهر لهم وجود تشابه كبير بين مسرحياته ومسرحيات يونيسكو وبيكيت وجينيه وسواهم من كتاب مسرح العبث .

مسرحية الملك اوبو تبدأ بكلمة من النوع الذي اصبح مألوفاً في المسرح الحديث ، الا أنها نزلت نزول الصاعقة على رواد المسرح في أواخر القرن الماضي بل ان العاصفة التي تلتها اوقفت التمثيل لمدة خمس عشرة دقيقة بعد النطق بتلك الكلمة . الملك اوبو كمكبث رجل تغريه زوجته بقتل ملك بولونيا ليحتل مكانه . ومتى انتهى اوبو من قتل الملك يلتفت الى القضاة والنبلاء وكبار الموظفين فيقضي عليهم ثم يلتفت الى الشعب فيقتل منه المئات في سبيل جمع اموالهم في جيبه ومتى فرغ من قتل خصومه انطلق يحارب قيصر روسيا الا انه يهزم ويضطر الى الهرب في سفينة تقله الى فرنسا . وليس ذكر فرنسا او بولونيا بذي قيمة فليس للمسرحية في الواقع جو مكاني معين .

في الملك اوبو – بطل المسرحية – تتمثل صفات الحيوان في الانسان، من قسوة ووحشية الى قذارة وحقارة . وهو صورة لكل ماهو شر في الانسان ، وفي نفس الوقت صورة كاريكاتورية للانسان البورجوازي الاناني الغبي . والواقع ان جاري كان ثائراً على هذه الصفات كلها وما الافتتاح الا تعبير عن ثورة تعجز لغة المسرح التقليدية المؤدبة عن الافصاح عنها وتعبير عن شعور بالشر الذي يحيط بالعالم ويخيم عليه وعلى قوى الشر التي التي تسيطر على الانسان كلياً . وسيطرة قوى الشر على الانسان تهيمن على مسرحيات جاري الاخرى التي يظهر فيها اوبو ايضاً مثل (أوبو المخدوع) Ubu Cocu او (أوبو في الاغلال) .

ويمكن ان نقول بان مسرحيات جاري جميعها تعبر عن ثورة على حال الانسان في كل مظاهرها . بل ان جاري جعل من الثورة تبريراً لوجوده وهدفاً لحياته . فكان كأوبو في مسرحيته اوبو في الاغلال يفضل ان يكون عبداً في بلاد الاحرار كي لا يكون كالآخرين . وليست دعوته الى الباتا فيزيك او علم الحلول الخيالية الا تعبيراً عن ايمانه بعبث الفكر ولا جدواه . فالعقل والمنطق والاكتشافات العلمية لم تستطع أن توصله الا الى نقطة معينة

من المعرفة يقف الفكر والعقل بعدها مشلولاً . وما دامت تلك النقطة ، فهم الموت ، هي ذات الاهمية الكبرى ، فالتفكير يهزم نفسه ، بل هو في النهاية مضحك ، وهنا لابد من اللجوء الى الباتا فيزيك الذي يسخر المنطق اوصول الى نتائج غير ذات معنى .

ولم تقتصر ثورة اوبو على لغـــة المسرح ومواضيعها التقليدية بل تعدت ذلك الى طرق الاخراج والتمثيل فنادى مثلا بالتخلي عن الواقعية في زمن كانت الواقعية فيه في اوجها . ونادى أيضاً بالعودة الى التقاليد المسرحية الصرفة وأراد ان يرتدي الممثلون في مسرحياته الأقنعة وان يبقي الديكور واحداً لايتغير وان يستعاض عن الجماهير بممثـــل واحد وان يستعان بلافتات تعرض على الجمهور لاعطائه فكرة عن المكان والزمان والح على ان لاتقتصر الملابس على لون محلي .

ولقد بنى انطونين ارتو نظرية شاملة عن المسرح اعتمد فيهـــا كثيراً من أفكار جاري واكد فيها أن وظيفـــة المسرح هو التعبير عن الثورة على حال الانسان وعن شلله في عالم معاد له ، ولم يكن ارتو كاتباً مسرحياً بل ناقداً وركناً من اركان المدرســـة السريالية يعرف أكثر مايعرف بكتابه Le Theatre et son Double .

ان مصيبة المسرح في رأي ارتو هي الثقافة ويعني بالثقافة تلك القشور الحضارية المفروضة على الطبيعة . فما دام الفن هو الحقيقة والبحث عن الحقيقة فعليه ان يسعى اليها خلف تلك القشور ، في جوهر الانسان ، في احساساته ومشاعره الغريزية . والانسان في جوهره همجي بربري وعلى الكاتب المسرحي ان يسعى للوصول الى هذا الجوهر البربري عن طريق هدم تلك الجدران السميكة من الثقافة ومن تقاليد السلوك الاجتماعي المكتسبة وعن طريق التركيز على تلك المشاعر اللاعقلانية لدى الانســـان وعلى رغباته الغريزية وتقديمه عارياً كأوبو ممثل الشر او الشر بلا قشور .

على المسرح اذن ان يقوم بمهمتين ، اولا ان يحطم القشور والقـيم الموروثة المصطنعة وثانيا ان يستكشف ويعرض حقيقة الانسان . ولكن لابـــد للاطاحة بهذه القشور من التخلي عن الحوار كعنصر اساسي من عناصر المسرح . فالحوار ليس مسرحيا بل لامكان له على خشبة المسرح ، وهذا مرتبط برأي آخر لآرتو هو انه يجب على المخرج لا ان يسعى الى تقريب العمـــل المسرحي من اذهان المتفرجين بالاستعانة بالديكور والاضواء والملابس وغيرها بل ان يجعله صعب الفهم كي تصبح المسرحية اقرب الى مشاعر المشاهد الغريزية . ويوضح آرتو وجهة نظره بقوله بأنه منذ ان انحدر المسرح من طقس

عفوي الى شكل فني، اصبحت كل عناصره تحتل مكانا ثانويا بالنسبة للحوار ، وكأن المسرح وسيلة للتعبير عن الافكار، فلا نعبر عنها ونقرؤها في رواية او قصة او مقالة ؟ يقول آرتو : لا ، بل على العمل الدرامي ان يكون مسرحياً ، والحوار ادبي وليس مسرحياً ، وبالتالي علينا ان نضعه في مكانه الحقيقي وان نلح على تلك العناصر في الدراما ذات الصبغة المسرحيـــة الصرفة . وبكلمة اخرى علينا ان نهدم الاسس التي بني عليها المسرح الحالي وان نعيد بناءه في شكله ووسائله وأساليبه . علينا ان نعود به الى الاصل ليعود كما كان وسيلة يعبر بها الانسان عن رغباته اللاشعورية، عن رغباته الغريزية ، وعن جوهر وجوده الغامض اللاعقلاني . والنتيجة الطبيعية لهذا هي أن يكون المسرح عفويا يؤلف فيه الجمهور جزءاً من الممثلين كما في حلقات الدراويش والطقوس البدائية .

وفي مقال تحت عنوان « لاروائع بعد اليوم » يقول آرتو بأن لامجال للقول بأن العمل المسرحي يمكن ان يبقى صالحا لكل زمان ومكان . فحتى لوبقي كذلك موضوعا فلا يمكن له ان يبقى كذلك شكلا . فالملك اوديب مثلا تعالج كل مايريد آرتو من المسرح ان يعالجه ، فيها نجد قسوة القوى المسيرة للانسان وعنف الطبيعـــة والانسان وتحدي المبادىء العامة الا ان لغتها وبناءها « لايمكن ان تهز جمهورا اعتاد تدهور القطارات وتآلف مع الزلازل والكوارث والامراض والحروب » . ان مثل هذا الجمهور ، كما يقول آرتو ، يطلب ان تنقل اليه هذه المشاعر بلغته هو وليس بلغة مضت وانقضت .

ولا يهتم آرتو بالشكل بل ليس للشكل عنده اية اهمية فالمهم هو الموضوع وطريقة الاخراج . وهنا يبرز الوجه العملي لآرتو فالعمل الجيد هو العمل المسرحي الذي يسخر الاضواء والحركات والموسيقى والرقص في سبيل خلق مايسميه بشعر المكان اما شعر الكلام فمكانه خارج المسرح . ولا يعني هذا انه يدعو الى مسرح ايمائي بل انه يسمح باللجوء الى الحوار شريطة ان لاتكون غايته نقل الافكار بل خلق جو من المشاعر .

وهكذا تصبح الكلمات مجرد اصوات ، وكأنه يقول هنـــا مايقوله الاستاذ في مسرحية يونسكو « الدرس » : « ان الكلمات المحملة معنى تسقط مثقلة بمعانيها وفي النهاية تنهار لتقع على آذان صماء » .

نادى آرتو اذن بمسرح متحرر من كل القشور التي علقت به على مر العصور ، مسرح يحاول ان يعرض الى حال الانسان مجردا من كل القشور الـــتي علقت به على مر العصور ، مسرح لايعتمد لاعلم النفس ولاعلم الاجتماع لخلق شخصياته بـــل يقدمها وقد

جردت من كل الظروف المحيطة بها فهنا انسان ينتظر وهناك آخر يموت وآخر يثور على الموت وثالث يحلم وآخر سجين أوهام وآخر خائف مرتعد .

ماهو مدى تأثر صامويل بكيت أو يوجين يونسكو او آرتور أداموف اوجان جينيه اوهارولد بنتر بنظريات آرتو ؟ سؤال لابد للجواب عليه من بحث دقيق ودراسات طويلة . المهم في الأمر ان اعمال هؤلاء تعكس كثيرا من نظريات آرتو ولا بد من الالتفات اليها الآن .

لعل « في انتظار غودو » - للكاتب الايرلندي صامويل بيكيت - أكثر مسرحيات مسرح العبث شهرة . كتبها مؤلفها بالفرنسية عام ١٩٥٢ وأخرجت اول مرة عام ١٩٥٣ . لاتقص المسرحية قصة بل ان شيئاً لايحدث في فصليها الاثنين . تنتهي حيث تبدأ . لايأتي فيها احد ولا يذهب فيها احد .

استراغون وفلاديمير متشردان يجلسان على حافة طريق ريفي بجوار شجرة ينتظران غودو الذي يعتقدان أنها على موعد معه، كلاهما يفكر في ترك الاخر ولا يفعل . يتحدثان عن اشياء كثيرة ، استراغون عن حذائه الذي يؤلمه وفلاديمير عن اللصين الذين صلبا مع السيد المسيح وعن خلاص احدهما ولعنة الاخر ويفكر الاثنان بالمضي ولكنهما يتذكران موعدهما مع غودو .

استراغون : دعنا نذهب

فلاديمير - لانستطيع

— ولم ؟

— اننا في انتظار غودو

— اوه ، أأنت متأكد ؟...

— ماذا ؟

— من المكان ؟

— قال قرب الشجرة (ينظران الى الشجرة) . أترى أخرى ؟

— ماهي ؟

— لا أدري . صفصافة .

— لا بد أنها ميتة ولا بد .

– لا بكاء بعد اليوم

– او ربما لم يكن الموسم موسمها

– انها تبدو شجيرة

– شجرة صغيرة

– شجيرة

– ماذا تريد ان تقول : إننا لم نأت إلى المكان الصحيح ؟

– انه لا بد قادم

– لم يؤكد لنا أنه سيأتي

– وان لم يأت ؟

– سنعود غداً

– ثم بعد غد

– لربما

– وهكذا

ويستمران في حديثهما ويفكران بشنق نفسيهما ثم يقرران ان يستشيرا غودو في الأمر. وبعد فترة يلمحان شخصاً قادماً ويظنان انه غودو ولكنه (بوزو) يجر (ولكي) بحبل ربط حول عنقه. وكما يكمل بوزوو، لكي احدهما الآخر – فأحدهما الجسد والآخر العقل – فان فلاديمير واستراغون يكمل احـــدهما الآخر . ففلاديمير عملي واستراغون شاعري . وهذا يكره ماينظر اليه وذاك يحب مايعتاد عليه . فلاديمير صبور مثابر ، استراغون عصبي نزق . فلاديمير واقعي ،استراغون حالم . وكلاهما ينتظر. وينتهي الفصل الاول وهما يتحاوران : **انترك احدنا الآخر ؟**

– لقد فات الاوان (صمت)

– نعم لقد فات الاوان (صمت)

– فلنذهب

– نعم لنذهب

(ولا يتحركان)

ونجدهما في نفس المكان في اليوم التالي يتحدثان :

استراغون ـ **قد يكون من الخير ان نفترق**

فلادمير — انت تقول هذا دائماً ولكنك دوماً تعود زاحفاً

ـ **افضل شيء هو ان تقتلني كما فعل الآخر**

ـ أي آخر (صمت) اي آخر ؟

ـ **كبلايين الآخرين**

ـ كل يحمل صليبه ـ الى حين موته ـ ثم ينسى

ـ **فلنمض الوقت في حديث هادىء مادمنا عاجزين عن الصمت**

فلادمير ـ انت على حق فنحن لاينضب لنا معين

ـ **ولن نفكر**

ـ هذا عذرنا

ـ **ولن نسمع**

ـ لدينا اسبابنا

ـ **كل الاصوات الميتة**

ـ تصدر صوتاً كالاجنحة

ـ **كأوراق الشجر**

ـ كالرمال

ـ **كأوراق الشجر**

(صمت)

ـ انها تتكلم مع بعضها

ـ **كل مع نفسه**

ـ بل تهمس

ـ **تحف**

ـ تتمتم

ـ **تحف**

(صمت)

– ماذا تقول ؟

– تتحدث عن حياتها

– الا يكفيها ان عاشت ؟

– انها تتحدث عن ذلك

– لايكفيها ان ماتت ؟

– لايكفيها

(صمت)

– تصدر صوتاً كالريش

– كأوراق الشجر

– كالرماد

– كأوراق الشجر

(صمت طويل)

– قل شيئاً

– اني احاول

(صمت طويل)

– قل اي شيء

– ماذا نفعل الآن ؟

– ننتظر غودو

– هه ..

(صمت)

– هذا مخيف

– غن

– (مفكراً) لا لا . ربما استطعنا ان نبدأ من جديد.
وينتهي الفصل الثاني كما انتهى الفصل الاول .

– لنذهب .

– نعم لنذهب

كثيرة هي التفسيرات التي وجدت لهذه المسرحية وكثيرون الذين هاجوها وصفها، لوكاني بأنها بؤرة من الانحطاط الانساني، وعلق عليها بوتامي دوبري مؤرخ الادب والاستاذ الشهير ، بقوله « لقد آن لنا ان نؤكد بأن كل مايمكن ان نسميه فنا يجب ان يتضمن ثناء على الحياة أو ان يدعو الى قبولها على الاقل » .

وتعدد التفسيرات فمن قائل بأن غودو هو الله وآخر بأن مسرحية بلزاك « Mercadet » هي مصدر اسم الشخصية المنتظرة ، وهناك من جادل بأن في انتظار غودو تعبير عن رفقة الانسان للانسان ، سواء أكان هذا الانسان متشرداً ام غنيا . وان رفقة الانسان لأخيه هي العزاء الوحيد الذي بقي له في هذا العالم وهي البديل للمنقذ الذي لايأتي. ولما كانت (في انتظار غودو)أرضاً خصبة للباحث عن الرموز فقد اخذت الاشارات الكثيرة الى الله والانجيل على انها تعبير عن شعور ديني عميق . بل ان ناقداً امريكياً مرموقاً يقول بأن الشجرة التي تورق في الفصل الثاني هي رمز الصليب والحياة وبأن الله موجود في الفصل الثاني الا ان الانسان لايراه . ويجد ناقد آخر في الشجرة رمزاً لشجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر شجرة الحياة ، شجرة يهوذا . وهنالك من يقول بأن (في انتظار غودو)مرتبطة بحياة مؤلفها، فبوزو هو جيمس جويس مؤلف يوليسيس الذي عمل بيكيت سكرتيرا له . بل حتى (هام) في (نهاية اللعبة) ماهو في رأي البعض الا جويس يهجو نفسه،وهكذا .

ولسنا نجد لدى بكيت نفسه تفسيرا لمسرحيته ،فقد اجاب حين سئل عما يعنيه فيها بقوله « لو كنت اعرف لذكرت ذلك في المسرحية » ولكن هذا لايعفينا من البحث عن معنى لها ونقطة انطلاقنا في مثل هذا البحث يجب ان تكون ان لاأهمية لغودو فهو ليس موضوع المسرحية . موضوع انتظار غودو هو الانتظار الذي يشكل جزءا من حال الانسان وحياته . ان الانتظار يؤدي الى الشعور بعمل الزمن ، الزمن الدائم التغير. ولكن اذ ان شيئاً لايحدث فان هذا التغيير لايعدو كونه تصورا بل وهما وبالتالي فان حركة الزمن غير ذات معنى او غاية فكلما تغيرت الاشياء كلما بقيت على حالها وهذا هو استقرار العالم المخيف الذي يعبر عنه بوزو بقوله « ان كمية الدموع في هذا العالم واحدة لاتتغير فحينما يبدأ انسان بالبكاء يتوقف آخر عنه » والايام كلها سواء وحين نموت فكأننا لم نوجد. وبوزو ايضاً يعبر عن هذه الفكرة :

ـ اما فرغت من تعذيبي بالزمن ، بالزمن اللعين ؟ انه مخيف ،متى؟متى؟

الا يكفيك يوم واحد وكل يوم كسواه ؟ في يوم اصيبت بالخرس. وفي يوم اصبت بالعمى . وفي يوم سنصاب بالطرش . وفي يوم ولدنا وفي يوم سنموت، نفس اليوم ،نفس الثانية . الا يكفيك كل هذا (بهدوء) انهن يلدن فوق قبر ولبرهة يشع النور ثم يخيم الظلام .

ومع ذلك فان فلاديمير واستراغون يأملان وينتظران غودو الذي سيخلصهما من حركة الزمن ويوفر لهما الهدوء والاستقرار خارجه . ولكن مسألة هامة تشغلهما في انتظارهما، لقد حصل احد اللذين صلبا مع المسيح على الخلاص وهذه نسبة معقولة كما يقول فلاديمير ولكنه يتساءل كيف ان واحداً فقط من الحواريين الاربعة الذين شهدوا الصلب يذكر بأن الخلاص كان لواحد ، فالنسبة اذن ليست معقولة كما ذكر سابقاً بل هي تتضاءل وفرص الخلاص تقل .

من ملايين المجرمين قدر لاثنين ان يكون لهما الحساب يوم موتهما ، صدف ان نطق احدهما بعبارة معادية فلعن وعارضه الآخر فبورك . كم هو سهل تبادل الادوار . وهكذا فالصدفة وحدها القرار الفصل وبوزو يعرف ذلك فهو يقول مشيراً للكي **« كان من الممكن ان أكون مكانه »**. ليس من يقين اذن ولا يمكن التنبؤ بعمل احد، حتى غودو فهو يعامل صبيه الذي يرعى الماعز معاملة حسنة أما ذاك الذي يرعى الخراف فليس له سوى الضرب والتعذيب .

ان كون موضوع المسرحية هو الأمل والرغبة في الخلاص لايعني انها دينية الفلسفة والغاية ، ولقد اصطدمت كل محاولات البرهنة على وجود روح دينية فيها بأن غودو شخص غير متزن ولاعقلاني التصرف وبوجود اشارات كثيرة الى عدم جدوى انتظاره وعبث تعليق الآمال على قدومه . ولكن اذا كان الانتظار غير ذي فائدة او جـــدوى فهل من بديل .؟أجل، الانتحار الذي يتحدث عنه فلاديمير واستراغون دون ان يقدما عليه وليس الانتظار سوى عادة تمنعنا من الوصول الى حقيقة الوجود المؤلمة **« العالم مليء بصرخاتنا »** كما يقول فلاديمير ، ولكن العادة تخرسها . كذلك فقد يكون الأمل في الخلاص مجرد محاولة للهرب من العذاب الناتج عن مواجهة واقع الانسان، كالحديث الذي لايتوقف عنه لا استراغون ولا فلاديمير ليمنعهما من التفكير .

مادام معنى العمل الفني ملتصقاً بشكله، فعلينا ان لانبحث عن معنى في انتظار غودو خارج المسرحية ،وان نعترف بأن غموضها هو جزء من معناها وانها صورة ضبابية لعالم ضبابي

غامض لايقين فيه ولامنطق . وفشل محاولات البحث عن معنى معين لمسرحيات بيكيت خاصة ومسرحيات العبث عامة هو النتيجة الحتمية لدراستها ليس بمقاييسها هي بل بمقاييس المسرح التقليدي التي تفترض وجود حوادث وشخصيات وحبكة وحوار يمكن تحليلها واكتشاف علاقاتها . إن محاولة تحليل الحوادث في مسرحية لايحدث فيها شيء ضرب من العبث ، كما هي محاولة البحث عن عقدة او تطور في الشخصيات الى ماهنالك مما الفناه في المسرح التقليدي .

ان مسرحيات بيكيت خاصة ويونسكو وبينتر وآداموف عامة لاتحكي قصة بل تقدم صوراً عديدة تشكل في النهاية العمل المسرحي كما هو الحال في السمفونية التي تتألف من أجزاء مترابطة متداخلة . ان مسرح العبث هو مسرح الموقف لامسرح الحوادث والعقد ، انه يقدم صورة تعبر عن موقف من المواقف التي يجد الانسان نفسه فيها في هذه الحياة . ماذا حدث في غودو سوى ان فلاديمير واستراغون ينتظران؟ وفي مسرحية بيكيت الأخرى « الأيام السعيدة » سوى ان الرمال تغمر جزءاً بعد جزء من ويني؟ وفي مسرحية (الملك يموت) سوى ان إنسانا يموت . ثم ان مايؤكد عدم اهمية الحدوث هو وجود عدد من المسرحيات تنتهي كما تبدأ ، (في انتظار غودو) إحداها و (المغنية الصلعاء) ليونسكو أخرى.

مسرح العبث اذن يعرض صورة وموقفاً ، لا حوادث وشخصيات تتصارع . والصورة التي يقدمها تمتاز بالشمول أو الاحساس الشامل بالوجود ، وهذا في حد ذاته محاولة لعرض صورة حقيقية للواقع من خلال احساس الفرد به . وهـــذا البحث عن الشمول ، عن الحقيقة الكامنة وراء المظاهر ، هو ضرب من البحث عن ماهو مقدس . يقول آداموف : ان ازمة عالمنا اليوم هي ازمة دينية فالمشكلة مشكلة حياة او موت ، ومع ذلك فان الإله قد مات وفكرة الإله مضت وانقضت وأنا منفصل عن شيء كان يسمى في الماضي إلها أما اليوم فلا اسم له . ومع ذلك فلابد للإنسان من أن يهرب من الخوف الذي يتملكه ، أن يهرب من الوحش الذي يتهدده ، من ذلك الرعب الذي يسيطر على داخله وخارجه . ولكن الى اين نهرب ؟ ولا يجد آدموف مهرباً سوى الاحلام والصلوات . في الاحلام او حركة الروح الصامتـــة في الليل ، وفي الصلاة التي تلبي حاجة الانسان الى اللجوء الى ماينقذه . ولكن لم نصلي ؟يقول آدموف : علينا أن لا نتفوه بلفظ الإله إذ لم تعد هذه الكلمة – كسواها من الكلمات تحمل معنى . إن استعمالنا لكلمة الله لايدل على الكسل فقط بل على رفض التفكير ، وهكذا فان ازمة الاديان هي ازمة اللغة ايضاً . إن الكلمات في لغتنا المريضة هي كالافراد المرضى ، منها ماقد تكتب له الحياة ومنها مالا أمل له .

إن انحطاط اللغة تعبير عن مرضــا ناتج عن ضياع ماهو مقدس ، عن فقدان الشعور بحكمة أساطير وطقوس عالم قديم مضى . فقدان المعنى في هذا العالم ، كما يقول آدموف ، مرتبط بانحطاط اللغة وكلاهما يعود الى فقدان الايمان والى اختفاء تلك الاساطير . ولكن من يدري لربما كان هذا الانحطاط واليأس خطوة نحو الجديد . يقول آداموف : « إن هذه اللغة البائسة الفارغة التي ينطق بها الإنسان اليوم قد يكون لهـا صدى في نفس إنسان وحيد يستيقظ ليكتشف بأنه لايفهم ، فيفهم » .

ولقد كان يوجين يونسكو هذا الإنسان ، فقد اكتشف ذات يوم وهو يدرس الإنكيليزية أن الاسبوع سبعة أيام وأن أرض الغرفة تحته والسقف فوقه وظهرت في الكتاب شخصيتان مستر سميث ومسز سميث وأخذت هذه تخبر زوجها بأنهما رزقا بعدة أولاد وبأنه موظف وأن اسم خادمتها ماري ويستغرب يونسكو هذا : ألا يعرف المستر سميث هذه الحقائق ؟ولكن قد يكون من الخير أن نحدث الآخرين عن اشياء ربما نسوها أو لم يدركوها رغم بديهيتها .

ويجد يونسكو أن في حوار المستر والمسز سميث والمستر والمسز مارتن اللذين يزورانها مادة مسرحية جيدة فبدأ يكتب ، إلا أن النص كان يتحول رغماً عنه كما يقول . كانت الجمل البسيطة الواضحة تتحرك وتتغير معانيها وتختلط فتتحول القول بأن الاسبوع مؤلف من سبعة أيام الى القول بان الاسبوع مؤلف من ثلاثة فقط . وهكذا اصبحت اللغــة مبتورة والشخصيات مفككة والحديث غير ذي معنى وغير معقول وبدا الأمر ، يقول يونسكو ، وكأن الواقع قد انهار والكلمات فقدت معانيها والشخصيات فرغت من اهتماماتها النفسية وبدا العالم في ضوء غريب ربما كان هو ضوؤه الحق » . وحين فرغ يونسكو من كتابة (المغنية الصلعاء) شعر بأنه قد كتب مايمكن تسميته بمأساة اللغة.

ومأساة اللغة هي في الواقع موضوع المغنية الصلعاء الاول والاخير فهي مسرحية تقال فيها كلمات كثيرة دون أن يقال فيها شيء . فلا علاقة لما يقوله المستر سميث بما تقوله المسز سميث ولا لما يقوله المستر مارتن بما تقوله المسز مارتن . كل في واد ، والتنـــاقض يسيطر على حوار الجميع وليس لما يقوله أي منهم أي معنى . وذلك شيء طبيعي كما يقول يونسكو ، فما دام النظام المنطقي العقلي في حياة الناس قد انهار فان اللغة - وهي وسيلة التفاهم المستندة الى هذا النظام - قد انهارت ايضاً . وما دام هذا الوجود قائماً على العبث فان لغة هذا الوجود هي ايضاً مظهر من مظاهر العبث .

وهكذا يكفي الكاتب المسرحي أن يقدم حواراً لاتسلسل منطقي فيه ، لايستند الى

فكرة أو عقل ، ليدل على خواء شخصياته وعالمهم . والاكثار من المسلمات والكليشيهات الفارغة هي احدى وسائل يونسكو في هذا المجال وخاصة في معرض هجائه للبورجوازية التي يرى في اهتمامها بالواقع المادي دون التفات الى ما يعتمل في داخل نفس الانسان من غرائز وعواطف — وهي مما ألح عليه آرتو — ضرب من الرياء والنفاق . في حديثه عن (المغنية الصلعاء) يقول يونسكو بأنه قد اكتشف « السر في أن يتحدث المرء ولا يقول شيئاً ... لأنه يفتقر الى أي شيء شخصي يقوله في ظل فقدان كل حياة داخلية ، في ظل الخواء الروحي المتسم بالميكانيكية في النظام الذي تسير عليه الحياة اليومية . فالانسان قد انضوى بكليتـــه في اطاره الاجتماعي واستحال تمييزه عنه . فآل سميث وآل مارتين قد نسوا كيف يفكرون لأنهم نسوا معنى الانفعال ، ولأنهم خلوا من العواطف . لقد نسوا كيف يكونون ومن ثم فهم يستطيعون ان يصبحوا أي نوع من الناس او أي نوع من الاشياء . فطالما انهم ليسوا كائنين في ذواتهم فهم ليسوا الا اناساً آخرين . انهم ينتمون الى دنيا تجردت من ذاتيا ،إنهم يتبادلون وجودهم مع غيرهم من الناس » .

حين يفقد الانسان وجوده الداخلي ويحيط به القشور التي أراد آرتو للمسرح ان يطيح بها تصبح اللغة مجرد قشور ، مجرد كليشيهات تافهة معادة ، ولابد من تحطيم هذه القشور لنصل الى جوهر اللغة . والسبيل الى تحطيمها هو اظهار سخفها وتفاهتها وهذا هو غرض يونسكو في (المغنية الصلعاء) .

الا ان هذا لايعني الاعتراف بوجود معان نهائية في هذا الوجود ،فجميع كتاب مسرح العبث يتفقون على ألا سبيل للتوصل الى هذه المعاني وعلى أن اللغة تبقى قاصرة عن التعبير . فما دام اليقين مفقوداً ، وهذا موضوع (في انتظار غودو) الرئيسي كما قلنا ، فلا يمكن ان يكون هنالك معان نهائية، وما مسرحية بيكيت الا تعبير عن محدودية اللغة كوسيلة للتفاهم وكوسطة للتعبير عن الافكار .

ولقد وجد بعضهم في كتابة بيكيت ويونسكو وسواهما المسرحيات ما يناقض ايمانهم بأن اللغة قاصرة عن التعبير .إلا ان مسرحيات بيكيت مثلا ترينا انه لايعتمد اللغة وسيلة للتعبير ففي (غودو) مثلا لاحاجة للمشاهد بأن يعير الكلمات أي اهتمام اذ ان ما تفعله شخصياته كثيراً ما يناقض ما تقوله :

— لنذهب

— نعم لنذهب .

(ولا يتحركان) .

ومن هنا طبيعة الحوار الذي ينقطع بين حين وآخر اما بسبب فقدان معنى الكلمات أو نسيان الشخصيات ما قيل لها قبل لحظات . وكما يقول (هام) في نهاية اللعبة : « في عالم فقد معناه وغايته يصبح الحوار كأي فعل آخر مجرد لعبة نلعبها لنمضي الوقت » . الكلمات قاصرة ، الحوار لعبـــة ، المسليات قشور ، ثم ماذا ؟ ثم الصمت . وهكذا نجد ان الخطيب في (الكراسي) ، مسرحية يونسكو ، اصم ابكم . وفي جاك او الخضوع في يدعي جميع شخصياتها اما روبرت او جاك نسمع روبرت يعلن ان كل الكلمات سواء .

روبرت : كل شيء في الطابق الأرضي من منزلي الريفي يدعى بوسي .

جـاك : كل شيء يدعى بوسي ؟

روبرت : ... القطط بوسي . الطعام بوسي . الحشرات بوسي . الكراسي بوسي .

وانت بوسي وانا بوسي ... ان هذا يجعل الحديث سهلا للغاية .

ويخضع جاك الثائر لكل شيء : اولا لمقاييس عائلته ومن ثم لغرائزه الجنسية حين يتزوج روبرت ذات الثلاثة الانوف ، كما يخضع ستانلي في مسرحية هارولدبينتر ، حفلة عيد الميلاد ، الى ضغط مبعوثي العالم البورجوازي .

لاأعرف حركة مسرحية لقيت من الهجوم والتقريع مالقيته حركة العبث - ولا أقول مدرسة العبث - فليس من مدرسة ينضوي تحت لوائها كتاب هذا اللون بشكل شعوري . مسرح العبث سلبي ، مسرح العبث محطم للانسان وقيم الإنسان . مسرح العبث يعري الانسان وينزل به الى درك الحيوان . مسرح العبث لايغني الحياة بل يفقرها ، مسرح العبث لايعرض لمشاكل الانسان اليومية . مسرح العبث غير ملتزم . مسرح العبث لايقدم حلولا . هذه بضع وجهات نظر حول مسرحيات بكيت ويونسكو وسواهما ابديت بعضها من نقاد كبار ونتيجة لهذه الاراء نجد عددا كبيرا من الناس يعتبر مسرح العبث عبثا ، بل ظاهرة مرضية على علم النفس تحليلها . ولقد قام الدكتور عمر شاهين بتحليل هذه الظاهرة « الظاهرة المرضية » في مقال نشره في مجلة المجلة العدد ٧٨ خلص فيه الى القول :

« من كل ماتقدم نستطيع ان نسهل الامر على مرتادي هذا النوع من الفن فـــا عليهم الا ان يتصوروا مجموعة من الذهانيين المرضى ثم يدعوهم يتحاورون ويتصرفون كل كما تؤهله طبيعة مرضه العقلي او الجسمي ودون ارتباط من أحدهم بالآخر .

وكلما اوغلت شخصيـــاتهم في مراتب المرض او الجنون زادت الاصالة في انتاج

اللامعقول . ولايقلق المرتاد فكرة ما اذا كان الناس سيحكمون له او عليه ، فان من الناس من سيحاول جعلها معركة بينه وبين الفهم يريد فيها ان يتغلب وان يسيطر فيفهم مايشاء على هواه ومنهم من ستسيطر عليه دوافع الاستكانة فينبهر بما لايفهم ويصور له انبهاره انه لم يفهم لان في الموضوع صعوبة تدل على ارتفاع القيمة فينساق لما يوحى اليه مهللامكبرا».

ثم يتساءل الكاتب :

« اننا نسأل انفسنا بعد هذا التصوير عما يفعله اللامعقول في مجتمعنا ونحن نضع في الحساب التأثير العميق للفنون على المجتمع : ان اللامعقول يهدم القواعد والقوانين ، حتى قوانين الواقع والتقدم الانساني ... انه يزعزع ثقة الناس فلا ماض ولا حاضر ولامستقبل ولا خير ولا شر ولا امان اذ لاحتميــة ولا منطق وتكون النتيجة انتشار القلق والخوف ... انه يجعل محور التفكير الشخصي ذاته دون اهتمام ببقية الجماعة . انه يهتم باللغة كنغمة لا كوظيفة ، وهل يختلف الانسان عن الحيوان اذا كانت لغته اصواتا لامعنى لها ؟... ومجتمعنا الذي يقوم على الاشتراكية يجعــل محور تفكير الانسان مصلحة الجماعة ... ان المجتمع الاشتراكي يرفع دوما شعار اللغة والفن للحياة ، واللامعقول يرفع شعار اللغة لمجرد اللغة بل لمجرد الرنين . وبينما يدعو المجتمع الاشتراكي الى تقوية النوازع الاجتماعية نرى مجتمع اللامعقول يدعو الى التفكك في الجملة الواحدة .

وينهي الدكتور شاهين مقاله بقوله :

« ونعود في النهاية الى كتب اللغة لنعلم ان العقل جنة وان العقول هي المعاقل وان المعقول وادبه هو الحصن الذي نلتمس فيه الايزيغ العقل والا يضطرب المجتمع » .

مقالة الدكتور شاهين مثال لمدى امكانية عدم فهم مسرح العبث ، فهو يخلص إلى ان هذا المسرح يدعو الى تحطيم اللغة بل الى التفكك حتى في الجملة الواحدة والى انــــه يرفع شعار اللغة لمجرد اللغة والرنين والى انه لايعبر مصلحة الجماعة اي اهتمام والى انه يهدم القواعد والقوانين . ان السبب في توصل الدكتور شاهين وسواه الى مثل هذه النتائج هو خلطهم بين الوسائل والغايات وتقويمهم لمسرح العبث بمقاييس المسرح التقليدي .

ان بيكيت ويونسكو لايقولان بهدم اللغة لمجرد هدم اللغة بل لاعـــادة بنائها ، وهما لايهدمان القواعد والمقاييس والقوانين بل يحاولان اظهارها على حقيقتها .

الا أن كلاً منا قد اعتاد اللغة التي ينطق بها والاشياء التي تحيط بها لذلك فهو غير مدرك لقصورها او سخفها ، والسبيل الى جعله يدرك ذلك هو في تجســـيم هذا القصور والسخف .

في القرن الثامن عشر كتب جوناثان سويفت كتابه الشهير رحلات غليفر الذي عرفناه في طفولتنا واعجبنا به والذي لا أشك في ان الكثيرين يقدمونه لابنائهم اليوم . هذا الكتاب بالذات اثار غضب الروائي الانكليزي ثاكري في منتصف القرن الماضي . فنصح الناس بعدم قراءته ، لانه على حد تعبير ثاكري ، انما يصف وضاعة الانسان وحقارته ولانه حقير بذيء في لغته ، قذر في افكاره دنيء في صوره .

لست أرى فرقاً كبيراً في التكنيك والهدف بين سويفت وكتاب مسرح العبث . أراد سويفت ان يجعلنا نشعر بقصورنا ومحدوديتنا فوضع مثلاً عنا في بلاد الاقزام ثم في بلاد العمالقة وجعلنا نرى هذا الانسان تارة بأعين الاقزام وتارة بأعين العمالقة ، ثم نقل سويفت هذا الانسان الى بلاد الانسان فيها هو الوحش والحصان هو الانسان . الانسان او (الياهو) قذر لاقدرة له على التفكير والحصان (الوينيم) نظيف يحب النظام ويعتمد العقل في كل امور حياته . لم تكن غاية سويفت أن يقول بأن انسان القرن الثامن عشر هو الياهو او ان عليه ان يصبح حصاناً مفكراً ، بل ان يرغم الفرد في بلاده على ان يرى مفاسده وعيوبه في ضوء صورة مكبرة عنها هي صورة الياهو . كان انسان القرن الثامن عشر في اوربا كأنسان القرن العشرين في الغرب اليوم فخوراً بمنجزات العلوم التي جلبت له الازدهار الاقتصادي معتداً بما يحققه عقله له معتمداً كل الاعتماد على هذا العقل مؤمناً به ايماناً شاملاً كاملاً ، فأتى سويفت لينقله في رحلة مع غليفر رحلة تنقله عبراً خلف القشور الحضارية التي اصبحت مبعث فخره تعريه وتكشف له حدوده وحدود عقله وعالمه تكشف له انه قزم تصعب رؤياه او عملاق صلب البشرة قبيح الشكل او وحش تسيره غرائزه الحيوانية . او ، بلغة مسرح العبث ، اوبو وحش ، خرتيت يهمهم ، متشرد ينتظر ، او روبرت بثلاثة انوف .

ان اختيار مسرح العبث للصورة المشوهة للانسان لاتحتم بالضرورة انها الانسان كما ان اختيار سويفت لياهو لاتعني ان الانسان ياهو . ان ابراز عيوب وضع ما عن طريق عرض صورة واقعية لهذا الوضع لايؤدي عادة او بالضرورة الى ادراك المتفرج لعيوب هذه الحالة اذ ان الانسان غالباً ما لايدرك ما اعتاد عليه او مايؤلف جزءاً من واقعه . لذلك ، ولكي لايربط المتفرج بينه وبين الموقف المعروض امامه والشخصيات المتصلة بهذا الموقف فلا ينظر اليها بعين النقد التي يريدها الكاتب ، يلجأ كاتب مسرحيات العبث الى مواقف وشخصيات يصعب فهمها وبالتالي يصعب ان نرى الامور من وجهة نظرها فنبقى خارجها . ولما كانت الشخصيات والمواقف التي لايرتبط المتفرج نفسه بها هي عادة

شخصيات كوميدية كما يقول اسلين، فان مسرح العبث مسرح كوميدي يثير الضحك كما تثيره رحلات غليفر وان كان يتعدى التقسيم التقليدي الى تراجيديا وكوميديا بجمعه بين الضحك والمأساة. وكثيراً مايسمى الضحك في مسرح العبث بالضحك المحرر لأن شخصياته اذ تضحكنا تجبرنا على النظر الى انفسنا وعالمنا وعلى مواجهة هذا العالم بعد ان رفع الضحك عنه الاقنعة والاوهـــام . وهكذا فكما كتب سويفت ليجعل الانسان يتعرف الى نفسه كذلك يكتب بيكيت ويونسكو وبنتر ليوقظوا الانسان من نومه وليطلعوه على واقعه. ثم هل تعكس نظرة كتاب العبث الى اللغة رغبة في تحطيمها وحسب .

لقد سنحت الفرصة لكتاب مسرح العبث للدفاع عن انفسهم بلسان يوجين يونسكو في ذلك الحوار الشهير الذي بـــدأه كنيث ثانيان في صيف عام ١٩٥٨ على صفحات الاوبزرفر اللندنية. اخذ ثانيان وهو الذي اشاد باعمال اوزبون ووايتغ وويسكر وكوبس، اخذ على يونسكو عدم اهتمامه الاجتماعي وعدم تقديمه الحلول لانسان اليوم . قـــال ثانيان « هذا كاتب يعلن ان الكلام غير ذي معنى وان التفاهم بين الناس مستحيل وان لا منطق ولا إيمان ، هذا كاتب لايلتزم الواقعية . ان هذه رؤياه الشخصية ولكن الخطر يكمن حين تصبح مسرحياته طريق مسرحيات المستقبل » .

ودافع يونسكو عن نفسه بقوله ان حملته على اللغة تعكس اهتماماً اجتماعياً فالتجديد في اللغة هو تجديد في المفاهيم ومن ثم تجديد في المجتمع ككل . ان الكتاب الملتزمين، كما يقول يونيسكو « إنما يحاولون تغيير القناع المأسوي للانسانية إما انا فأحاول ان اصل الى ماخلف هذا القناع .»

لقد اصبح مسرح العبث في السنوات القليلة الماضية موضوع كتب ومقـــالات عديدة ولاتستطيع مقالة واحدة أن توفي هذا المسرح او كتابه حقهم بل ان مالاتذكره هو اكثر بكثير مماتذكره . فبكيت ويونسكو وآدموف وبنتر ليسوا كتاب العبث الوحيدين في اوربة اليوم فهناك اوديبرتي وآرابال وهناك دينو بوزاتي وآتزيو دريكو ، وهناك غلبير وقارديو وغيلدرود وسيمبون وعشرات آخرون،منهم من يكتب بالفرنسية ومنهم من يكتب بالانكليزية او العربية .

لابد لكتب طويلة من الاحاطة باعمال هؤلاء .وان استطاعت مقالة كهذه ان تخلص الى التأكيد بأن مسرح العبث ليس ضرباً من العبث وان ماسمي بمسرح اللامعقول معقول، فقد حققت ماهدفت اليه (*) .

(*) ليس الخوف من العبث الصادر عن عقل بل من العبث الذي ليس وراءه سوى الاستمتاع بالهذيان والتشرد والتقليد الفردي . وهذا وباء انتشر في بيئتنا وليست في بيئتنا شروط بيئة الآخرين — المعرفة —

المصادر الثانوية

Welwarth, W. E. « Alfred Jarry : The Seed of the Avant-Gard Drama » in Criticism , Vol , N : 2 , Spring 1962

Esslin, Marin , The Theatre of the Absurd , London , 1962 Richards. N. Y. 1958

Coe, Richard , Ionesco , Edinburgh and London 1961

Taylor, J. R. , Anger and After , London , 1963

Welwarth , W. E. , The Theatre of Protest and Paradox , N. Y. 1964

د . عمر شاهين « الاسس النفسية لمسرح اللامعقول » في **المجلة** العدد ٧٨ يونيو ١٩٦٣

د . نعيم عطية « فن يونسكو في مسرحيته الاولى » في **المجلة** العدد ٨٨ ابريل ١٩٦٤

د . نعيم عطية « الخطوط العريضة في مسرح يونسكو » في **المسرح** تشرين الثاني ١٩٦٤ .

د . شفيق مجلي « الحوار في مسرح اللامعقول » في **المسرح** ايلول ١٩٦٥ .

مطبوعات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

التي تقوم بتوزيعها دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

قصة الارض في سورية	لمنير الشريف
المحكم في نقط المصاحف	لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني تحقيق الدكتور عزة حسن
برنامج شيوخ الرعيني	لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الاشبيلي تحقيق ابراهيم شبوح
ديوان ابن مقبل	تحقيق الدكتور عزة حسن
مقدمة في النحو	لخلف الاحمر تحقيق عز الدين التنوخي
تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب	لابن الفوطي تحقيق الدكتور مصطفى جواد (الجزء الرابع الأقسام ١-٢-٣)
إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى	لمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي تحقيق محمد احمد الدهمان
الأزمنة والانواء	لابن الاجدابي تحقيق الدكتور عزة حسن
قصة الجلاء عن سورية	
روضة الورد	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
روائع من الشعر الفارسي	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
دورة الربيع	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
محافظة السويداء	لشبلي العيسمي وحمود الشوفي وداوود نر
تاريخ المعرة	(جزءان) لسليم الجندي تحقيق عمر رضا كحالة
محافظة حماه	لمؤيد الكيلاني
حكاية جوقة التماثيل	لسعد الله ونوس
تحت سماء الاندلس	لزكي قنصل

الفن والأدب	للويس هورتيك
	ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم الرفاعي
أحاديث العشيات	للدكتور عبد السلام العجيلي
اتجاهات الفنون التشكيلية	لعفيف بهنسي
فن العرائس وتحريكها	لبوجو كوكوليا ترجمة نجاة قصاب حسن
الفولكلور الغنائي عند العرب	لنسيب الاختيار
محاضرات الموسم الثقافي	(الاجزاء ٤ - ٥ - ٦ - ٧)
الشمس الغاربة	لأسامو دازاي ترجمة فائز بشور
قال الراوي	لالياس فرحات
زهرة النار	لعبد الكريم الناعم
الموقع الستراتيجي العربي	لهيثم الكيلاني
شرح ديوان عروة بن الورد	تحقيق عبد المعين الملوحي
الاشتراكية في البلدان المتخلفة	لمحمد الجندي
مسرحية الحياة حلم	لكالديرون ترجمة نجاة قصاب حسن
اللاميتان	للشنفري والطغرائي
الأسطورة اليونانية	لفؤاد جرجي بربارة
حبات زمرد	لشفيق المعلوف
مسرحية البقة	لفلاديمير مايا كوفسكي ترجمة عماد حاتم
مئة قصيدة من روائع الشعر الحديث	ترجمة سليمان العيسى وناديا الياس
مسرحية سيدة الفجر	لاليخاندرو كاسونا ترجمة علي الاشقر
غوطة دمشق	لصفوح خير
العلم البارحة واليوم وغداً	اقتباس مارسيل داغر
كيف نكتب تاريخنا القومي	تحقيق مجلة « المعرفة »
الحمامات الدمشقية	لمنير كيال
ديوان الشاعر المدني	قيصر سليم الخوري

الفنان

- من مواليد دمشق
- درس الفن في كلية الفنون الجميلة في القاهرة.
- درس فن الحفر في المانيا الديمقراطية .
- يعمل حالياً في الرسوم الصحفية .
- ارسل مجموعة لوحات من المانيا لتشارك في اسبوع العودة .
- لوحة (اطفال قبية) للفنان كركوتلي، نفذت في مركز الفنون التطبيقيـــة وعرضت في معرض اسبوع العودة .

اللوحة

« أطفال قبية »

لوحة تعبيرية من أعمال برهان الأخيرة . أهم ما في اللوحة هو الخط العنيف الذي يحدد الأشكال ، وهو الخط الذي اعطى اللوحة طابعها التعبيري .



الفنان برهان كركوتلي

اسبوع اللاجئين



بمناسبة الذكرى السنوية الحادية والعشرين لقيام منظمة الأمم المتحدة في ٢٤ تشرين الأول عام ١٩٤٥ ، نظمت سورية اسبوعاً (من ٢٤ – ٣١ تشرين الأول) للاجئين وفقاً لمذكرة هيئة الأمم المتحدة ولقرار مجلس جامعة الدول العربية . وقد أصدرت الصحف والمجلات ملاحق وبحوثاً عن هذه المناسبة ، كما أعدت برامج وأحاديث إذاعية وتلفزيونية عديدة في الموضوع ذاته .

ونظمت وزارة الثقافة مهرجانات ومحاضرات ومعارض قومية ، من بينها الندوة التي عقدت في المركز الثقافي العربي بدمشق واشترك فيها الأساتذة أديب اللجمي وهيثم كيلاني وغر المصري ، ومنها معرض (العودة) الذي اقيم في مركز الفنون التطبيقية بدمشق لوحات جدارية من إنتاج طلاب المركز .

وفيما يلي مقتطفات مما دار في الندوة القومية التي عقدت في المركز الثقافي العربي بدمشق :

اديب اللجمي

قامت الأمم المتحدة لتبشر بالسلام هدفاً سامياً من أهداف البشرية ، وشرطاً لازماً لاستقرار الانسان وإشاعة الطمأنينة في نفسه كي ينصرف الى العمل المثمر البناء .

غير أن السلام لايصان مالم يكن ثمة حرص على احترام حق الناس في ان يعيشوا آمنين في أوطانهم . فكل اعتداء على كرامتهم، أو كل تهديد لأمنهم وحياتهم هو ظلم لايتيح للسلام ان ينتشر فوق الأرض ، ولا يقبل الانسان أصلاً أن يسكت عليه .

ان هيئة الامم المتحدة لم تظهر الى الوجود اعتباطاً ، بل جاءت في أعقاب حرب عالمية ، أحدثت من الدماء والشر والضحايا مالم تحدثه عشرات الحروب مجتمعة في الماضي ، فلو استمرت الأمور على ان يبتلع القوي الضعيف ، وأن يسيطر المعتدي

على صاحب الحق ، لكان على الانسانية ان تتوقع مزيداً من الفوضى ، ومزيداً من الشقاء . لقد أرادت المنظمة الدولية ان تجعل لغة التفاهم بديلاً للغة التسلط ، وان تدافع عن الحق حيثما ظهر للملأ أنه يعاني اضطهاداً .

الا انه لم تمض أكثر من ثلاث سنوات على قيام هذا الجهاز « السلمي العالمي » حتى تم تحت قبته تكريس أكبر ظلم فرض على الشعب العربي في فلسطين ، كما تم بالتالي ذرع أول بذرة خطيرة من بذور الشر والطغيان في عالم مابعد الحرب .

ان اعتراف الأمم المتحدة « بشرعية » طرد عرب فلسطين من أرض آبائهم وأجدادهم ، وتوطين الجماعات الصهيونية الوافدة عن بقاع الارض المختلفة فوق هذه الارض العربية ، ثم اعتراف الامم المتحدة ذاتها بانشاء « دولة » من هذه الجماعات الغاصبة ، ثم اعتراف الامم المتحدة « بشرعية » انتماء هذه الدولة الغاصبة الى المنظمة الدولية ، ان هذه الوقائع المتلاحقة ، وقد تمت كلها خلال سنة واحدة تقريباً لم تكن دليلاً على حرص الامم المتحدة على احترام حق الشعوب في أوطانها ، ولا دليلاً على تمسك هذه المنظمة بالسلام . قد يقول قائل ان المنظمة الدولية كانت وما تزال واقعة تحت نفوذ الدول الاستعمارية الكبرى ، ولكن مثل هذا القول ، وان يكن تقريراً لواقع معروف وشائع ، لايبرىء هذه الدول ولا تلك التي تدور في فلكها من مسؤوليتها في العبث بمبادىء الحقوق الانسانية ، ودعم الطغيان والاغتصاب . فكأن الدول التي دخلت اعضاء في هذه المنظمة للدفاع عن الحق والانتصار له ، لم تفعل شيئاً أكثر من تأييد الظلم والتشجيع على ارتكابه .

مأساة فلسطين ، ومأساة اللاجئين العرب الفلسطينيين ، لاتشرف أية من الدول التي صوتت على قيام « اسرائيل » في قلب الوطن العربي .

واذا كان من حق العرب المشروع أن يستردوا حقهم السليب بجميع الوسائل التي يرونها مجدية ، فان واجب الضمير العالمي ان يفتح عينيه على هذا « الرياء الخادع » الذي تمارسه دول التسلط على شعوبها ، اذ تزيف لها الحقائق ، وتشرع لها الظلم ، وتفلسف لها العدوان .

ان الرأي العام العالمي يعاني منذ سنوات طويلة تضليلاً متعمداً في قضية فلسطين العربية ، أجهزة الاعلام المختلفة ، الدراسات والبحوث والتحقيقات ، تصريحات الساسة المسؤولين ، مواقف سادة المال والأعمال ، كل هذه القوى تعمل متضامنة على تزييف « الحقيقة الفلسطينية » و « الحقيقة العربية » أمام شعوب الغرب . ان الرأي العام العالمي ليس منحرفاً ولا مشوهاً بالأصل ، انه يعاني التشويه والانحراف بفعل هذا

« التوجيه » المركز الذي تحدثه مختلف القوى الداعمة للصهيونية ، والمناوئة للأمة العربية .

لقد فشلت الامم المتحدة ، حتى الآن على الأقل، في ان تنتصر للحق العربي في فلسطين. وقد آن للعرب أن يفتحوا اعين الشعوب المضللة على كذب حكام هذه الشعوب وريائهم . ان اي مجتمع في الغرب يعرف حقيقة مأساة فلسطين سيكون نصيراً للعرب، باعتبارهم أصحاب الحق . فالرأي العام العالمي لايمكن ان ينقاد للظلم وللعدوان ؛ لأن مشاعره العفوية هي في اتجاه نصرة الحق والعدالة والسلام . ومالم نتمكن ، نحن العرب ، من ازاحة القناع الذي اسدله حكام الغرب على أعين شعوبهم ليحولوا بينها وبين معرفة الحقيقة العربية ، فلا أمل كبير لنا في أن نرى الرأي العام الغربي يضغط على حكامه ليحولهم عن موقفهم المؤيد للعدوان الصهيوني. ان اصرار العرب على ان يستعيدوا كامل حقوقهم المشروعة في فلسطين ، لاينفي وجوب اتصالهم بالرأي العام العالمي، وبمختلف الوسائل ، ليقنعوه بأنهم ، في صراعهم مع الصهيونية، هم وحدهم أصحاب الحق لايبغون أكثر من اعادة الحق الى ذويه . علينا ان نبين للناس في اقطار الغرب والشرق ، أن الصهيونية هي التي سرقت الأرض العربية ، وهي التي اعتدت على عرب فلسطين ، وهي التي عبثت وما تزال تعبث بالسلام العالمي ، وهي التي مازالت تستهتر بمقررات الامم المتحدة (ومن جملتها تلك القرارات التي تنص على اعادة اللاجئين الفلسطينيين العرب الى ديارهم وأرضهم) ؛ وأننا اذا كنا نرفض هذا كله ، فلأننا نريد أولاً أن نستعيد حقوقنا في وطننا، ولأننا نريد ثانياً للحق الانساني ألا يداس . ولأننا نريد ثالثاً ألا يظل العدوان شريعة التعامل بين الشعوب ، ولأننا نريد أخيراً أن تقوم بين دول العالم علاقات مساواة واحترام متبادل لامكان فيها لتسلط الاقوياء على الضعفاء ، ولاستغلال شعب لشعب .

هيثم كيلاني

ان الاستعمار والصهيونية ، اللذين خلقا نكبة العرب في فلسطين، ارادا ان يجهزا على الضحية ، ويزيلا آثارها ، فبادرت الأمم المتحدة ، الى انشاء وكالة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم، بعد ان اتخذت قرارها المشهور في اواخر عام ١٩٤٩ ، بعودة النازحين الى ديارهم والتعويض على من لايرغب في العودة منهم ، وكلفت لجنة التوفيق بتنفيذ ذلك . ولكن اللجنة اهملت اساس القرار ، وتمسكت بشقه المتعلق بالتعويضات، واخذت على عاتقها تصفية ودائع النازحين في المصارف، واحصاء املاك العرب في فلسطين .

لقد قامت وكالة الغوث ، بناء على تقرير « لجنة كلاب » ، التي اوصت بادماج النازحين في اقتصاديات البلاد العربية. فانطلقت الوكالة من هذا المفهوم ، وراحت تسعى الى إسكان اللاجئين بشتى الوسائل الاقتصادية والسياسية ، وكان مشروع جونستون لانماء وادي الاردن ابرز هذه الوسائل الاقتصادية . أما في المجال السياسي ، فقد سعى موظفو الوكالة الاجانب الى بث الافكار المسمومة بين صفوف اللاجئين ، مرتكزين على عدة وسائل ، اهمها اضعاف الروح المعنوية عند النازحين ، وقتل شعورهم القومي ، ونزع فكرة إستعادة فلسطين من نفوسهم ، واقناعهم بقبول مشاريع الاسكان والاندماج ، واغرائهم بالتعويضات عن املاكهم واموالهم ، ومقاومة الآراء التي تحمل الدول الغربية المسؤولية الاولى في النكبة ، ونقل عبء هذه المسؤولية الى عاتق الدول العربية . والى جانب هذا كله ، راحت الوكالة تشجع اللاجئين على الهجرة الى مختلف بقاع الارض ، وبخاصة كندا والمانيا الغربية وبوليفيا واوستراليا ، وتزين لهم سبل العيش هناك ، يستقرون فيها ، فتنسيهم مشاغل الحياة وجدتها قضيتهم ، ويرتبطون بمجتمعات واهتمامات جديدة .

سوى ان هذه الجهود ذهبت هباء كالزبد على سطح البحر . أما البحر فلم يكن بقدرة أحد أن يخفي هيجانه وعمقه ، فلم يستطع المديرون المتتابعون للوكالة ، منذ ستة عشر عاماً حتى اليوم ، أن ينكروا الواقع في تقاريرهم التي كانوا يقدمونها الى الأمم المتحدة في كل عام . فقد أكدوا ان اللاجئين يصرون على العودة ، ويرفضون قبول الهزيمة . ويحملون الدول الغربية مسؤولية نكبتهم . إلا أن الولايات المتحدة ، رأس الاستعمار وحليفة الصهيونية ، لاتزال تدفع التصفية الى أبعد مداها . فقد تقدم بعض الصهاينة ومؤيدوهم من أعضاء الكونغرس الامريكي ، بمشروع قانون في صيف هذا العام ، ينص على اعادة تنظيم وكالة الغوث ، والاسراع في امتصاص اللاجئين في اقتصاديات البلاد العربية وتوطينهم كرعايا في المناطق التي يقطنونها ، بالرغم من ان تقرير مدير الوكالة ، الذي ناقشته اللجنة السياسية للامم المتحدة في دورتها لعام ١٩٦٦ ، يؤكد ان اللاجئين مقتنعون بأن قضيتهم لامثيل له ، ويصرون على العودة ، مهما تحملوا من بؤس وآلام ، ومهما طال بهم زمن الانتظار .

وهكذا لم يبق في الامم المتحدة هذا العام ومنذ عام ١٩٥٢ ، من قضية فلسطين ، سوى بعض آثارها التي يحاول الاستعمار والصهيونية طمسها ، ولم يبق منها سوى مشكلة غوث اللاجئين ، وتحديد الحد الادنى من الحياة لهم ، والتعويض عن اموالهم واملاكهم ، وتعيين قيم عليها ، ومشكلة تدويل القدس ، وغيرها من الأمور الفرعية . فقد اخذت القضية تختفي ، كقضية سياسية قوية ،

من برامج أعمال الامم المتحدة واروقتها ، منذ عام ١٩٥٢ . وإذ لم تدرج في جدول الاعمال ، بالرغم من ان الوفود العربية ، كانت في كل عام ، تندفع في التحدث عن قضية فلسطين في أثناء مناقشة تقرير الوكالة ، سوى ان الامر ينتهي دائما بتوصيات جانبية تتعلق بموازنة الوكالة ، ومدّ أجلها ، وقوائم الذين يستحقون منهم الاطعمة المعلبة ، وشكوى الوكالة من امتناع بعض الدول عن مديد العون اليها .

وهكذا ركدت القضية وتدهورت في الامم كمشكلة دولية ، مما دفع اسرائيل الى ان تجاهر على منبر الامم المتحدة ، بانه لم تعد هناك مشكلة هناك اسمها قضية فلسطين ، ولم يعد هناك وجود لمكان جغرافي في الارض إسمه فلسطين ، ولا شعب يحمل الجنسية الفلسطينية . لقد انتهى ذلك كله ، ولم يبق من التركة سوى موضوع اللاجئين ، وهو موضوع إنساني تفرض العوامل والوقائع المتعددة ان يستوطنوا في الاقطار التي يعيشون فيها . لقد نادت اسرائيل بزوال المشكلة ، ولم يعد هناك سوى الصلح مع اسرائيل والتعايش معا .

وكان ان اندفعت عـــدة دول في الامم المتحدة ، على رأسها الولايات المتحدة وانكلترا ، تؤيد هذه الدعوة ، وتبذل الجهد لتسوية القضية على أساس الأمر الواقع ، وتصفيـــة التركة المتبقية منها . وفي هذه المرحلة ، ولدت منظمة التحرير الفلسطينية ، في جو من التهـــادن العربي . فاعتبرت ولادتها مرحلة تطور يسير في اتجاه معاكس للخط المتدهور ، الذي كانت تتهاوى فيه القضية في الامم المتحدة . فقد هدفت المنظمة إلى تأكيد الشخصية الفلسطينية ، والرمز الى شعب يتحرق الى الكفاح واسترداد وطنه ، لأن القضية في أصلها قضية الشعب الفلسطيني ، ترفده الدول العربيـــة بتأييدها ومساندتها .

وهكذا ظن العرب أن القضيـــة بدأت مرحلة إيجابية جديدة ، وبخاصة بعد قرار المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز ، الذي اكد وجود الشعب الفلسطيني ، وايد حقه في الكفاح لتحرير وطنه من الاستعمار والعنصرية . وقد اعتبر هذا القرار يومذاك نصراً كبيراً ، لانه يشكل رأي اكثر من نصف عـــدد الدول الأعضاء في الامم المتحدة . فاذا ماطرح مرة ثانية امام المنظمة الدولية ، فان عدداً كبيراً من الدول ستقف الى جانبه ، فاذا كان الفشل نصيبه ، وهذا مانتوقعه ، فليس الأمر خطيراً ، لأن قضايا عديدة عرضت على الأمم المتحدة ، وفشلت بادىء ذي بدء ، ثم اتخذت طريقها الى الظفر . ولا يضر قضية فلسطين أن تفشل مرة تلو المرة ، ولكن يضرها ان تظل راكدة في المحافل الدولية لاتتحرك . وإذ نقول هذا ، نكرر ايماننـــا بأن حل القضية لايكمن في أروقة الامم المتحدة والمؤتمرات الدولية ، وانما يكمن منذ تسعة عشر عاماً فوق ارض فلسطين ذاتها .

واختتم الاستاذ كيلاني كلمته بقوله:

اننا نطرح القضية أمام العالم طرحاً يقوم على اسس مختلفة كل الاختلاف عن مفاهيمه عن القضية نفسها . وهذا هو وجه تصادمنا بالرأي العام العالمي . ان مشكلتنا تتلخص بوجود اسرائيل او عدم وجودها ، أما الاستعمار فقد انزل القضية من مستوى وطن مغتصب الى مساومة على لقمة اللاجئين . وبالرغم من جهود الاستعمار والصهيونية ، فان انعطافاً جديداً بدأ يظهر في خط سير القضية. فقد تغيرت ظروف كثيرة في العالم منذ عشرين عاماً حتى اليوم ، وطرأت عوامل جديدة مؤثرة على السياسة الدولية وعلى الرأي العام العالمي. وعلينا أن نسبر هذه العوامل والظروف لنتعرف الى مدى تحرر الرأي العام من سيطرة الدعاية الاستعمارية والصهيونية ، والمدى تنبه للاستماع الى وجهة نظرنا . لقد جعلت هذه الدعاية حكومات وشعوباً كثيرة تعتقد ان الشعب الفلسطيني غير موجود ، لأنه لادور له في القضية . ولا يرد هذه الفكرة ، إلا ظهور الشعب على حقيقته ، بنزوله الى ميدان الكفاح ، وخلقه مشكلة تقف في وجه مشكلة اسرائيل ، وتهدد سلام الاغتصاب والعدوان. ان خلق المشكلة هو الحل الوحيد الذي يطرح قضية فلسطين على الرأي العام العالمي، طرحاً جديداً ، ويبدل بالمفاهيم التي تحدثنا عنها، مفاهيم واضحة عن حقيقة القضية وواقعها . وبدون هذا الحل ، سيبقى كل بناء نشيده ، وكل جهد نبذله ، قائماً على الرمال والغموض .

إننا ندرك جميعاً ان اللغة البليغة التي تفهمها اسرائيل ومؤيدوها ، هي اللغة التي يطلقها كيان عربي موحد، يفرض وجوده على الدنيا ويملك ثرواته ، ويتصرف بها وفق مصالحه . ان لغة الوحدة العربية ، والبترول والتقدم العلمي، ولغة الجيش القوي الحديث والقوى الشعبية المنظمة ، هي عناصر المعركة مع اسرائيل والاستعمار .

ولكن عشرين عاماً تمر امام انظارنا ، تعد أيام مأساتنا فيها ، ونتلهف على بلوغ هذه الاهداف . لقد حققنا بعض المكاسب في بعض الاقطار ، ولكنها ليست سوى معالم في الدرب الطويل .

ان القضية الفلسطينية قضية سهلة صعبة. سهلة اذا نظرنا الى امكانات الدول العربية وطاقاتها ، صعبة اذا لم نعرف كيف نستثمر هذه الامكانات والطاقات ونضع الخطة اللازمة لتعبئتها تعبئة علمية واعية . فيوم أن نشأت منظمة تحرير فلسطين ، اعلنا اننا سنقدم اليها جميع الامكانات لتنطلق في عملها وتأدية مهمتها. ولم تنقض سوى سنتين ، حتى كنا نزودها بالامنيات الطيبة ، والدعوات الصالحة ، فاستحال عليها العمل .

عشرون عاماً قضيناها ونحن في الوجه الصعب من المشكلة ، ولسنا نلمح مايقودنا الى الوجه السهل منها . فهل ننتظر عشرينات أخرى .

ان الشعب العربي قلق على قضية مصيره، لايطمئن له قلب . انه ليحمله الأمل الوضاح حيناً حتى ليمس أفق الخلاص ، ويغتلي فيه الارتياب حتى ليتهاوى في مهاوي اليأس السحيقة، تلك المهاوي التي سقط فيها من قبل في أيام النكبة وبعدها . ذلك ان القضية تحترق بين ايدي بعض الحكام العرب . وليس يمسك بها عن السقوط في الهاوية ، سوى خيط رفيع، هو أملنا في المعجزة . هذا الامل ، هو عزم الشعب العربي الفلسطيني على الثورة والتحرير.

اننا حتى اليوم ، نحمّل الامم المتحدة مسؤولية خلق المأساة ، ولنكن صادقين ، ولنحمّل انفسنا مسؤولية التقاعس عن إزالة هذه المأساة . إن هذا الموقف دفع أبا إيبان وزير خارجية اسرائيل ، الى التصريح في مقال كتبه في « مجلة السياسة الخارجية الامريكية » في صيف العام الماضي ، حين قال : « ليس من السخف ان نتصور قادة العرب يطالبون في المستقبل بالحاح ، بالعودة الى حدود عام ١٩٦٦ أو ١٩٦٧ ، تماماً كما يطالبون اليوم بالعودة الى حدود التقسيم عام ١٩٤٧ ، تلك الحدود التي رفضوها في الماضي » .

لقد اثبتت تجربة الاعوام الماضية ، ان المعادلة الرياضية لوجود اسرائيل واستمرارها، هي ان الاستعمار اوجدها لضمان مصالحه . فاذا اثبت الواقع بعد ذلك ان وجودها اصبح عامل خطر رئيسي على هذه المصالح ، فلماذا إذن يصر على بقائها ويضحي بمصالحه في سبيلها .

من هنا يزدوج الحل ، ويصبح ذا شقين، اولهما السلاح ، لأن ما أخذ بالسيف لايرد إلا بالسيف. وثانيهما البترول والموقع الستراتيجي للوطن العربي ، وكلاهما امضى من السلاح ذاته . ولكننا كنا نفتش طيلة عشرين عاماً ، عن هذا الحل في قصور الحكام العرب ، فقنيت العيون وجف زيت السراج .

لنكن صرحاء ، ولنعلن ، انه امام قضية فلسطين ، يجب التخلي عن كل شك ، والتصدي للحقيقة وحدها . فأمام القضية يجب ان يفق كل فكر جبان . وحينذاك ، يلوح لنا أمل وحيد في الخلاص ، في حرب تحريرية يشنها ابناء فلسطين ، لاهدف لها الا التحرير ، ولاتخضع الا الى إرادة التحرير ، يحتضنها ويرعاها في وجه امرها قطر عربي واحد يحمل راية الفداء ويرص صفوف ابنائه حولها.

شرط واحد لابد منه ، ان تنطلق شرارة التحرير ، بعد دراسة علمية دقيقة، وتخطيط سياسي واضح ، وتنظيم عسكري شعبي متين. وبدون هذا الشرط ، نكون كمن أسلم رأسه للجزار بحزه .

ان هذه الحرب كفيلة بأن تستقطب الشعب العربي كله حولها وحول القطر حامل الراية ، حيث تتزاحم عليه السبل ، تتدفق بالرجال والسلاح والعون ، من كل صوب من الوطن العربي والعالم الاسلامي والقوى التقدمية في العالم .

أضواء التاريخ على تصريح بلفور

للدكتور توفيق برو

ان تصريح اللورد بلفور وزير الخارجية الانكليزية الذي منح اليهود في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وان يكن قد خلا من نص صريح باقامة دولة يهودية في فلسطين ، إلا ان طريقة صياغته والظروف التي احاطت باعطائه هي أنصع دليل على المؤامرة على عروبة فلسطين التي حاكت خيوطها أعرق دولتين من دول الغرب في الاستعمار هما انكلترا والولايات المتحدة الامريكية بالاتفاق مع الصهيونية العالمية .

كان لليهود قبل الحرب العالمية الاولى عدة اتجاهات من حيث مستقبلهم السياسي إثر الاضطهادات التي تعرضوا لها في مختلف الدول الاوروبية خلال القرن التاسع عشر . فقد عرف قسم كبير منهم باسم « الصهاينة الاقليميين Sionistes Territoriaux » وتزعمهم الكاتب الانكليزي الشهير « اسرائيل زنكويل Israel Zangwill » يرون ان اية بقعة من الارض سواء اكانت فلسطين او غيرها تصلح بان تخصص لجمع اليهود في وطن قومي ينقذهم من التشرد(١) . كما وقفت فئة ثانية من اليهود المتدينين وقد عرفوا باسم « الاندماجيين » موقفاً معادياً من إقامة « دولة يهودية » تجمع اليهود في مكان واحد من العالم ، وحجتهم في

(١) N. Moussalli ; Le Sionisme et la Palestine, p. 21

ذلك ان اليهودية دين لا قومية مادام الذين يعتنقونها من امم وعروق متباينة وألسنة مختلفة ، وحتى المجلس اليهودي في الولايات المتحدة الامريكية كان معارضاً لانشاء «الدولة اليهودية» ولوجود قومية يهودية .

غير ان فكرة «أرض الميعاد» قد انتصرت اخيراً بقيام زعماء متحمسين للفكرة وعلى رأسهم الدكتور «هرزل» الذي دعا الى مؤتمر عقد في مدينة «بال» بسويسرة عام ١٨٩٨ ، واخذ الصهاينة يبذلون المساعي الحثيثة لتحقيق الفكرة ، حتى اذا نشبت الحرب العالمية الاولى وجدوا فيها الفرصة السانحة لترويج ادعاءاتهم في فلسطين مستخدمين شتى اساليب المناورات والمؤامرات التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في التلون والمكر والخداع .

لقد عمد الصهاينة الى الاتصال بجميع الاطراف المتحاربة ، مستغلين نقاط الضعف عند كل دولة من الدول التي يتوسمون فيها خيراً لقضيتهم ، وقد بدأوا بالدولة العثمانية اذ وسطوا لديها الامبراطور الالماني غليوم الثاني . ومن الوسائل التي استخدموها لاغراء العثمانيين انهم صوروا لهؤلاء حاجتهم الماسة الى وجود قوة من شأنها ان توازن قوة الحركة العربية القومية الناشئة للقضاء عليها قبل ان يستفحل خطرها على امبراطوريتهم ، واستطاعة اليهود تشكيل قوة موالية للعثمانيين في فلسطين . وقد اعلن الصهاينة عن استعدادهم لتعبئة فرقة يهودية بولندية للدفاع عن فلسطين ولتسخير الاموال اليهودية في تخفيف الضائقة المالية التي تعانيها الدولة العثمانية . كما اعلنوا للحكومة الالمانية عن استعدادهم لجعل فلسطين «جبل طارق» تركي – الماني(١). وقد كانت برلين عند بدء الحرب ، مركزاً لنشاطهم السياسي ، لكنهم مالبثوا ان نقلوا مكاتبهم الى عواصم الدول المحايدة ، وبخاصة منها نيويورك التي ركزوا جهودهم ونشاطهم فيها لأن لهم في الولايات المتحدة بضعة ملايين من اليهود بينهم عدد كبير من رجال الدولة العظام ومن اصحاب الاعمال الكبيرة ، ولم يهملوا لندن فجعلوها المحور الذي تدور فيه المفاوضات الصهيونية – الانكليزية في سبيل تحقيق حلمهم التاريخي .

لم تظاهر الصهيونية ، قبل عام ١٩١٧ أياً من الفريقين المتحاربين على الآخر ، حفاظاً لكفة توازنها ، في وقت لم تكن الغلبة لأي منها واضحة . فقد كان الزعماء الصهاينة يفاوضون الأتراك والألمان من جهة ، والانكليز والأمريكان من جهة أخرى في آن واحد . وكان كل من المعسكرين المتحاربين يسابق الآخر الى خطب ودهم ، بفضل مايظاهرهم من قوى يهودية مادية وأدبية في مختلف انحاء

---

(١) الدكتور احمد طربين : تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ٢٢ – ٢٣ ، عن كتاب حقائق عن قضية فلسطين ، من منشورات الهيئة العربية العليا .

العالم . وقد ظفروا ، بفضل الضغط الالماني – النمساوي على الأتراك ، وتوسط السفير الامريكي (اليهودي « هنري مورغنتو ») لدى الباب العالي ، بوعد من الحكومة العثمانية بان يسمح لليهود – بعد نهاية الحرب – بانشاء شركة ذات امتيازات واسعة تتولى تسهيل الهجرة اليهودية الى فلسطين (١) .

غير أن دخول الجنرال اللنبي الى فلسطين، قبل أن تصدق الحكومة العثمانية الوعد نهائياً، جعله عديم النفع والقيمة بنظر اليهود لاسيا وأنهم كانوا – في نفس الوقت – قد حصلوا على تصريح بلفور اثر مفاوضات ناجحة مع الحكومة الانكليزية .

كان زعماء الصهيونية البارزون على اتصال دائم – منذ بداية الحرب – برجال الحكم في انكلترا . فاستطاعوا بما لهم من مراكز ممتازة – ومعظمهم من علية القوم أمثال اللورد روتشلد (الثري الشهير) ، والدكتور وايزمن (عالم الكيمياء)، ونعوم سوكولوف (السياسي اللبق) ، ونخبة مختارة من الكتاب والصحفيين ورجال السياسة كالمستر هربرت صموئيل ، ولاندمن ، وكوهن ، وساشر – ان يجلوا المسألة الصهيونية المحل المرموق في نظر المسؤولين الانكليز ، ويكسبوا عطف الحكومة الانكليزية وثقتها وحدبها على اماني اليهود القومية .

بدأت المحادثات غير الرسمية بين زعماء الصهيونية وبعض الوزراء الانكليز منذ تشرين الثاني ١٩١٤ . وفي مقابلة جرت بين « هربرت صموئيل » – وكان يتولى رئاسة مجلس الحكومة المحلية في حكومة اللورد « اسكويث » – وبين السر « ادوار غراي » وزير الخارجية (سلف اللورد بلفور) ، قال صموئيل لغراي : « قد تخلق هذه الحرب قريباً مناسبات عديدة لتحقيق مطالب اليهود في اقامة دولة يهودية في فلسطين ، فان حققت هذه المطالب على يد بريطانيا كسبنا عطف الملايين من اليهود المنتشرين في جميع اقطار العالم ، واوجدنا على مقربة من مصر ومن قناة السويس دولة جديدة موالية لنا » . فوعده بتأييد هذه الفكرة ، وأضاف سائلاً عما اذا كان الصهيونيون يكتفون بفلسطين أم يطالبون بسورية ايضاً ، فأجاب بان القناعة أولى « لأن في سورية مدناً كبيروت ودمشق تكثر فيها العناصر غير اليهودية بحيث يصبح من الصعب تمثيلها . ولكن من رأي الصهيونية أن تقوم في المناطق السورية الأخرى دولة أوربية كفرنسا مثلاً . وأما فلسطين فلا يحسن منحها الاستقلال السياسي في الوقت الحاضر لأن اكثرية سكانها من غير اليهود وأن الأفضل أن توضع تحت الحماية البريطانية . » وفي كانون الثاني ١٩١٥ قدم « هربرت صموئيل » مذكرته عن « مستقبل فلسطين » ووزع نسخاً منها على زملائه اعضاء الوزارة وعلى

(١) Rev . Correspondance d'Orient , 10/6/1916 . p. 87

النواب مقترحاً مشروع تأسيس « دولة يهودية » في فلسطين تستوعب بضعة ملايين من يهود أوربة وتكون تحت اشراف الدولة البريطانية . (١)

لقد التقت في الواقع اهداف الصهيونية بالمطامع البريطانية ومخططاتها في الشرق العربي لقاء أسفر عنه « تصريح بلفور » ، ذلك أن السياسة البريطانية في مصر كانت ترى ان التحكم في شؤون القطر المصري لايتم إلا إذا اتخذت فلسطين وسورية قاعدة دفاعية ، وأن شبه جزيرة سيناء لم تكن لتفي بالغاية المنشودة . وهكذا ووفقاً لهذا المخطط أقر اللورد غراي ولويد جورج فى عام ١٩١٥ المشروع الذي وضعته القيادة العليا الانكليزية في مصر والقاضي بضم فلسطين الى الامبراطورية ، لكن سياسة الحكومة الانكليزية الماكرة رأت أن من الحكمة ان تخفي هذه الخطة وراء ستار انساني فى مصلحة اليهود المضطهدين ، فاستعملت منتهى ما أوتيت من دهاء كي لاتمس اتفاقيات سايكس – بيكو إلا على انشاء ادارة دولية في فلسطين ، ووقفت أمام مطامع الفرنسيين في جعل فلسطين ضمن المناطق السورية الممنوحة لهم (٢) .

ومع ذلك لم تشأ انكلترا ان تبذل عطاءها هذا دون منفعة آنية مقابلة ، ذلك ان الحلفاء كانوا بحاجة الى دعم اليهود بمالهم من قوى سياسية وادبية ، لاسيا في الولايات المتحدة الامريكية ، اذ يستطيعون دفعها الى اتخاذ موقف ملائم للحلفاء في الحرب الدائرة . لذلك فان انكلترا – مع استعدادها لتحقيق رغبات الصهاينة – أخذت تساومهم لتكسبهم الى جانبها في الحرب ، فراحت تنوه لهم بالمصاعب التي تقف دون مطاليبهم ، أملاً بان يلقوا بانفسهم في احضانها ، فتستعين بهم في استمالة الولايات المتحدة الى الدخول فعلاً في الحرب ، والى الغاء تدويل فلسطين في آن واحد . وبدأت فعلاً في التذاكر مع حليفاتها من الدول الغربية حول مطالب الصهيونية في فلسطين ، واستمزجت أولاً رأي روسيا الى الموضوع بمذكرة مؤرخة في ١٣/٣/١٩١٦ بينت فيها أن اجابة مطالب الصهيونية يكسب الحلفاء تأييد اليهود في الولايات المتحدة وفي اوربا الشرقية ، واقترحت الاعتراف لهم بحق ادارة شؤون فلسطين الداخلية حالما يصبح عددهم فيها كافياً ، ونوهت بان تدويل فلسطين يلاقي معارضة شديدة من قبل اكثرية اليهود .

كان الحلفاء عام ١٩١٦ في ضيق ملموس ، ووضعهم من الناحية الحربية غير مرض بل يتزايد خطره باستمرار ، فاستحوذ على نفوسهم القلق وبدأوا يتلهفون على تدخل

(١) نجيب صدقة : قضية فلسطين ، ص ٢٠ – ٢٢

(٢) P. Lyautey : Le Drame Oriental et le Rôle de la France , P. 209

الولايات المتحدة الى جانبهم ، لاسيما وان اتصالاتهم معها لم تحقق كثيراً من الآمال المعقودة عليها ، وان التقارير الواردة من الولايات المتحدة كانت تشير الى ميول قوية موالية للألمان لدى كبار أرباب البنوك الأثرياء من اليهود ، والبيوتات المالية الكبرى ومعظم أصحابها من أصل ألماني، ولدى الصحفيين الذين يعملون بوحي منهم . والعقدة التي يعانون منها هي وجود روسيا الى جانب الحلفاء بينما لم تزل دماء الاضطهادات الروسية لليهود عام ١٨٨٢ تتراءى امام أعين اليهود الامريكيين .

غير ان توسط المدعو «جيمس مالكولم» الايراني الجنسية ، الأرمني الأصل – الذي كان عضواً في الوفد الأرمني القومي الذي عهد اليه بتولي مصالح الأرمن ابان الحرب وبعدها فاتخذ لندن مركزاً له – قد هون الأمر ؛ اذ كان لمالكولم صداقات قوية وعريقة مع اليهود ، وربما قد باع نفسه اليهم . فاتصل بالسر مارك سايكس . صاحب الفضل في نقل نشاط الصهاينة ومفاوضاتهم الى الصعيد الرسمي عندما أصبح سكرتيراً لوزارة الحرب ، وفي تذليل العقبات امامهم ، فافهمه هذا الطريقة التي يستطاع بها كسب اليهود الامريكيين الى جانب الحلفاء ، ونبهه الى ان اثرياء اليهود وحاخاميهم الموجودين في انكلترا ليسوا الزعماء الحقيقيين للشعب اليهودي ، كما نبهه الى اهمية الحركة الصهيونية ووجوب ارضاء هذه الحركة بمنح فلسطين لليهود .

في هذه المرحلة يستوقف النظر الدور الذي لعبه السر مارك سايكس (الذي وقع معاهدة سايكس – بيكو من الجانب الانكليزي) في خدمة المصالح البريطانية والصهيونية في آن واحد ، ذلك ان الصهيونية كانت قد اوقعته في حبائلها فبدأ مع مالكولم في استعراض الموقف ، واتفقت وجهة نظرهما حول وقوف اتفاقية سايكس – بيكو (في محاولة لالغاء تدويل فلسطين ولم يجف بعد مداد هذه الاتفاقية) عقبة كأداء في سبيل استمالة اليهود الى جانب الحلفاء . ثم اتصل سايكس بالشخصيات البريطانية البارزة وحصل على وعد منهم بان يخول مالكولم مفاوضة اليهود – باسم الحلفاء – على اساس اعطائهم فلسطين وطناً قومياً لهم لقاء مساعدتهم الحلفاء بنفوذهم لدى الولايات المتحدة، باعتبار ان « فلسطين هي ثمن التأييد اليهودي » .

شرع مالكولم بالعمل بادئاً بالاتفاق مع المستر « غرينبرغ » ، وهو يهودي كان يتولى رئاسة تحرير الجريدة اليهودية « جويش كرونيكل » ، ثم بالاجتماع مع الدكتور وايزمن ، وبالمستر سوكولوف وغيرهما من الزعماء الصهيونيين، وابلغهم ما كلفته به وزارة الحرب البريطانية. وبعد ان استوثق الدكتور وايزمن منه بان الحكومة عازمة بصورة جدية على ان تعد اليهود بفلسطين ، مقابل ما تطلبه من مساعدة يهود الولايات المتحدة ، صافحه

وطلب منه ان يجمعه بالمستر سايكس، ثم تمت المقابلة بين هذا وبين آخرين من كبار زعماء الصهيونية، واسفرت عن اتفاق مبدئي للمسألة سرعان ما أبلغ برقياً الى الزعيم الصهيوني الامريكي القاضي « لويس برنديس » ، الصديق الحميم للرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة. كما جرت محادثات اخرى في مختلف وزارات الدولة شهدها الدكتور وايزمن واسفرت عن تفاهم عام اطلق عليه اسم« اتفاق المهذبين » (الجانتلمان) وهو يقضي « بان يعمل الصهيونيون لضمان عطف اليهود الفعلي على قضية الحلفاء وتأييدهم لها لا سيا في الولايات المتحدة ، مقابل ان تقوم الوزارة البريطانية بمساعدة اليهود على الفوز بفلسطين(١) .

وفي هذه الظروف الحاسمة لم يضن الدكتور وايزمن بتضحية منافعه الشخصية في سبيل انجاح القضية، ففي مقابل تقديمه خدمة علمية للحلفاء(٢) ساعدتهم في صنع المتفجرات ، استنتج الفرصة ليعرض مطالب قومه على المستر «لويد جورج» الذي اتصل به وابلغه ان الحكومة البريطانية تريد ان تقدم له مكافأة شخصية تتناسب مع ماقدمه من خدمة علمية قيمة للحلفاء في الحرب فأجاب وايزمن قائلا:

« أنا لا اطلب شيئاً لنفسي ... ، بل اريد ان تفعلوا شيئاً من أجل شعبي » ، وأخذ يشرح له آماله بعودة اليهود الى فلسطين وجعلها وطناً قومياً لهم. فوعده لويد جورج خيراً، وعندما استلم رئاسة الوزارة في كانون الاول ١٩١٦ بحث الأمر ملياً مع المستر بلفور وزير الخارجية الجديد الذي ابدى تفهماً وعطفاً على المسألة اليهودية (٣) . قال لويد جورج في مذكراته : « وبما أننا كنا راغبين في ان يكون اليهود سنداً لنا لدى الدول المحايدة ، لا سيا الولايات المتحدة ، فقد كلف الدكتور وايزمن بان يكون على اتصال مباشر مع وزارة الخارجية » .

بعد ان وصلت قضية التآمر على عروبة فلسطين الى هذه النقطة كان عليها ان تواجه عقبات اخرى منها معارضة يهود فرنسا و[illegible] غير الصهيونيين لمخططات الصهاينة، ومسألة الحصول على موافقة الحكومتين الافرنسية والايطالية وتأييد الفاتيكان والغاء تدويل فلسطين الذي اقرته اتفاقية سايكس-بيكو . فأخذ كل من مالكولم وسايكس وسوكولوف على عاتقهم تذليلها ، واتجهوا الى فرنسا حيث استطاعوا احباط معارضة يهود فرنسا الذين يمثلهم « الاتحاد الاسرائيلي»

---

(١) مجلة الرائد العربي الكويتية ، عدد تموز ١٩٦٢ ، من نص وثيقة تاريخية بقلم جيمس مالكولم ترجمة خيري حماد .

(٢) استخراج مادة الأسيتون من بعض الحبوب بعد ان تعذر استيرادها من امريكا .

(٣) LOYD george , Mém oires de Guerre ' pp. 52 - 57

العـالمي ذو النفوذ الكبير ، والذين كانوا يبذلون كل جهد لتحطيم المشروع الصهيوني ، فاستطاع مالكولم ان ينتصر عليهم بما بذله من اساليب التمويه والكذب، وبذلك فوت عليهم فرصة التدخل في المفاوضات التي جرت بين ممثلي الصهاينة والسياسيين الافرنسيين والتي اسفرت عن كسب فرنسا الى جانب القضية الصهيونية .

اما ايطاليا والفاتيكان فقد توجه سوكولوف اليهما ، واتصل بالبابا وصدر بلاغ رسمي عن مقابلته معه جاء فيها أن البابا قال لزائره : « ان الفاتيكان واليهود سيكونان على علاقات من الجوار الطيب في فلسطين ». كما استقبل وزير خارجية ايطاليا البارون « سونينو » المستر سوكولوف بناء على الترتيبات التي اتخذت مسبقاً في السفارة الايطالية في لندن بمعرفة مالكولم وسايكس وتمت جميع الخطوات بمعرفة القاضي برانديس التامة وموافقته ، اذ كان هناك اتصال برقي مستمر بينه وبين الدكتور وايزمن (١) . ولعل اهم نتيجة توصل اليها سوكولوف في العاصمتين الافرنسية والايطالية حمل الافرنسيين والايطاليين على التنازل عن فكرة تدويل فلسطين وعدم اعتراضهما على انشاء الوطن القومي لليهود فيها (٢) .

لقد أتت الجهود المبذولة ثمرتها من دخول الولايات المتحدة الحرب في جانب الحلفاء في ربيع ١٩١٧ ، لكن بعض النكسات توالت فأدت الى تأجيل البت في اعطاء الوعد المنتظر لليهود ، ذلك ان الوزارة الانكليزية شغلت ببعض الاندحارات العسكرية البرية والبحرية التي وقعت في ذلك العام ، فصرفتها عن الاهتمام بمشكلة فلسطين واليهود . وزاد الامر سوءاً نشاط يهود انكلترا المعارضين للصهيونية واحتجاجهم على مابلغهم من عزم الحكومة البريطانية على اتباع سياسة مؤيدة للصهيونية في فلسطين . فاصدرت اللجنة المختلطة المؤلفة من الاتحاد اليهودي الانكليزي ، ومجلس المنتخبين اليهود (وهما المنظمتان اليهوديتان المعارضتان) ، بياناً شجبت فيه اعطاء حقوق سياسية لليهود في فلسطين، بل الاقتصار على الاعتراف لهم فيها بالتقاليد التاريخية والحرية المدنية والدينية وبحقوق مساوية لحقوق سكان فلسطين الآخرين ، وتسهيل السبل المعقولة للهجرة والاستعمار امامهم ، واحتجت على قول النظرية الصهيونية بان اليهود يكونون امة واحدة لاوطن لهم وليس في وسعهم ان يتمزجوا مع الاقوام القاطنين معهم لاسباب سياسية وقومية ، ذلك لأن اللجنة تعتبر ان اليهود ليسوا سوى طائفة دينية لهم حق المساواة مع اقرانهم الوطنيين من اي دين كانوا وفي

---

(١) الرائد العربي ، وثيقة مالكولم .

(٢) نجيب صدقة ، نفس المصدر ، ص ٢٤ .

اى بلد يقطنونه جنباً لجنب وايام ، وان اليهودية دين وليس لها علاقة بالسياسة (١).

لكن الجهود الصهيونية بذلت لمواجهة هذه الحركة بنشر ردود فورية صادرة عن رئيس الحاخامين الدكتور هرتز واللورد روتشلد والدكتور وايزمن . كما اعدت حملة مريعة تغلغلت في اوساط المنتخبين حملت المجلس على اتخاذ قرار مؤيد للصهيونية باغلبية كبيرة ادى صدوره الى استقالة رئيسه ونائبه ، فأسرعت جريدة « التايمز » الى نقل الخبر فوراً ، وحذت حذوها بقية الصحف البريطانية مما ترك انطباعاً قويا لدى الحكومة البريطانية التي قررت اخيراً استشارة زعماء اليهود في انكلترا قبل اتخاذ قرارها الأخير . ولكن القلق كان يسود الاوساط الصهيونية لعلمها بان اليهود المناهضين للصهيونية كانوا اعظم قوة من الصهاينة في لندن . وقد بعثت وزارة الحرب بالسؤال الى ثمانية اشخاص هم : ليونارد كوهن ، كلود مونتفيوري ، السر ستوارت صموئيل ، السر فيليب ماغنس ، اللورد روتشلد ، المستر سوكولوف ، الدكتور وايزمن بالاضافة الى الدكتور هرتز رئيس الحاخامين . وقد رد ثلاثة منهم : مونتفيوري وكوهن وماغنس رداً قوياً يعارضون صدور الوعد . وبينما كان السر ستوارت صموئيل شقيق هربرت صموئيل قليل التحمس له — مع انه يريد صدوره — جاء رد رئيس الحاخامين مؤيداً له كل التأييد ، فكان له بذلك أثر قوي في اقناع الوزارة بان الوعد المقترح سيقابل بالحماس من غالبية اليهود في بريطانيا .

وقد رافق الجهود المبذولة على النطاق الرسمي اصدار الكتب والمنشورات والمطبوعات والجرائد والمقالات المركزة التي كان يكتبها جهابذة الفكر ، والاتصالات الحثيثة بالعلماء والمفكرين وغيرهم مما كان له أثر كبير في تحويل عدد كبير من الرجال المهمين الى اصدقاء في جانب الصهيونية .

وهكذا بعد ان اختمرت الفكرة لدى الوزارة البريطانية ارتأى اللورد بلفور الذي طولب من قبل زعماء الصهيونية باصدار التصريح الموعود بان تهيء المنظمة الصهيونية مشروعاً لنص هذا التصريح ، فتألفت لجنة سياسية من الزعماء الصهاينة شرعت في الاتصال مع يهود امريكا بحيث كانت النصوص تدرس وتناقش وتعدل في الولايات المتحدة وفي انكلترا وتعرض بصورة غير رسمية على البيت الابيض وعلى وزارة الخارجية البريطانية الى ان اتفقت الاطراف الثلاثة على نص موحد اعتبرت فيه فلسطين باجمعها وطناً قومياً لليهود واعترف لهم فيه بحق انشاء حياة قومية في ظل حماية تنظم بعد النصر عند انعقاد مؤتمر الصلح . غير ان هذا النص عندما عرض على ممثلي اليهود غير الصهيونيين في انكلترا حملوا عليه حملة عنيفة

---

(٣) ج . دي‌ف . لودر : القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق (ترجمة نزيه المؤيد العظم) ، ص ١٩٢—١٩٤ ، من نفس البيان نفسه .

وروده برمته لاحتوائه على مايشير الى « قومية يهودية » بينا هم يعتبرون ان اليهودية مجرد دين ، وكان خوفهم من تكوين الوطن القومي واطلاق الهجرة اليه وخلق الجنسية اليهودية ان تضطرم الدول التي يقطنونها الى اعتناقها والهجرة القسرية الى فلسطين . لذلك كانت رغبتهم ان يقتصر التصريح على نص « انشاء موطن يهودي في فلسطين » ، وان يحتوي على فقرة تضمن لليهود المقيمين خارج فلسطين حقوقهم المستمرة وحرياتهم في الاوطان التي يقطنونها . وهكذا — بعد تعديلات واخذ ورد ومداولات بين انكلترا والولايات المتحدة — تمخضت المباحثات عن النص النهائي المعروف الذي صدر بشكل كتاب موجه من اللورد بلفور الى اللورد روتشلد ، وقرىء اثناء خطبة القاها الوزير في مجلس العموم في ٣ تشرين الثاني ١٩١٧ ، اي قبـــل سقوط القدس بيـــد الحلفاء ببضعة أيام .

اما مناقشة التصريح واقراره في مجلس الوزراء فلم يستغرق اكثر من خمس دقائق شرح بلفور لزملائه خلالها اهمية الوعد بطريقة مقنعة فانبرى لتأييده كل من اللورد ملنر ، والمستر سمطس ، ولويد جورج ، وانتهى المجلس الى قرار جاعي في الموضوع . وبعد اقراره فوراً خرج مارك سايكس من مجلس الوزراء ، وكان ينتظره في رواق وزارة الحرب كل من وايزمن ومالكولم ، وهتف بكلمة « الرمز » المتفق عليها بأعلى صوته قائلا : « جاء المولود صبياً » .

تحليل التصريح :

لاجدال في ان التصريح قد صيغ بشكل قصد منه ان يضم تعهدات غامضـــة ، وان يكون من المرونة بحيث يتكيف في المستقبل مع مقتضيات الظروف السياسية الطارئة .

ويلاحظ ان الوطن القومي الذي منحته انكلترا لليهود لم يكن يعني «الدولة اليهودية» بصراحة ، لامعارضة منها لأماني الصهيونية، ولامراعاة للطوائف الاخرى القاطنـــة في فلسطين ، وذلك ان مجرد ذكر « الوطن القومي » معناه الانحراف نحو وجهة النظر الصهيونية . ولولا خوفها من ان تزج نفسها في خلافات اليهود الداخلية من صهاينة قوميين ويهود اقليميين واندماجيين لما ترددت في منح اليهود حق تأسيس « الدولة اليهودية » في فلسطين ، تلك الدولة التي لم يكن حـــتى الصهاينة يريدون اقامتها فوراً لأنهم كانوا أقلية فيها آنذاك . ومع ذلك فقد اعتـــبر الصهاينة ان التصريح يعني «الدولة اليهودية» بعينها ، ولكن حينما تسنح الفرصة لاقامتها، فقد جاء في محاضرة القاها الدكتور وايزمن ، لشرح أهداف الصهيونية في نيسان ١٩١٧ (اي قبل منح التصريح بعدة اشهر) قوله: ان الكثيرين من اصدقائنا ينتظرون انشاء الدولة اليهودية حالا ، ولكن المطلعين على سير الامور يعلمون ان تنفيذ مثل هـــذا

المشروع متعذر في الوقت الحاضر . أجل ان هدفنا لانزال « الدولة اليهودية » ولكن بلوغ هذا الهدف لايأتي دفعة واحدة ، بل يجري على مراحل متعددة أولاها ان توضع فلسطين تحت حماية دولة صديقة ، كبريطانيا مثلا ، تسهل لنا الهجرة والسكن وتمكننا من تحضير الجهاز الاداري اللازم لبلوغ هدفنا . واستطيع ان اصرح بان الحكومة البريطانية موافقة على هذه الخطة ومستعدة لتسهيل تنفيذها(١)».

كما جاء في تصريح للورد بلفور بان التصريح لايتضمن بالضرورة « تأسيساً قريباً لدولة يهودية مستقلة ، لأن الدولة المستقلة لاترتجل وانما تنشأ ببطء وتدريجا »، وهو بهذا لاينفي تكوين « الدولة اليهودية » في المستقبل . ولم يخرج اللورد كورزن عن هذا المعنى بتفسير « الوطن القومي » بأنه يعني « تشكيل كيان سياسي مؤلف من اليهود ويحكمه اليهود ويدار لمصلحة اليهود »(٢).

والواقع ان التصريح يحمل طابع اللاأخلاقية السياسية بكل معانيها ، وهو مخالف تمام المخالفة لاتفاقية الحسين – مكماهون التي وعدت العرب باستقلال البلاد العربية ، والتي ليس فيها أية اشارة لاستثناء فلسطين في المخطط الذي عرضه الشريف حسين على انكلترا، بينما قد اشارت إلى استثنـــاء الساحل السوري غرب حلب وحمص ودمشق لمصلحة فرنسا .

هذا فضلاً عن ان التصريح قد تجاهل ان في فلسطين شعباً عربياً يشكل اكثر من ١٢ مثلاً من عدد اليهود القاطنين فيها لم تراع له حقوقه السياسية . وعندما حفظ التصريح للطوائف غير اليهودية حقوقها الدينية والمدنية فقط لم يذكر العرب حتى باسمهم بين هذه الطوائف وكأنهم الفرع واليهود هم الأصل بينما هو قد ألح على حقوق اليهـــود السياسية في الدول الاوربية مع أنهم اقلية فيها(٣). ومن لا اخلاقيته انه أعطي دون ان تؤخذ وجهة نظر سكان فلسطين العرب وهم أصحاب الأرض الحقيقيون فيها ، كما لم يؤخذ رأي أحد من زعماء العرب، ولا اتصل المتفاوضون مرة واحـــدة الى مايمكن ان تتعرض له مصلحة العرب في فلسطين من ضرر ينتج عن منح التصريح ، بل كان العكس هو الصحيح اذ اخـــذت جهود الدكتور وايزمن تنصب على التأثير في اعصاب « مارك سايكس » اثناء مباحثاته مع المسيو جورج بيكو الافرنسي حول تقسيم المنطقة العربية ، خوفاً من ان يجعل البرنامج اليهودي ملحقاً للقضية العربية التي يعالجها ، او بالتالي خوفاً من تجاهل مصالح اليهود في فلسطين

(١) نجيب صدقة : نفس المصدر ، ص ٢٥ .

(٢) الدكتور نورالدين حاطوم : محاضرات غير منشورة عن الدولة العثمانية واوربا في الحرب العالمية الأولى .

(٣) اكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، ص ٤٧ .

خلال بحث هذه القضية ، وهذا ماجعله يحتج على اتفاقية سايكس — بيكو عندما علم بها . وقد وصــل وايزمن الى غايته في ترويض سايكس اذ نراه يسجل في ص ٢٣٨ من مذكراته : « ان سايكس دخل فيمفاوضات مع الصهيونيين دون ان يكلمهم عن اتفاقية سايكس — بيكو وانه كان يعدل موقفــه لمصلحة الصهيونية هادفاً الى مراجعة الاتفاقية كي تتسع لمطالب الصهيونيين(١) » .

خلاصة القول أنه بإعطاء انكلترة لتصريح بلفور فازت الصهيونيــة بغايتها القوميـة المنشودة ، غير ان انكلترا من جهتها — وقد وهبت أرضاً ليست ملكاً لها — قد حسبت نفسها ضربت عــدة عصافير بحجر واحد : فهي قد ربحت عطف اليهود في العــالم أجمع وخلقت العداء العربي — الاسرائيلي في المنطقة فوضعت بذلك عقبة كأداء في طريق الوحدة العربية لاسيا بشطرها العالم العربي الافريقي عن الآسيوي ، ومهدت السبيل لانشاء سكة حديد حيفا — الخليج العربي (التي كانت تدور في خيالها ولم تتحقق) ، وأمنت شر الخطر على نفط الموصل ، وأمنت خفارة قناة السويس وسلامتها ، وانشأت درعاً يقي مصــر من الهجوم الخارجي ، واقامت الحرس الاستعماري في الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، واخيراً حققت حلم اللورد كتشنر المعتمــد السامي البريطاني في مصر باقامة حزام استراتيجي في منطقة الشرق الاوسط ضد الخطر الالماني والروسي الذي كان يتراءى امــام السياسة الانكليزية حينذاك ، حيثما لم تكن الحرب العالمية الاولى قد وضعت اوزارها بعد ، ولم تكن جيوش العثمانيين وحلفائهم الالمان قد طردت من سورية .

واذا كانت هذه الدراسة قد اقتصرت على وعد بلفور وبيــان الظروف التي احــاطت بتصريحه ، واوضحت صفحة من صفحات التآمر على عروبة فلسطين ، فلأن هذا التصريح هو أساس البلاء وجذر الشر الذي احاق بشعب آمن في دياره فنكل به وشرده ليقيــم على انقاض كيانه دولة دخيلة خلقت في هذه المنطقة لتكون ركيزة للاستعمار وآلة لتعكير الهدوء والسلام في منطقة الشرق العربي بأسره .

---

(١) الدكتور احمد طربين . تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ٢٩ — ٣١ .

حلقة التخطيط السوري

تعريف وتقديم:
الدكتور عبد الوهاب خياطة

بمناسبة انعقاد حلقة البحوث والدراسات حول واقع التخطيط وتطوره في سورية ، في المركز الثقافي العربي بدمشق(*) .

افتتح الدكتور عبد الوهاب خياطة الأمين العام لوزارة التخطيط الحلقة بالكلمة التالية :

يسعدني أن ارحب بكم في هذه الحلقة التخطيطية التي تعتبر بمثابة تجربة رائدة في قطرنا . واني لأشكر السيدات والسادة الحاضرين على تكرمهم بمشاركتنا الوجدانية وتلبيتهم هذه الدعوة آملا ان تستمر مشاركتهم الايجابية وتضحيتهم حتى اليوم الاخير من أيام هذه الحلقة لكي نستطيع ان نطلع على آراء اكبر عدد من المهتمين بشؤون بلدنا الاقتصادية والاجتماعية ولكي نستطيع ان ننقل الى رواد هذه الحلقة الكرام مالدينا من تجارب ومشاكل وتساؤلات .

* يراجع بحث الدكتور هشام متولي حول التخطيط في المجتمعات المتخلفة — في باب العلوم الاجتماعية من هذا العدد .

عندما بادرت وزارة التخطيط واللجنة الثقافية في جمعية العلوم الاقتصادية الى طرح فكرة اقامة حوار حول واقع التخطيط ليكون طليعيا ازاء التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت لدينا، فانها كانت تصدر في اقامة هذا الحوار عن قناعتين :

١ – فانطلاقنا الاول كان ينبثق عن ايمان عميق بأن التخطيط للتنمية عملية ديموقراطية لايختص بها الخبراء وحدهم وانما يجب ان تتفاعل فيها آراء الشعب على جميع المستويات . وتلك هي الوسيلة لكي نحصل على آراء هذا الشعب وان نقف على تطلعاته ونعبىء رأيه وطاقاته مع التخطيط .

ومن هنا كانت دعوتنا موجهة الى معظم المؤسسات التمثيلية القائمة في هذا القطر كالنقابات والغرف الاقتصادية ونأمل ان تكون هذه العملية فاتحة تقليد لمناقشة الخطط التنفيذية في مختلف فروع الاقتصاد وخاصة في المعامل ومؤسسات التجارة الخارجية والجمعيات التعاونية .

٢ – وقناعتنا الثانية تنبثق عن أن عملية التخطيط هي عملية تطورية لاتقف عند قالب محدد ولاترضى بمنهج او تكنيك محددين بل تسعى الى نقد ذاتها والتسامي على انجازاتها وتتغلب على تصلبات الروتين في مواجهة التطور والحركية .

ومن هنا كانت دعوتنا موجهة الى حملة القلم والرأي في قطرنا العزيز لكي نغتني بآرائهم ونفيد من تجاربهم ، ولنا شديد الثقة بأن تكرر هذه اللقاءات وان يستمر هذا النقد الذاتي في جميع قطاعات اقتصادنا وخاصة في القطاع العام سواء اكان ذلك في ميدان التخطيط أم في قطاعات الادارة والانتاج الاخرى وذلك بغية تقييم الأدواء وملاحظة الهدر لتجنب الفشل وتعيين الدواء لمعالجة المرضى.

ولا بد أن نعرض لكم أهم القضايا التي تشغل حيزاً كبيرا من ضميرنا والتي قد تصلح لالقاء بعض الضوء على اطار

هذه الحلقة ودون أن يكون هذا الاطار محددا حصريا لمواضيع هذه الندوة التي نريدها ميدانا لقدح الفكر وحلبة المباراة في الاسهام البناء .

تعلمون أيها الاخوة ان الخطة الخمسية الثانية قد أقرت منذ فترة قصيرة . ولقد جسدت هذه الخطة طموح شعبنا وآفاق تقدمه الاقتصادي والاجتماعي خلال فترة السنوات الخمس القادمة .

ولقد آن الاوان لكي نلتقط أنفاسنا بعد طول الجهد وقبل أن ننطلق من جديد في زحمة الخطط السنوية والخطط التنفيذية المفصلة وننظر من قمة عالية الى هذا الجهد الذي تم ونستعرض هذه المراكب الانتاجية التي نتمنى لها أن تسير في قافلة متواكبة متناسقة .

ولعلكم تعلمون ان الخطة ليست فقط مجموعات المشروعات التي ظهرت في قانون الخطة . ذلك مانسميه الخطة الاستثمارية وهو يعني الطاقات الانتاجية التي ننوي بناءها خلال الخطة الثانية .

وليست الخطة الاستثمارية رغم أهميتها النسبية الا جزءا من العمل التخطيطي الشامل . ذلك ان أساس هذه الخطة الاستثمارية اطار عام مفصل يحدد كم سيستهلك الشعب العربي في سورية خلال الخطة وخلال كل سنة من سنواتها . كما يحدد هذا الاطار حجم الانفاق الاستهلاكي الحكومي وحجم ادخار وحجم التبادل الخارجي ، واذا لم تسر هذه المتغيرات الاقتصادية ضمن الاطر المرسومة لها أو لم ننجح في جعلها تسير ضمن هذه الاطر فان الخطة الاستثمارية معرضة ولا بد الى اهتزازات وترنحات . ومن هنا كان اهتمامنا بالسياسات المختلفة من مالية ونقدية وعمالية وهي موضوعات نقدر أن تحتل جزءاً كبيراً من اهتمامكم .

ولعله من المناسب ، ان نطرح الاسئلة التالية لنناقشها في صومعة العلم بقدسية واخلاص الناسكين :

١ ـ لماذا نلتزم بالخطة الاستثمارية البانية للطاقات الجديدة ونضعها في شكل

قانون ملزم ولا ننتقل بسرعة الى وضع قانون ملزم أيضاً للانتاج القائم ؟ ان زيادة الانتاج القائم وتشغيل الطاقات الموجودة الى اقصى مردودها هو الدعامة الثانية في التنمية . ذلك ان جوهر التنمية هو زيادة الانتاج من سلع وخدمات . فلماذا لانجد في خططنا التنفيذية تفصيلا ملزما لحجوم الانتاج في القطاعات القائمة وتحديدا لمستلزمات هذا الانتاج من مواد اولية وقدرة كهربائية ويد عاملة ماهرة وغير ماهرة واستيراد للسلع والخدمات ؟

٢ – قضية ثانية : لقد حدد قانون الخطة كما تعلمون حجوماً معينة للإنتاج والدخل وللادخار والاستهلاك العام والخاص والعمالة وللتبادل الخارجي ولمقادير القروض الخارجية . فضلا عن حجوم الاستثمار ونوعياتها في القطاعين العام والخاص .

ولم تتوصل وزارة التخطيط الى تعيين هذه الحجوم الا بعد دراسة مستفيضة عن العلاقات الاقتصادية في الماضي وبعد تعديلات كثيرة على النموذج الاقتصادي الذي نسعى للحصول عليه في نهاية الخطة .

والسؤال الآن : كيف نعمل لكي نجسد هذه الأهداف ونجعلها حقائق ملموسة مشهودة نلتزم بها جميعاً ولا ندعها أرقاماً في خطة للتمني والرجاء نعرضها للخارج ولا نلتصق بها وتلتصق بنا في الداخل ؟

وكيف نعمل لزيادة الانتاج وتحسينه ورفع الانتاجية وتحسين التقنية واثارة الحوافز اذا كنا نقر الخطة بقانون ولا ندعم التخطيط يومياً في كل مظاهره ومناطاته ومناحيه ونتخذه وسيلة للعمل واسلوباً للحياة اليومية ولتوجيه الاقتصاد بكامل متغيراته ؟

٣ – قضية ثالثة : كيف يجب أن يدار الاقتصاد القومي في ظل التركيب الاقتصادي الحالي ؟

لقد حدثت تغيرات أساسية في هيكلنا الاقتصادي . كما أخذت تحدث تعديلات جذرية في علاقات الانتاج . ولكن هذا

التحول الاجتماعي والاقتصادي يطرح في حد ذاته مشاكل كثيرة يجب ان نتلمسها ونعالجها .

فملكية القطاع العـــام من وسائل الانتاج قد ازدادت زيادة هائلة . كما تمت السيطرة على مرافق اقتصادية هامة كالمصارف والتجارة الخارجية .

فكيف يجب أن تتم ادارة هـــذه القطاعات التي دخلت في ملكية القطاع العام ؟ ومن المعلوم ان مثل هذا القرار يتصل بالموقف الأولي المتعلق باعتبـــار الملكية العامة ملكية للدولة أو ملكية جماعية على الطريقة اليوغوسلافية .

ان تقرير موقف صريح واضح المعالم تجاه هذه القضية يعني بالتالي تحديد سياسة معينة لطريقة ادارة الانتاج ولعلاقات الانتاج . وليس القطاع الزراعي بأقل حاجة من القطاع الصناعي اوالتجاري لمثل هذا الموضوع .

وكلنا يعلم حاجة القطاع العـام الى تحسين ادارتـه وتخطيطه على مستوى الوحدات ابتداء وعلى مستوى القطاعات والكليات انتهاء .

وليست هذه الصعوبات خاصة بقطرنا بل لا بد من حدوث مثل هذه المصاعب في أي قطر وفي اي تطور من النـــوع والسعة التي تمت في قطرنا .

والامر كل الامر هو في المعـالجة وايجـاد الاطار الملائم لواقعنا وامكاناتنا دون تحجر في النقل ودون تصلب في التقليد .

٥ — ونرتفع بعـد هذا الى السؤال الكبير التالي : ماهو نوع التخطيط الذي نرغب في اقامته في بلدنا في ضوء معطياتنا الاقتصادية الحالية والتطورات المرتقبة ؟

هل نعتمد اسلوب التخطيط المركزي وندخل الى كل تفاصيل الحياة الاقتصادية حتى حساب كميات دبابيس شعر النساء ام نتخذ الاسلوب اللامركزي في التخطيط كما فعلت يوغوسلافيا منذ تموز من العـام الماضي وكما ستفعل هنغاريا وبولونيـا على ماترويه آداب التخطيـط ؟

ان الجواب على هذا السؤال مرتبط

بطبيعة الكيان الاقتصادي القائم كما أنه متصل بفلسفة الحكم السياسية وعندما يكون التخطيط لا مركزياً فما هي الوسائل التي تستخدم للوصول الى الغايات؟ مثال ذلك هل تعتمد ميكانيكية السعر واستقلالية وحدات الانتاج في تحقيق الغايات ام هل نطوع السعر ليكون احد الوسائل الادارية في توجيه الاقتصاد وادارته ؟

لقد طرح اوسكار لانجه منذ ثلاثين عاماً شعار اشتراكية السوق Market Socialism وكان قوله موضع شك في حينه رغم السلطان الادبي الذي كان يتمتع به هذا الاقتصادي الكبير في بلده وفي العالمين الاشتراكي والرأسمالي . الا ان التجربة اليوغوسلافية والاتجاهات الواضحة في بعض البلاد الشرقية نحو تقليدها وبذور افكار ليبرمان في الاتحاد السوفياتي تحمل على اعادة التفكير والتروي قبل التسرع والقفز المتحمس الى النتائج .

وسياسة الاجور والدخول هي احدى دعائم التخطيط الاساسية لأنها مصدر الفوائض الاقتصادية ومبعث الحوافز المادية لزيادة الانتاج وغاية السياسة الاشتراكية في الاجل الطويل . اقول : سياسة الاجور والدخول هذه، كيف يجب ان تتم ؟ داخل اي اطر يجب ان تتحرك؟ لا شك ان علاقات الانتاج يجب ان تتطور ولكن ماهي السرعة القياسية لهذا التطور؟ ان هنالك ضوابط كثيرة وهذه الحلقة ستعالج ولا شك هذا الموضوع بشكل مستفيض كما نأمل ولعلكم تعتبرون توازن الدخول وحجم السلع والخدمات المتاحة من الموضوعات التي يحسن الوقوف عندها في هذا المجال .

٦ ــ نقطة اخرى يحسن بنا تذكرها في هذه الحلقة .

الى اي الحدود نتوسع في التخطيط وكيف يجب ان يتم ذلك؟ مثال ذلك : لا بد ان نبتدىء تخطيط الانتاج ولكن أين نحن من هذا التخطيط ؟ هل نهتم بحساب الانتاج ومستلزماته على مستوى الكليات ونقف عند ذلك ؟ أم هل نسير الى تعيين نوعيات السلع

المنتجة وزمنيتها ؟ وهل باستطاعة وحداتنا الانتاجية ان تدخل في هذه التفاصيل وتلتزم بها ؟ وما هو دور المؤسسات النوعية الانتاجية التي اصبح احداثها ضرورة ملحة للبدء بعملية تخطيط الانتاج؟

وتخطيط الاستهلاك لا يقل خطورة عن تخطيط الانتاج. فهل ترى هذه النخبة المجتمعة هنا ان نقف في تخطيط الاستهلاك عند توازن الدخول مع السلع والخدمات المتاحة ماعدا بعض السلع الاساسية ام ندخل في تفصيلات قد توصلنا الى حدود البطاقات والطوابير ؟ وهل الافضل ان يتم تحديد الاستهلاك عن طريق السعر والضريبة ام عن طريق الدخول والاجر؟

اما تخطيط الصادرات والاستيراد فيخضع الى تساؤلات مماثلة لتخطيط الانتاج والاستهلاك ويرتبط بها ارتباط الاصابع باليد كما يخضع الى نفس المقاييس من الكفاية والربحية .

٧ – اما اختيار المشروعات الاستثمارية وتقييمها واعطاؤها الافضلية على غيرها فهو موضوع تكنيكي أساسا من حيث حساب اي المشروعات يفضل غيره لاعتبارات العائد الاجتماعي او اعتبارات الربحية او للاهتمام بتشغيل اكبر عدد من القوى العاملة ام يحسن التركيز لاعطاء اكبر انتاجية ممكنة ولو كان ذلك على حساب بعض البطالة . وهل نفضل الصناعات الثقيلة على الخفيفة ام نعمل توازنا معقولا بينها ؟

٨ – وليس التخطيط المالي بأقل اهمية من الموضوعات السابقة . فكيف تحقق المؤسسات الفوائض وكيف يجب ان يتم توزيع هذه الفوائض (ضريبة دخل – ضريبة على الارباح الاستثنائية – ثم التوزيع على صناديق المؤسسة المختلفة (الاحتياطية) – ثم الدخل الشخصي للعمال والموظفين . ويخضع هذا الدخل الشخصي الى ميزانية واقتطاعات للتأمينات) وكيف يتم توزيع مجمل موارد المؤسسات على التكاليف المختلفة (تكاليف التشغيل وتشمل تكاليف المواد واستهلاك رأس المال والفائدة على الاصول الرأس مالية

الثابتة والعامة ـ والريع الريكاردي ـ وضريبة المبيعات ؟) ويحتاج الامر الى تحديد الاجهزة التي ستقوم بتنفيذ التخطيط المـالي وبصورة خاصة تحديد دور المصارف كأدوات لتنفيذ التخطيط المالي .

ايها السيدات والسادة :

هذه بعض الموضوعات التي نقترح ان تولوها من عنايتكم وخبرتكم مايلقي عليها كثيرا من الضوء .

واجد من واجبي قبل ان اترك هذا المنبر ان اتقدم بالشكر والعرفان الى السيد وزير التخطيط نظرا لما لاقيته لديه من تشجيع ودعم لعقد هذه الحلقة ولما خصهـا من عناية ورعاية تحفظها لسيادته .

وانتم تلاحظون ان المعالجات الاساسية لمعظم هذه القضايا قد انيطت بزملاء لنا نعتز بخبرتهم وعلمهم قبلوا متبرعين مختارين التصدي لها واستسمحكم في ان اقدم لهم باسمي وباسم وزارة التخطيط وباسم اللجنة الثقافية لجمعية العلوم الاقتصادية جميل الشكر والتقدير .

وليس من شك في ان السادة المعلقين والناقدين الذين رضوا ان يأخذوا على عاتقهم تمثيل المجموعة في اثارة أهم القضايا تاركين النقاط التفصيلية الخاصة للمناقشة سيسهمون بسهم وافر في نشاط هذه الحلقة وقد استحقوا بـذلك جزيل شكرنا وتقديرنا .

ونظرا للدور الذي ينتظر ان تحتله المناقشة العامة والموضوعية فاننا نشكر تلبيتكم المسؤولية لهذه الدعوة ونعتبر ذلك نصراً لهذه التجربة الرائدة ، تجربة طرح قضايانا العامة الأساسية في حلقات تخضع العلم والفكر لتحليل مشاكلنـا وانارة طريقنا .

ولابد لي من التوجه بالشكر الى السادة اعضاء اللجنة التحضيرية الذين اسهموا

معنا عن ايمان وسخاء في الاعداد لهذه الحلقة لتأتي محققة للآمال .

ايها السادة : ان هذه الحلقة نقدذاتي بين افراد الاسرة الواحدة وتسامالتغلب على مجاملة النفس وبحث عن الحقيقة في صوامع العلم .

فلنسر على بركة الله .

---

* ان هذه الكلمة الخصيبة المتلئة بالافكار الكبيرة ، محصورة في مضيق التعابير والمصطلحات – تدل في اقل ماتدل عليه ، ان الدكتور الخياط قد وضع اصبعه على نقطة الانطلاق في التخطيط ، ولعلها لدينا نقطة الضعف ، على اعتبار ان الخطة لاتزال عندنا عملية متسرعة ، غير مستندة الى الفكرة القاعدة ، التي ترسو فوقها تكوينة الخطة وسياستها . وان ماذكره الدكتور عن افكار (لانجه) البولوني في ادخال (السوق) على الاشتراكية ، وهما في الأصل نقيضان ، وماذكره عن افكار ليبرمان السوفييتي ، عن ادخال الحافز الفردي ، في جملة العمل الجماعي ، وهما في الأصل نقيضان – ان ماذكره الدكتورعابراً بحاجة الى تفصيلوايضاح ليعلم رجال التخطيط كيف يشرعون ، بآخر مابلغه الفكر الاشتراكي من الليونة والمرونة ، ايديولوجيا وعمليا . وليتهيأ للمخططين سبيل اشراك القطاع الخاص في جهود القطاع العام ، في مرحلة الانتقال هذه التي يعيشها مجتمعنا – المجتمع العربي عامة – تحقيقا لديموقراطية الخطة ،وهي بين أهم أهدافها ، وديموقراطية الخطة تعني في اقل ماتعنيه حشد جميع امكانات الشعب حشداً طوعياً بل اكثر – حماسياً – ليس من اجلاتقان وضع الخطة ، بل لما هو اجدى من ذلك.حسن تنفيذها ، وجني قطافها ، بحيث لايتناقض – كما يقول مثلنا العامي الرائع – حساب السرايا ،مع حساب القرايا..!!

– رئيس التحرير –

قضيّة أدبيّة قوميّة

الأدب المهجري

معجزة العروبة في العصر الحديث

— ٣ —

عرض وتحقيق: فريد جحا

تحدثت في عدد تشرين الأول من المعرفة عن (الأدب المهجري معجزة العروبة في العصر الحديث) وقدمت الأدلة على صحة هـــذا العنوان ، ثم مضيت في عدد تشرين الثاني فسردت اجوبة ادباء المهجر وشعرائه تفسيراً لهذه المعجزة التي قدمها المهاجرون العرب دون غيرهم من سائر المهاجرين.

وكان هذا العدد مخصصاً لدارسي أدب المهجر والمعنيين به ، ولكن الاستاذ نظير زيتون أديب المهجر الكبير تلطف فأرسل الي جواباً آخر على استفساري انشره في مفتتح هذا القسم ، ونمضي بعد هذا لنقرأ ما كتبه الاستاذ فؤاد الشايب في هذا العدد، ثم الدكتور عبد الكريم الأشتر والأستاذان محمد عبد الغني حسن ويعقوب العودات والدكتور عمر دقاق في العدد المقبل .

ماهو في رأيكم تفسير ظاهرة كون المهاجرين العرب الى اميركة هم وحدهم الذين انتجوا أدباً بلغة الوطن الذي فارقوه دون سائر المهاجرين الاجانب الى بلدان العالم الجديد ؟

ج — متى علمنا انه لا سبيل الى المقارنة بين حالات المهاجرين السوريين واللبنانيين وحالات المهاجرين الأجانب من اسبانيين وبرتغاليين وايطاليين والمانيين وافرنسيين وارلنديين وسواهم ، هان علينا الجواب بشرح الأسباب التالية :

١ — ان هجرة هؤلاء الاوربيين ، ومثلهم اليابانيون والصينيون، كانت هجرة منظمة ترعاها وتشرف عليها حكوماتهم بالاتفاق مع حكومات اميركة ، وكان الاختيار يقع في الدرجة الأولى على العمال الزراعيين والى جانبهم اصحاب المهن والصناعات اليدوية، وكان ينصرف كل واحد الى عمله ومهنته فلا يتعداها الى سواها ، حتى اذا ابتسم لهم النجاح اتسعت اعمالهم وانتقل نشاطهم الى ميادين اخرى .

أما الهجرة العربية التي اقتصرت على الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين ، فكانت على النقيض غير منظمة وغير قانونية وكأنها عملية تهريب بشري ، هذه كانت حالها في العهد العثماني وما تلاه ، وكان معظم المهاجرين ممن حرثوا الارض وتعاطوا المهن والصناعات اليدوية المختلفة، ولكنهم انصرفوا كلهم تقريباً الى التجارة مبتدئين بأبجديتها مع أن من مارسوها هم النسبة الصغرى .

٢ — كانت حكومات العالم الجديد تحتضن هؤلاء المهاجرين الاجانب وتقطعهم الاراضي الزراعية وتذلل لهم المصاعب وتسهل كل اسباب العمل والمعيشة ، كما كانت تدفع عنهم نفقات السفر الى الموانىء

البرازيلية ومنها الى اماكن العمل مدفوعة بحاجتها الماسة الى الايدي العاملة .

اما مهاجرونا فما اصابوا شيئاً من هذه الرعاية ، لأن هجرتهم كانت كاقلناغير منظمة لاتشرف عليها حكومة ولاترعاها مؤسسة ، فكانت نفقـــات سفرهم الى امريكة وسائر تنقلاتهم تصرف بحسابهم الخاص ، وكثيراً ماكانوا يستدينون ويرهنون مايملكون ، مؤملين ان يفوزوا بما يشتهون في البلد الميمون .

٣ — كان لهؤلاء المهاجرين الاجانب سفارات وقنصليات وشركات صيرفية وصناعية وتجارية ترعاهم وتسدد خطاهم وتمول مشروعاتهم الزراعيـة والصناعية والتجارية وسواها ، على حين ان مغتربينا لم يكن لهم من يهتم بأمرهم او يدعمهم ويرفدهم لامادياً ولا أدبياً ، وكأنهم في غربتهم أيتام ، ولكن ماتاهت لهم أقدام ، بل جاسوا على موائد العزم والاقدام ، كراماً واي كرام ، وفي الجوانح حماسة وشجاعة وضرام ، وفي الخواطر كفاح وخصام ، وفي الغيب كتاب مختوم ستتولى فضه الأيام ، وفي القلوب ايمان بالمستقبل البسـام .

٤ — كان المهاجرون الأجـــانب ينعمون في اوطانهم بالحرية والحضارة والنور ويعتزون بشعوبهم ودولهم وجيوشهم ويفاخرون بامجادهم التاريخية وفتوحاتهم الحضارية ، وحينا وفدوا على جمهوريات الامريكتين لم تقع عيونهم واذهانهم على شيء جديد من حرية ومدنية وعمران وسائر ما الفوه في بلدانهم ، ولكن وقعت على ارض بكر خصيبة شدتهم اليها فكان لهم الزرع والضرع ، وكانت لهم في المدن أيديهم العاملة في ميادين المهن والصناعات الخفيفة الصغيرة ، فماقامت في وجوههم عراقيل ، ولا ارتدوا لباساً هو عليهم دخيل ، ولامست قلوبهم وحشة الرحيل ، ولا صدمتهم المشقـات فاستعانوا بالصبر الجميل .

وكانت حالة مهاجرينا العرب على العكس تماماً . فقد وقعت ابصارهم واذهانهم

كما قلنا على حضارة جديدة لم يألفوها ، وعلى نهضة عمرانية وثقافية لم يعرفوها ، وعلى تقاليد وعادات ومسالك لم يتعودوها ، وعلى مذاهب ومشارب لم يتذوقوها ، وعلى اتجاهات ودروب وميادين لم يسلكوها ولا طرقوها ، وكان عليهم ازاء ما رأوه وما لمسوه وما تحسسوه ان يسبقوا الزمن وان يجتازوا مئة سنة او اكثر في بضع سنين ، وأن يسدوا الثغرات ليرافقوا الحياة الجديدة ، فكان لهم صراعهم المادي والقومي والاجتماعي كما ذكرنا سابقا ، اضف الى هذا الصراع العملاقي ، مناوأة بعض العناصر الطبيعية والبشرية ، وهي اجنبية غير امريكية والحديث عنها يطول.

٥ — ان اصحاب المواهب الفكرية المتفتحة من ابناء الشعوب الاوربية ، لم يفكروا قط بالنزوح الى العالم الجديد ، انهم من بناة عصر النهضة وخلفاء اولئك الرواد المنشئين العباقرة الذين بعثوا الفكر من مدفنه كما نفضوا عن الكلمة غبار القرون المظلمة فازدهرت الآداب والعلوم والفنون ، وصاغوا للعالم (العصر الذهبي) ان لهم في اوطانهم كل ما يشتهون من شهرة وسلطان ومجد . . وهم يأبون لكرامتهم ومكانتهم ان يكونوا (بضاعة بشرية) بوسم التصدير الى الخارج ، في حين ان الشعوب المتعددة كانت تستورد (بضائعهم) الأدبية والعلمية والفنية.

وكان من أصعب الصعاب على اخوانهم المهاجرين أن يخلقوا ادبا مهجريا بلغات اوطانهم التي قطعت شوطاً بعيدا في ميادين الثقافة والأدب والاجتماع . واذا برزت لأحد هؤلاء المهاجرين موهبة خلاقة من فكرية او ادبية او فنية عاد الى وطنه ليصقلها ويستكمل لها معداتها ثم يمكث فيه . وقد حذا بعض ادبائنا المهجريين هذا الحذو فقد عاد جبران من الولايات المتحدة الى بيروت ليدرس العربية في مدرسة الحكمة ، وانتقل الريحاني الى لبنان حيث تلقى قواعد العربية ، وسافر جبران الى باريس ليصقل موهبته الفنية وعاد الى الولايات المتحدة رساما مبدعا يخلب العقول شرقا وغربا .

فالمهاجرون الاجانب كانوا اذن اعجز من ان يخلقوا ادبا مهجريا بلغات اوطانهم لأنه يستحيل عليهم ان يدانوا ادباء شعوبهم ولقد ادركوا هذه الحقيقة فتورعوا ولم يسخروا بانفسهم.. وما كان (للظالع ان يدرك شأو الضليع) كما قال الحريري .

اما اخواننا المهاجرون فقد كانت مواهبهم الفكرية مادة خامية تقريباً او هي اسيرة الكبت والحرمان والاضطهاد. والأسير هو الذي يفتقد الحرية والانعتاق والعين التي يغشاها الظلام هي التي تنشد النور والاشراق ، والبطن الطاوي هو الذي ينادي الادام والرقاق ، والمقعدهو الذي يبحث عن الحركة والانطلاق ، ولاغرابة بعد هذا اذا تفتحت هذه المواهب وانطلقت في المهاجر الامريكية تحت لواء الضاد .

ولنذكر عندما ندرس الادب العربي في المهاجر واثره البليغ في الاوطان العربية ان الادب العربي في اواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين كان يقاسي ازمة شديدة مزمنة تركته جامداً هامداً خامداً ، خاوياً تلفه دياجي ستة قرون من السيطرة الاجنبية والاستبداد والتخاذل والتابعية البلهاء والانهزامية النكراء والاتكالية العمياء . لم يكن الفكر العربي خاملا عقيما في هذه الحقبة المدلهمة ، ولكن العوامل السياسية الخارجية والداخلية وفي رأسها فقدان السيادة القومية والاستقلال والحرية الفكرية ، هي التي حكمت عليه بالتدهور والجمود فما ان تحرر من القيود والعوامل السلبية حتى مزق الاكفان ، ونهض مبعوثاً بهياً بانيا خير بنيان ، منتفضا منطلقاً شهابا متألقاً بين الشهبان ، وقد غالب ما أفسده الزمان ، واستوفى ما فاته من سلطان ، وليس لمكابر ان ينكر على الغربة في امريكة أثرها البارز في هذه الانتفاضة والانطلاقة والاشراقة .

وهنا لا بد لنا من الاعتراف بانه لو كانت البلدان العربية تنعم بمثل الحضارة

الاوربية التي ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون ايما ازدهار ، وسار الفكر من فتح زهار ، الى آخر جبار وتفتقت العبقريات عن ازهار وانوار ، نقول لو ان البلدان العربيـــة استقدمت نهضتها الحضارية والعلمية والادبية والفنية قرناً او اكثر اي قبل ما ابتدأت الهجرة العربية الى العالم الجديد ، لما كان للمهاجرين على مانظن ، متسع لزيادة فصل واحد على موسوعة الادب العربي الحديث ، اي ان شأنهم في هذا المضار لم يكن ليختلف عن شأن المهاجرين الاجانب الذي اعجزتهم روائع آدابهم عن التأليف بلغاتهم الاصيلة.

كان رفيقنا جورج حسون معلوف رحمه الله اديباً موهوباً واسع الثقافة يجاري بلغاء المنشئين ، غير انه كان مقلا ، فقد يمر العام وهو (صائم) عن الكتابة فقلت له يوماً : « غريب امرك ياصاح ، القلم في يدك مطواع نثراً وشعراً ولك من ثقافتك الواسعة عربية واجنبية مايتمنى بعضه كثيرون من كتابنا ، فعلام هـــذا التكاسل ؟ » فابتسم واجاب : « ليس هناك من تكاسل ، وكل مافي الامر اني اقرأ القرآن ونهج البلاغة وعباقرة الكلمة العربية ، فأنهيب واتورع ويجمد القلم في يدي ، واقرأ الشعر العربي الاصيـــل جاهلياً واموياً وعباسياً واندلسياً ، فتجف القوافي في دواتي .. » قلنا ، اذا كان في هذا الجواب منتهى التقديس للتراث الفكري العربي ففيه ايضـــاً شيء من الاجحاف للفكر وللثقافة الحديثة ، ذلك ان لكل عصر منهجاً ومقياساً ، ولكل فكر اسراره ونبراسا ، ولكل يراعة عبيرا وانفاساً ، ولكل قلب خلجة واحساسا ، واحزانا واعراسا ، ولكل جمال انماطاً واجناساً وحقولاً واغراساً . ولكنه تغمده الله برضوانه ، على شدة تخشعه وتورعه ترك للفصحى تراثاً نفيساً تمثل في كتابه (اقاصيص) وعشرات المقالات والدراسات المنشورة في مجلة (العصبة) وسواها ، فما الظن بعد هذا بالمهاجرين الاجانب الذين ملأت روائع آدابهم الدنيا؟

٦ – اذا كان المهاجرون الاجانب لم يستطيعوا ان يخلفوا لشعوبهم أدباً مهجرياً ابداعياً كما صنع المهاجرون اللبنانيون والسوريون – واعجب العجب انه لم ينبغ بين المهاجرين الفلسطينيين على كثرتهم وانتشارهم في كل امريكة اديب مرموق – نقول اذا كان اولئك المهاجرون لم يخلقوا ادباً مهجرياً ، فقد استطاعوا ان يخلقوا شيئاً من الادب الصحفي الرصين ، اذ انهم انشأوا عدداً كبيراً من الجرائد الممتازة ، فكان لهذه الجرائد المنتشرة في طول العالم الجديد وعرضه صحفها الراقية موضوعاً ومادة ونوعاً وحجماً . وقد كانت تستكتب كبار الادباء والسياسيين والمفكرين الذين ينتمون الى اوطانها ، كما كانت تستعين بالمراسلين الخصوصيين لموافاتها بكل مايهم القراء بل كثيراً ماكان يتولى رئاسة التحرير كاتب تحرير كبير يستقدمونه من الوطن تعزيزاً لمكانة الجريدة ونفوذها ورفع مستواها الفكري والادبي والمعنوي والسياسي لتضاهي كبريات الصحف العالمية .

ولو شئنا ان نوازن بين صحافتنا العربية المهجرية وصحافة الجوالي الاجنبية لشالت كفتنا ورجحت كفتهم اضعاف المرات ، والسبب واضح وهو ان حكومات هذه الجوالي الاجنبية وسواها من المؤسسات الكبيرة كانت تمد صحفها بالمعونات والمكافآت المالية والمعنوية فتنمو وتزدهر وتؤدي رسالتها على اكمل شكل .

ولعلي لا اعدو الحقيقة اذا قلت ان اغلب حكوماتنا العربية كانت الى عهد قريب جداً ، شبه عبء ثقيل على صحافتنا المهجرية التي اخذت نجومها بالأفول بعد كفاح شاق طويل ، ولكنه مشرق نبيل ، حفيل بجيل .

هذا هو جوابي ، واذا كنت قد اسهبت بعض الاسهاب ، فلكي يسهل على القراء تصوير الواقع الذي عاشه مغتربونا في العالم الجديد بالمقارنة الى واقع المغتربين الاجانب .

حمص ايلول ١٩٦٦

جواب الاستاذ فؤاد الشايب :

الاخ الاستاذ فريد جحا

تحية اخوية . وبعد فانني اكرر لك شكري وتقديري لما تبذله من مجهود ثمين في خدمة الادب المهجري ، لاحلاله مقامه الفكري والقومي في حياة المجتمع العربي الجديد ، دفقة نور ، وحافز نهضة ، وبادرة خصب وابداع .

وقد احسنت كل الاحسان باقدامك على استفتاء الرواد ممن نشروا جناح العروبة والعربية في المهاجر ، فاعزوا امة العرب ولغة العرب ، وفتحوا للتجديد والابداع صفحة مشرقة في تاريخ الادب والفكر عامة . فعززت البحث بالشاهد الحي ، واسديت بذلك كله معروفاً جميلا لادب بلادك .

جوابي على سؤال تحقيقك الذي وجهته الى بعض المعنيين بالادب المهجري سيكون مقتصراً على العناوين الكبرى والخطوط العريضة ، مما قد يصلح قاعدة انطلاق لبحث مستفيض في هذا الموضوع ، ما اظن الا انك موفيه حقه من الدقة والتفصيل . فلنتركه لك وحدك .

سؤالك : ماهو في رأيكم تفسير (ظاهرة) كون المهاجرين العرب الى امريكة هم وحدهم — من دون سائر المهاجرين — الذين انتجوا ادباً بلغتهم القومية الام .

وجوابي :

« في البدء يجب التفتيش عن سر الظاهرة في جوهر الذات . ان هؤلاء الرواد ممن يجول حولهم التحقيق ، هم عباقرة . والعبقرية فتح يكاد يبدو انه متجرد عن عناصر ظهوره ، واحياناً عن منطق الحدث العام . انهم كالجواهر النادرة قذف بهم شاطىء المتوسط العربي الى شواطىء الاوقيانوسات القصية ، عندما تحطمت عنها اصدافها بالارتجاج العنيف ،

كان ذلك ايذاناً بتفجيرها ، لابتكوينها. ومايمكن ان نذكره من عوامل تاريخية واجتماعية ونفسية في حياة هؤلاء الرواد العباقرة ، ليس الا من عناصر الغذاء ، لا من عناصر التكوين . كان ظهورهم انبثاقاً وليس تجمعا . انهم حدث غير عادي في حقبـــة من الدهر اغرقتها العاديات !

فاذا اعترفنا بالعبقرية سراً للظاهرة ، جاز لنا من بعد ان نبحث في العوامل التي جعلت ادباء المهاجرين العرب وحدهم دون سواهم ينتجون ادباً بلغتهم القومية الأم .

لنقل ان العبقرية مهما كان شأنها من الندرة والطفرة والتصعيد فوق المستويات المطروقة، لابد انها تتصل بجذور بعيدة ملازمة للارض والمناخ والتاريخ. واولى بنا ان نعترف بهذه الجذور تجنباً لربط الاحداث الخارقة بالعلل الميتافيزيائية . ومن هنا اعود لاكرر ان تحليلي يقتصر على عوامل التفجير، لاعلى عوامل التكوين.

لأن هذه ، عوامل ملك اصحابها وحدهم.

وفي رأيي ان لهذه العوامل وجوهاً عدة . منها :

اولا — انني اقسم هجرات الشعوب الى الدنيا الجديدة ، بل الهجرات عامة ، الى نوعين : **هجرة مناخ،وهجرة كلأ،** فهجرات الطيور الجماعية او بعضها — مثلا — هجرة مناخ ، وترحل الماعز بين المراعي ، هجرة كلأ .والفرق بين هجرة العرب الى الامريكتين وهجرة الشعوب الاوروبية والافريقية اليها ، ان هجرتهم مهما كان فيها من رجاء الكلأ ، فهي متسمة على الاغلب ، بالخروج الى المناخ الملائم لنمو الحياة ، لالحفظ النوع . بينما فسداد هجرة الشعوب الاخرى ،نوع من الزحف الغريزي نحو مراعي الخصب ، اوالسوق القسري نحو محاشر استثمار اليد المسخرة .

فاذا كان بعض المهاجرين من تلك الارواح النادرة ، ظهر المشهد على حقيقته والتفجر على روعته . **واذ بهذا المهاجر هارب من الظلم والاضطهاد والاذلال**

بالتجويع ، لاهارب من الجوع لمجرد انه آفة مادية ، او غول خرافي . ولعل الهاربين من عسكرية السفر برلك ، اكثر عدداً من الهاربين من خبز التراب والشعير . اذ يخدم الناس في الحروب وطناً .. وقضية . ولم يكن اخواننا ليشعروا تحت النير والسوط بأن لهم وطناً .. وقضية . وانه لأهون على العربي ان يأكل التراب من ان يعفّر به جبينه ! من هنا منطلق الهجرة العربية نحو الاوقيانوسات . وبهذا تميزها عن سواها . انها هجرة اجواء . لا هجرة زحف على التراب . وفي الاجواء تنشد القيم .. لافتات الارزاق

هذه واحدة .

٢ ـ اما الثانية ـ فقد طاردت اللعنة مهاجرينا ، بعيداً في الدنيا الجديدة . فاذا بهم (توركو) من همج (الامبراطورية المظلمة) ، وليسوا ابناء عرب . فشق عليهم الأمر ، وذاقوا امرارة العزلة والضياع .

وهنا ، تأتي المأساة لتحفر في اعماق النفوس وتفعل فيها العظيم ، في خروج الهجرة من تيه الضياع . ولم يكن (الخروج) العربي ممكناً الا بشرف الانتساب . وهاهم المهاجرون يشرّقون نحو منابع النسب ، في هجرة روحية جديدة .

لن استطرد في شواهد هذا الخروج الكبير . فكلنا يعرف شيئاً أو اشياء عن اعتزاز جمهرة المهاجرين بعروبتهم ، تحدياً للعنة (التوركو) وتعبيراً عن الذات ، وذوداً عن الكرامة . فاذا كان المهاجر صاحب احساس فني ، وذوق شاعر ، يحيط بعظم المأساة ، هاجت مشاعره وتدفقت خواطره ، ليغدو الانتساب لديه أكثر من غضب وردة فعل : شوقاً ، وولهاً ، وحنيناً ، وصعوداً في معارج النزاهة .

وبهذا أيضاً تميزت الهجرة العربية عن سواها من هجرات الشعوب : بالتحدي . والتحدي ـ كما يقول المؤرخ الفيلسوف ارنولد توينبي ـ عنصر من عناصر التكوينات القومية

في التاريخ ، حتى بين انساب مختلفة متجاورة ، فكيف به بين ابناء نسب واحد .

فاذا قيل ان الهجرة العربية الى امريكا الشمالية ، لم تتعرض لمثل ما تعرضت له في الجنوبية ، بسبب ارتفاع المستوى الثقافي، قلنا ان الشعور بالغربة في اجواء حضارة مادية ساحقة ، كان رد فعله لدى العرب — عرب الشمال — رفضاً لشروط الحياة المادية وتسامياً الى آفاق انسانية روحانية ، تميز بها أدب الرواد هناك . **وسواء أكان رد الفعل في الجنوب ، قومياً ، وفي الشمال** انسانياً ، فهو في **كلا المهجرين ، تحد للقيم السائدة والمفاهيم الجائرة ، نابع من طبيعة أرض التراث وتاريخها . وبدلاً من أن يتأثر العربي بالأجواء الصاخبة فقد أثر فيها . ولم يكن أدبه انحرافاً في التيـــار ، بل تصعيداً ضده .**

وهذه ثانية .

٣ — أما الثالثة — بعد ان قادشرف الانتساب نخبة مهاجرينا الى الغوص في تاريخ العرق الذي يتحدرون منه ، وكان ذلك طبيعياً ، قادهم التاريخ الى كنوز اللغة ، وقادتهم اللغة الى منابع الأدب ، مرحلة اثر مرحلة ، او عبر مرحلة واحدة ذات خطوط متصاعدة . فاذا بالمهاجر العربي الذي اكتشف تاريخه ، ووعاه ، وتفاعل مع لغته ، وتأدب بأدبه ، اكثر من مؤرخ ، وأفقه من لغوي ، وأوسع من أديب ، وأشعر من شاعر ، ليصعد الى منابع القومية العربية ، ويتكون في وسط عن المهجر ، بؤبؤاً للعروبة ، ونوراً يفيض في قلبها . حتى الفئة الكبيرة التي أثْرَتْ وأغناها الله ، لم يكن مجد الثروة ، بديلاً لديها عن مجد الأدب ، ولم تكن الربوع التي طابت لروادنا ، بأطيب من وطن الروح الذي هبطوا منه ، واليه يرجعون .

وهكذا ترتبط لدى المغترب العربي ، جذوره القومية ، بجذوره الفكرية والأدبية ، بعد أن اكتشف تاريخه في

أعلى منابعه وأصفاها . فهو قومي عربي مثالي – بالممارسة الحياتية وبالثقافة معاً – يتغنى بأمجاد امته ، وقيمها ، ولا يفصل بين القيم ويفاضل ، الا ليرفع القومية فوق السياسة ويعزل العصبيه عن التقوى ، تنزيها للعروبة عن ان توطئها (عثمانية باغية) لشهوة التسلط والقهر .

ان حياة المغترب العربي ، سلسلة من المغامرات اكتشف فيها ذاته القومية في مداها الانساني . وقد جاء ادبه تعبيراً عن عبقرية قومه ، واشواق انسانيته . والعروبة بفطرتها ، لم تكن سوى نزوع انساني شديد الطموح ،قوي الاجنحة . ولم يكن الادب المهجري العربي ، سوى امتداد لهذه الفطرة العربية وتدفقاً لموجة من موجاتها .

تحت هذه الاضواء بوسعنا ان ندرس الأدب القومي المهجري ، والادب الوجداني ، والوصفي ، والروحاني ، والفلسفي ، والتأملي . ولا عبرة لما قيل عن تأثر روادنا العباقرة بنفح الادب الغربي ، وتثقفهم بثقافة العصر الغنية وشيوعها في ادبهم . **ان هي الامزنة وطبت ارض التراث وعراره ، ففاح طيب الارض ، وأونق بالزهر والندى شيح العرار .**

وهكذا فان الغوص في التاريخ تفتيشاً عن الذات وتحقيقاً لها ، مما ادى بالتلقائية، الى حب اللغة وطرب الانشاد بها – خاصة ثالثة – تفرد بها المهاجرون العرب في الامريكتين . والشعوب الاخرى لم تحتك بمثل مأساة العربي، ولم تحفزها حوافز هجرته ، ولم يهزها مثل طموحه ، بل قد طاب لهجراتها الذوبان والضياع لتتلقى روافد الرزق على الشاطىء القريب وعن اهون سبيل . حتى لو صدر عنها ادب ، فليس بالادب الذي له اعماق المأساة وابعاد الطموح .

ان الادب العربي المهجري بمشهده العام، وبادق تفاصيله وبحياة رواده فرداً فرداً شمالاً وجنوباً، يبدو لنا واضح المعالم

اذا درسناه في ضوء هذه الاعتبارات الثلاثة :

ان هجرة العربي هجرة مناخ لا هجرة كلأ .

ان موقفه في الغربة موقف تحد لا موقف ركوع ، او مجرد ارتزاق .

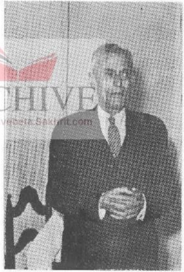
ان الثقافة لديه ، ليست ثقافة بهرج وزينة ولهو : بل ثقافة تعبير عن الوجود، وطموح الى التفوق .

وكل ساعة من عمرهم ، وكل قطرة من حبرهم تنطقان بهذا .

•



مع فقيد الأدب المهجري توفيق ضعون



من نخلة ورد

— سان باولو

هـذا البدوي النـاحل ، المنتصب كالرمح لم تثن عوده المعارك .. توفيق ابن فضل الله ابن يوسف ضعون ، الغساني اصلاً الحاصباني جداً وأبا ، البيروتي مولداً والزحلي نشأة ، هذا البدوي خصته الطبيعـة بحصة حياتين وغريزتين .

الاحرى ان العقل عنده ، شأنه عند الانكليزي يوم عز امبراطوريته ، صار غريزة .

(*) الأديب المهجري الذي نعاه للمعرفة الأستاذ نخلة ورد — في عدد سابق — ٥٧ —

وزنه، حتى في ايام الفتوة وفورة الشباب، لم يتجاوز حدود ستين كيلو. والفتوة عند بعض الكائنات الموهوبة تمتـــد الى الستين، حتى انها لتعشق في السبعين والثمانين (١).

فاذا حداه زهو الرجولة، وهو في الخامسة والثمانين، ان يستعرض أمـام الناس، في المآدب والدعوات الخاصة .. نموذجاً لبدائع الله في خلقه، اضاف الى وزنه، خلال معركة هادئة متزنة قد تستمر ساعات، بين الخمسة والسبعة من الكيلوات ..

فاذا دعي الى مأدبة ثانية لم يتمنع أو يعتذر شأن اسلافه في الصحارى العربية بمثل قولهم: « أكلنا امس او اول امس » ولكنه يتألم

---

(١) اصابت سهام الحب قلب الشاعر « غونه » وهو في الرابعة والسبعين وقد خلد هذا الحب العجيب بقصيدة اطلق عليها اسم المدينة التي شهدت فصول حبه: « مارينباد » ولتوفيق ضعون واقعة حب عذري. طفت ذكرياته الى ساحة شعوره في قوة وعنف وهو على اعتـــاب السبعين، اثر زيارة لسان باولو قامت بها الاديبة سلمى صايغ. وكان قد اضطر ان يقتلع نصل هذا الحب، صحائف من كتابه ذكرى الهجرة، ولكنه لم يستطع ان يطفىء الشعلة التي اتقدت في صدره قبل اربعين سنة. وكانت جلسة عتاب واستغفار غريبة في بداءتها، اخاذة لاهبة، سجلت لها شهوداً اعلاما في منزل الشاعر شفيق معلوف. قال ضعون في كتابه « ذكرى الهجرة »: == « وكنت ذات ليلة وحسوناً وحنكشا جالسين الى مائدة صديقنا الشاعر شفيق عيسى المعلوف ونجيبته روز فرح معلوف اللذين اصطلحنا على تلقيبها بـ: « كاهن هيكل الادب وكاهنته » فما اكتفينا من الغذاء الجسدي حتى حولنا المكان على عادتنا الى هيكل ادب رحنا نغذي فيه الارواح ونشملها باشهى الاطايب الادبية، فاخذتني في ذلك الجو المؤاتي نشوة استخفتني الى القاء الابيات الموؤودة (وكان الاستاذ ضعون ينوي القاء هذه الابيات في حفلة الاستقبـــال اعدتها « العصبة » للزائرة الادبية، ولكنه لم يفعل، خشية ان تخنقه العبرات..) ولكني عجزت عن كبت عاطفتي فحل بي ماسبق ان منعني عن القائها في حفلة الاستقبال فكتبتها وعهدت بتلاوتها لحسون. وعلى الاثر اعادها الشقيق بلهجة الشاعر الحساس فجمّلها إيقاعاً وزادها وقعاً، وهي:

زرتنا في الاصيل اهلا وسهلا ... فرصفنا القلوب دربا فمهـــلا
ليس ما تشهدين منـا احتفالا ... بل حنينا ترين منـــه الاقلا
طـــاب خمراً ما بيننا في صبانا ... ففـــدا الخمر في الكهولة خلا
خبرينا حوش الامـــير سليم ... كيف غـــادرته خلاءً وظلا
ملعب الشباب طـــاب مقيلا ... حـــافظ للعهود يجمع شملا
مـــا ذكرنا إلا لأنا كرام ... ليس ينسى من طاب فرعاً وأصلا

« ولكن المشهد الذي كان اعمق من هاتيك الابيات اثراً في نفوس السامعين هو ما طفا على وجهي من أدلة الانفعال حتى حسبوني اصبت بغيبوبة اعادتني الى ذلك الماضي البعيد فرحت استعرض مشاهده كأنني امام شريط سينمائي ».

حنينا ، وقد يحتد ويثور ظاهرا : « دعوة في غير اوانها ! »

وتمتزج العناصر الخلقية المتباينة لتكون الصورة النفسية لتوفيق ضعون ، باهتةهنا ، فجة حادة هناك : الانانية ، الحرص ، الفردية العنيفة ، تختلط بعناصر اخرى ، ايجابية ، منها التواضع ، البساطة ، والصراحة تبرز او تختفي وفقا لقانون غريزة الضمان .. لتؤلف شخصية ضعون الفذة ، الشاذة ، أكاد اقول العبقرية . ولكم يفقر عالمنا وتبهت الوانه ان خلا من امثال هؤلاء الشذاذ — العباقرة .

شخصيته الادبيــــة (١) ، في فرديته المفرطة ، في اسلوبه الطلي المستساغ رغم انف قواعد البلاغة وما اليها من رشاقة اللفظ والمبنى ، تفرض نفسها منذ السطر الاول في كتابه « ذكرى الهجرة » : « انا توفيق بن فضل الله بن يوسف ضعون البالغ من العمر اثنين وستين عاما وشهرين وخمسة عشر يوما ...

« اجلس الان الى منضدتي لابدأ في تحبير هذه الرسالة وساعة دير سان بنتو المجاور تدق مؤذنة بحلول الظهيرة من الخامس من حزيران ١٩٤٥ مسيحية الموافق السادس من شهر رجب ١٣٦٤ وذلك في مكتبي الكائن في الغرفة رقم ٢ من الدور الثـــاني من البناء الواقع تحت رقم ١٠٦ من لاديرا بورتو جيران في مدينة سان باولو ..

« في سنتياغو ، عاصمة جمهورية تشيلي — التي استدعاني اليها انسباء خلصاء — أنشأت صحيفة اسبوعية اسميتهـــا الاعتدال فآل امري فيها الى التطرف لاسبـــاب وعوامل لافائدة من ذكرها ، كما آل امرها الى الاحتجاب في ختام العام الاول من ولادتها ، فرحت اذرع تلك الجمهورية المستطيلة الضيقة ، من وسطها الى شمالها ، الى جنوبها ، التماسا للرزق كمتجول تجاري وبائع طيلة عامين كاملين عدت في ختامها الى البرازيل احمل في صدري مرارة الخيبة والى جانبها حلاوة الايمان بمذهب القدرية الذي اعتنقته بعد تفكير عميق خضت عبابه مستلقيا على شاطىء مدينة إنتوفاغستا زهاء اربع ساعات يومياً طيلة شهر كامل . والذي عدت به من هذه الرحلة الفكرية الطويلة هو أن كل ما نرسمه من الخطط ضمن دائرة علمنا واختيارنا ونسعى الى تحقيقه بكل ما اوتينا من عزيمة ، خاضع في سيره ونتائجه لاحكام القدر الذي نجهل كنهه ومقاصده . وبموجب هذه الاحكام تنعكس احياناً الامور فيصلح الفاسد منها ويفسد الصالح . وبذلك نتجرد من الفضل في ما أحسنا كما نبرأ من الذنب في ما أسأنا . ولا يبقى لنا في الحالين سوى الاعتصام بحسن النية باعتبار أننا كنا في الحالين مسيرين غير مخيرين .

وتوفيق ضعون قد يكون فاتح درب في ما دعي بادب الاعتراف — التعبير منقول حيا الله اصحابه — اما ان يكون هـــذا الاعتراف بريئاً .. فمسألة فيها نظر . ولا اقصد ببذور هذا الشك الاستاذ ضعون على التعيين بقدر ما أقصد أدب الاعتراف نفسه . فنحن عندما نتحدث عن انفسنا بغية اطلاع الناس على سيرتنا وخفايانا ، نصطفي أحداثاً ونغفل

(١) والاستاذ ضعون ينفذ كتبه بذاته واقفا امام مباءة الحروف ويفعل هذا ، في الغالب ، مباشرة ، بلا مسودات ، ولا يستعمل نظارات .

وقائع .. انه المجتمع ، الغول الذي نخشاه ، عقدنا ، ضعفنا البشري. فالاعترافات البريئة الصادقة انما تكون ، ان كانت ، بين يدي كاهن في الكنيسة .. او على فراش الموت .. مع التسليم بان إعترافات ضعون ذكية بارعة لاينقصها الفكر الثوري والجرأة يحطم بها قيماً مقررة وتقاليد (١) .

جاء البرازيل قبل اكثر من نصف قرن يوم كانت أجزاء الوطن العربي ترزح تحت ثقل الحكم التركي ، ثم تضحي نهبــة لاستعمار آخر تقنّع باسم الانتداب ولبس مسوح رسالة الدين والتمدين ..

هنا أيضاً ، كصــورة مصغرة لدعوة الاستقلال ومعاركها في الاوطان الاولى ، كان الايمان بالاستقلال واهياً ضعيفاً والامل بالتحرر اوهى واضعف ، الا عند نخبة من رجال العلم والادب . وكانت الحملات العلمية تنشرها المجلات والصحف او تلقى الخطب على المنابر ، تنتظم في احد صفوفها امثال القروي وفرحات وتقف في صفها المناوىء القنصلية الفرنسية والقنصلية الانكليزية توجهان دعوة التخريب والتفكيك ، ويســير في ركبهما صحفيون اختاروا حق التعيش عن اهون السبل ، ادباء ، ومتجولون حلوا في اوطانهم وماضيهم اتجاهات فكرية مضطربة ، آثار جهل قديم وظلم ترك له في النفوس أثراً ووتراً .

وتقف بين الفئتين المتحاربتين ، بما يشبه الحياد الايجابي ، فئة ثالثة لها مكانتها الاجتماعية — الادبية : شعراء وكتــاب لم يستسيغوا دخول المعركة ، سواء لأن سلاحها لم يكن نظيفاً خالصاً او لأن النضال السياسي — الوطني في شكله العاصف ليس من طبيعة الناس جميعاً.

وكان الله في عون الشاعر القروي!

من حبة القمح كانوا يعملون له قبة ! وقد اثيرت العاصفة مرة حول هذا البيت للقروي:

و كأنما الشق الذي في وسطها
لك قائل نصفي يخص اخاكا

وقد اشترك فيها الكثيرون من اصحاب الاصالة ، بينهم الاديب جبران مسوح ، والبواعث لاتمت بسبب الى طبيعة المعركة ..

---

(١) قال في كتابه « ذكرى الهجرة » : « ... ناهيك بأنني بحكم عوامل متعددة رُبّيت انانيا ونمّيت في نفسي نزعة ديكتاتورية لاتعرف اللين ولا الهوادة » .

وحفلة قرانه ، كما جاء على ذكرها في موضع آخر من الكتاب المذكور تم وفق المراسيم .. التالية :

« واشترطت ان يكون عقد قراننا مدنياً لايحضره سوى شقيقة لها والشهود وأن لاترتدي حلة خاصة كما انني اوافيها بثوب العمل » .

وجرى العقد على مارسمت في مساء اليوم العاشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٠ وسرنا الى منزلنا القريب يصحبنا الشهود . وقام كل منا بنصيبه من العمل في اعداد العشاء مما كنت قد استحضرته من اللحم والخضر فكان شواءً مع البطاطا المقلية والسلطة » .

ورفق الله بفرحات !

ففي غمرة العواصف الهوج لاتشفع بالشعراء حتى الصور الغنية المحكمة. الم يخاطب دمشق ، معجبا ، في هذا البيت :

فغدا العشب فيك اسمى من الار
ز الذي شق في السماء السحابا

وثار الاعصار . .

وفي آخر كتاب اصدره ضعون «كتاب الاعوام» او سيرة حياته «كما هي» — وقد اعتبره وصيته الأخيرة وودع فيه مهنة الأدب — عود للموضوعين غير احد (١)

* * *

اما انتاج الاستاذ ضعون الادبي «الصرف» شأن انتاج اكثر اخوانه في امريكا الجنوبية ، فضئيل بالنسبة لما ابدعه عمالقة الشمال في ميادين الكلمة المنثورة .

في مجموعات جريدته «الجديد» ومجلته «الدليل» المحتجبتين أبحاث اقتصادية اجتماعية ذات شأن في عهد كان يجول فيه في صحافة سان باولو امثال الدكتور خليل سعادة .

قصته الطويلة «ايزابيل» او غرام اربعة ايام في وطن الاهرام ، كان يتمنى اي اديب عالمي ، من اعلام العهد الرومانسي الكلاسيك ان يذيلها بتوقيعه . وهي بلا مراء ، من افضل ما كتب وأم ما ألف .

وفي كتابيه «سيرة حياتي» و «ذكرى الهجرة» مساند للبحث في بعض وجوه الهجرة الى امريكة اللاتينية والبرازيل خاصة .

مكتب الاستاذ ضعون ، الاثري ، في بناء قديم من لاديرا بورتوجيرال ، وهي منحدر حاد يتئد فيه النازل خشية زلة القدم ، ويتئد الصاعد مداراة للقلب . وينتهي عند شارع ٢٥ مارسو اكبر سوق عربي في المهاجر .

وشعرت برعشة تسري في اوصالي كمن يدخل ، بعد انقطاع طويل ، غرفة اقفلت بعد موت صديق عزيز . فلكم شهدت هذه الغرفة ، خلال ثلاثين سنة ، من اجتماعات ومجالس ، قد تكون آخر مجالس الادب في اندلسنا الجديدة .

---

(١) يستبعد ان يكون الاستاذ ضعون قد قصد بهذا اثارة احقاد قديمة . انما هو الجهد الاقل ولذة الاجترار . . او هي غاية الاحتفاظ بالسوق . . واصدقاء ضعون وقراؤه الكثر يدعون له بمدى طويل من العمر . فلابد ان تتبدد في ذهنه ، في النهاية ، اوهام هذه الدنيا ، وتخف حدة الغرائز .. فيغفر ويستغفر . ولعلنا نظفر منه ، في وصيته الكبرى ، بشيء من بديع ما كتب في ادب الاعتراف .

هنا كان يعقد مجلسنا اليومي ، بين الثالثة والخامسة بعد الظهر ،وقد استمر نحو سنوات عشر ، وكان يلازمه في عهدي الاديب المرحوم جورج حسون المعلوف ، والدكتور جورج قدوم ،والشاعر توفيق بربر ،و فرحات عند زياراته لسان باولو ،وحبيب مسعود ،ونجيب حنكش احيانا .

وكان للمجلس قانون فرد : الا يمس الزائر ، سواء كان ضيفا او عضوا أصيلا ، شيئا من الكتب والمجلات والاوراق المنتثرة على المنضدة والرفوف . وكان هذا موضع تندر المرحوم حسون . دخلت معه المكتب مرة – وكان يتمتع فيه بامتيازات خاصة ، منها حل مفتاحه – فهممت بنفض الغبار عن كرسي . وامسك جورج بيدي :

– لا ! شو عبتعمل نخلة ، توفيق ما بيرضى لعله مسجل على الغبار بعض الاسماء او العناوين ..

ويبادر ضعون ، متى اكتمل النصاب ، الى صنع القهوة فيقدم احدنا الفنجان الاول الى الشيخ الجليل بشارة المرداوي في مكتبه الملاصق للغرفة . وكان فنجان القهوة ، ومايزال في عهد ابنه شكر الله ، بدل ايجار المكتب . وبشارة المرداوي ، رحمه الله ، اكرم واشرف وجه عرفته الجالية العربية في سان باولو . ومن مآثره الكثيرة الخالدة انه اهدى مسقط رأسه قبل نحو ستين سنة ، المطبعة الاولى التي عرفتها مدينة خالد بن الوليد . والهبة كانت تمثل في ذلك الحين نصف ثروة المرداوي .

س ١ – مقابلة للمعرفة . بالاحرى عملية تشريح .. يكون فيها الاستاذ توفيق العليل والضحية معا . هل تمانع؟

ج ١ – يامرحبا . حرية الرأي مقدسة عندي . فلاتوفر ..

س ٢ – الاستاذ توفيق متهم ، امام محكمة التاريخ ، بالتحامل على القروي وفرحات . الا تريد الدفاع عن نفسك ؟

ج ٢ – تهمة باطلة من اساسها ففرحات والقروي صديقان حبيبان الي . وربما كنت صديقهما الوحيد لانني مفتوح العين على سيئاتها ، شأني مع نفسي واكثر شوية .. وانا اصارحهما بها مشافهة وكتابة وبرهاني ما اوردته بشأنهما في كتابي « الوداعي » . أما من حيث المواهب الشعرية فانا لا اسمح لاحد بان يباريني في الاعجاب بشاعريتهما .

س ٣ – لو وضعت سيرة حياتك صفحة مخطوطة بين يديك . ماذاتقول فيها ؟ الا تعمد الى بعض «الرتوش» ؟

ج ٣ – انا راض كل الرضى عن سيرة حياتي كما عشتها وانظر اليها نظري الى شريعة ميدية وفارس التي لايصح عليها اي تبديل

او تحوير . اقول هذا لأنني واثق من ان جميع آثامي وسيئاتي وما ارتكبته من محرمات سيغفر لي اسوة بمن سبقني فالمؤمنون لايذكرون للراحل سوى حسناته تاركين للكاهن غفران خطاياه . والله رحوم يغفر لكل من يموت ما ارتكبه في حياته من خطايا . وكفى بالموت كفارة فلا دينونة ولامن يحزنون .

س ٤ — انت معمر سعيد . إلام تعزو هذا . وبماذا تنصح محبي طول العمر ؟

ج ٤ : — الاقتصاد في كل شيء : في التكسب والانفاق ، في الطعام والشراب ، القعود والكد ، النوم واليقظة ، في الفرح والحزن ، الحب والكره . الى آخر ما هنالك من المتناقضات .

وفي طليعة ما أشير به التوازن بحيث يعطي المرء كلا من الجسد والنفس حقه . وما احكم ماقاله بهذا المعنى الامام علي : « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » فكما يتغذى الانسان يومياً ثلاثاً ويستحيل عليه ان يلتهم في علفة واحدة غذاء اسبوع بكامله ، كذلك يجب عليه ان يعطي لنفسه غذاءها اليومي من الراحة والمرح واللهو فلا يجد ويجتهد عشرات الاعوام لكي يتمتع في آخرته بضعة اعوام اتباعاً للمألوف عند السواد .

والامر الثاني هو ان تهتم للحصول على ما يفي بحاجتك دون ان تحمل هماً ، على حد قول المتنبي :

لاتلقَ دهرك الا غير مكترث
مادام يصحب فيه روحك البدنُ

وما دمت لاتجوع ولاتعرى ولا ينقصك شيء من ضروريات الحياة فاقنع بما انت فيه واترك لسواك التكالب على الزوائد والفضلات .

والثالث ان تبدل بجسد من يملك سيارة ، السير على قدميك يومياً بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات ، على الأخص في كهولتك وشيخوختك .

والرابع ان لاتحسب المقامرة في عداد المسليات المرفهات لأنها تأخذ منك اضعاف ماتعطيك في حال الربح والخسارة على السواء لأن الهزات التي تصيبك في الحالين توتر أعصابك وتصلب شرايينك .

هذا وما تقدمه هو ما اعتقد انه اوصلني الى السن العالية التي انا فيها اليوم . ولمن يشاء ان يقتدي ، وما اقل المستطيعين .

س ٥ : — ماهو مصير الأدب العربي في المهجر . أهناك من سبيل لتنشيطه ؟ الا تستطيع الحكومات العربية ، وجامعتها بشكل خاص ، ان تعمل شيئاً في هذا السبيل ؟

ج ٥ : — لابأس بالمحاولة من أي نوع كانت ولكننا على كل حال صائرون الى التلاشي . ولا مناص لنا في النهاية من أن يجري علينا

ماجرى على جميع المغتربين من مختلف الشعوب التي هجرت اوطانهـا الى البرازيل وهو « التبرزل » .

س ٦ : — انك متهم « بالشاعرية» ايضاً يا استاذ توفيق . فما هي قصتها ؟

ج ٦ : — لشاعريتي حكاية تشبـه حكاية « الطبيب المغصوب » لموليير ، ذلك أني طالعت في مجلة «ابولو» ، التي كانت تصدرها الجمعية التي انشأها الطبيب والعلامة المرحوم احمد ذكي ابو شادي في القاهرة ، نقداً بقلم احد اعضائها لكتابي «سيرة حياتي» الذي اصدرته عام ١٩٣٢ ، مؤداه ان تلك المؤسسة الأدبية لاتعنى الا بالشعر ولكنه يخالف هذه القاعدة لاكتشافه في ذلك الكتاب ابياتاً إستنتج منها اني شاعر بالسليقة خان رسالته . وحكم علي بالاعدام اذا انا لم اعمل برأيه وهو ان أنصرف عن النثر الى الشعر . وبعد عشرين عاما جمعتني الصدفة بمؤسس ابولو في مدينة نيويورك وتصادقنا وراح يسدي الي تلك النصيحة عينها فلما عدت الى سان باولو استجبت لطلبه بان نظمت الابيات التالية التي حالت وفاته ، رحمه ، دون الاطلاع عليها :

يقول أبو شـــادي بأنيَ شاعرٌ
وأني على نظم القريضِ قـــديرُ
ولكنّ إيـــماني بصحة رأيـه
ضعيفٌ ومالي من حِجايَ نصير
وكيف ينالُ القصدَ من ليس مؤمناً
كأنْ يبتغي وصفَ الجمالِ ضرير
أنا شاعرٌ حقاً ولكنْ بنزعتي
الى الصمت يوحيـــه إليّ ضميرُ
يقول اتعظ من قبلِ أن تعظ الورى
كديكٍ يدلُّ النسرَ كيف يطير
لقد ظفر الكدّاحُ بالمـــالِ وانثنى
بجفني حسـين جوولٌ وجوير
وبالمــــال أضحى الجاهلونَ أئمةٌ
ونحن نصلي خلفهم ونســير

ونعطيهمو من علمنا دون منة
وهم باعهم عند العطاء قصير
فلا عجب حسبانهم أن مالهم
لُباب وعلم العالمين قشور
« وما العزّ الا أن يُقال مموّل
وما الذل الا أن يقال فقير »
«رضينا...» كما قد قال من قبلُ شاعرٌ
ولكن كما يأبى الفكاك اسير
فبالمال يشرى الالم والفهم والحجى
وبالعلم نُغني ماعليه ندور
وهذا اعترافي بعد درس وخبرة
على أني بالرغم منه صبور
وليس افتقاري خسة او تقاعساً
ولكن حسبي بالقياس يسير
أراني إنساناً وحولي اخوة
وليس لهم عند الخطوب مجير
أظنُ بنفسي أن أعيش منعّماً
وغيري على شوك القتاد يسير
فأوثر أن احيا كغيري طاوياً
ويدنيني للذود عنه شعور
وإني لصيّاح كما الديك فاعلٌ
لعلّ من الظلماء يسطع نور
فأوقظ نوّاما وأحيي ضمائرا
وحسبي أني للنيام نذير
فينصف شاك دهره وهو متخم
أخاه طاوي البطن وهو شكور

ولا يحز في نفسي شيء كوفاة هذا الصديق اللوذعي ، رحمه الله وأجزل ثوابه ، قبل أن ابعث اليه بهذه الابيات .

والواقع الذي اعترف به هو أني نظّام لاشاعر بالمعنى المعروف . وقد لجأت الى النظم تفادياً للخطب المطولة التي كنت اقاسي وقعها كسواي من المستمعين فأعرب عن فكري او رأيي في بيتين ندر ان أتعداهما .

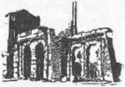
وقد اتفق منذ اعوام ان أقيمت حفلة تكريمية للطبيب المرحوم سعيد أبوجمرة الذي اختار تطبيب النفوس فأنشأ جريدة «الأفكار» وذلك لمناسبة انقضاء خمسين عاماً على هجرته الى البرازيل. وتخلل تناول الطعام إلقاء الخطب فتعاقب على الكلام سبعة عشر خطيباً لم يدع أحد منهم ايراد سيرة المحتفى به بحذافيرها ، وكان المبرر الوحيد الاول ، ولكن لم يفطن اي ممن تلوه الى تجافي التكرار مهما اختلفت الألفاظ والتعابير بحيث ان الحضور تزهق ارواحهم ويتفلتون من القيود التي تفرضها اللياقات الاجتماعية .

وكنت عصارى ذلك اليوم عينه في طريقي الى دائرة البريد فخطرت على بالي تلك المأدبة ورحت افكر في ما يجب ان اقوله فيها لأن المحتفى به كان معلمي في الصف الابتدائي فنظمت في اثناء مسيرتي بيتين لاغير . وعلى اثر انتهاء الخطيب الاخير وقفت وقلت :

من غرائب الاتفاق اني نظمت بهذه المناسبة السعيدة بيتين بلغ عدد ألفاظها سبع عشرة لفظة وهما :

بلاد الجهاد والمنايا
تُرمِّد من يجاهد او تُبيدُ
فمن يقضي بها خمسين عاماً
ويبقى جمرة فهو السعيد

وكان ذانك البيتان بمثابة ملعقة من كربونات الصودا لمصاب بتخمة قاتلة .



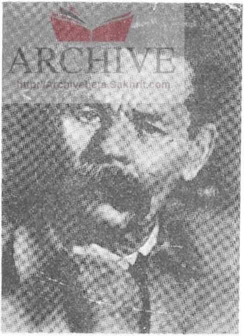
مع الاحداث العالمية

غوركي



بمناسبة مرور ٣٠ سنة على وفاته

بقلم هشام دجاني



مكسيم غوركي ، كاتب روسيا المجيد واديب الثورة السوفيتية . ولست اول من تحدث عن غوركي ولن اكون آخرهم . وانما يدفعني أن اتحدث عن غوركي أمران: اولها حياة غوركي المريرة الشاقة والانطباعات التي تركتها هذه الحياة على ادبه ، وثانيها ان غوركي وهو الكاتب المخضرم قد اثر في الادب الروسي والسوفيتي معاً وهو مايستحق دراسة الدارسين واهتمام النقاد .

لن اطيل في شرح طفولة الكسي مكسيموفيتش بيشكوف ، وهو اسم غوركي الحقيقي ، وحياته ، فقد شرحها هو بتوسع وفيض في كتابه « طفولتي » وفي كتابه « بين الناس » . وانما الذي اريد ان اسجله أن طفولة غوركي القاسية الشاقة ويفاعته المريرة قد جعلتا منه رجلا عصامياً يعتمد على نفسه واتاحت له ان يطلع عن كثب على آلام البائسين امثاله وعلى شقاء المعذبين في الحياة ، لابل أن يعيش في خضم هذا البؤس وذاك الشقاء.

فقد تقلب غوركي في الاعمال الشاقة الحقيرة منذ نعومة اظفاره . فعمل صبياً في دكان اسكافي ثم صبياً في منزل يمسح فيه الارض ويكنس وينظف الصحون. وعندما ضج الصغير من الألم والعذاب فر هارباً الى منزل جدته وهي الامل الباقي له في هذه الحياة . فكانت تواسيه بكلمات تضع البلسم الشافي على جراحه وآلامه. ولكن اول عمل لغوركي بين الناس ، كان جمع الخرق البالية والمسامير ليبيعها في آخر النهار بدريهمات يعطيها لجدته . وتشتد وطأة الحياة على غوركي فيخرج الى الناس من جديد. ويعمل صبياً لطاه في باخرة. وهنا تتفتح مواهب الصغير ويبدأ ولعه بالقراءة. فقد كان الطاهي ولوعاً بالقراءة. وكان يطلب من الصغير ان يقرأ له في اوقات الراحة . ويتقلب غوركي بعد ذلك في الاعمال ؛ وكلها اعمال حقيرة شاقة .

وعندما يبلغ غوركي الثالثة والعشرين من العمر وفي عام ١٨٩١ بالذات يبدأ

غوركي رحلته الطويلة في عرض البلاد . يقطع الجزء الاكبر منها مشرداً سائراً على قدميه . ولقد افادته هذه الرحلة ايما فائدة فكانت زاداً لكثير من مؤلفاته . وقد كانت قصته الاولى « ماكاتشورا » حصيدة هذه الرحلة . ونشرت في تفليس سنة ١٨٩٢ في صحيفــــة القفقاس باسمه المستعار الذي عرف به فيما بعـد وهو مكسيم غوركي .

ويتصف عام ١٨٩٣ ومابعده باتساع شهرة غوركي وخصوصاً بعد قصـــة (تشلكاش) التي نالت اعجاب الاديب الروسي الذائع الصيت كورولينكو الذي شجع غوركي على المضي في الكتابـــة . ويتعرف غوركي في تلك الفترة على تشيخوف وتولستوي وتطير شهرته في روسيا وفي الخارج .

كان غوركي على صلة بالحركات السرية الثورية المناوئة للقيصر منذ عام ١٨٨٤ ، وقد ظل يعطف على هذه الحركات حتى اندلعت ثورة ١٩٠٥ . ولكن عندما فشلت هذه الثورة اضطر غوركي لمغادرة البلاد وسافر عـام ١٩٠٦ الى ايطاليـا . ويعود غوركي قبل الثورة بسنوات قليلة ليعاصر الاحداث الجسام التي صاحبت الثورة والتي تلتها . وبعد الثورة تبـدأ مرحلة جديدة من اهم المراحل الادبيـة عند غوركي فقد تفرغ فيها لتكريس الثورة السوفييتية ، وارساء دعائمهـا الفكرية والادبية ، وتوجيه الادباء الشبان فيها .

وبعد هذه الحياة الشاقة الحافلة ، وبعد تلك الجهود الكبيرة التي بذلها المؤلف في مضمار العمل الادبي والصحفي والسياسي تشتد وطأة المرض الوبيل على غوركي ، فيضطر الى مغادرة البلاد ثانية للاستشفاء وذلك في عام ١٩٢١ .

وفي عام ١٩٣٢ تحتفل البلاد بتتويج غوركي ، وهو في اوج مجده ، زعيماً للحياة الادبيـــة . كما يطلق على مسقط رأس الاديب « نيجني نوفجورد » اسم مدينة غوركي .

وتشتد وطأة المرض على غوركي ،

ويقضي عام ١٩٣٦ في الثامن عشر من شهر حزيران . ويرثيه عظماء كتاب العـــالم ومفكروه . وفي رثائه يقول مولوتوف « ان خسارة غوركي بعد خسارة لينين لهي خطب عظيم .. كان كاتبنا الكبير يقف في مصاف جبابرة كتابنا من امثال بوشكين وغوغول وتولستوي » .

آثار غوركي تبعاً للمراحل الزمنية

تبدأ **المرحلة الاولى** من رحلة الحياة الادبية عند غوركي سنة ١٨٩٢ وهي السنة التي بدأ فيها اسمه بالظهور كما ذكرت آنفاً ويتسم انتاج غوركي في هذه المرحـــلة بالرومانسية كما تتسم شخوص قصصه فيها بالسلوك الانساني . وهذا مانراه جلياً واضحاً في قصته الاولى «ما كارتشودرا» وقصته « العجوز ايزرجيل » . وكلها مترجمة الى العربية .

وقصة العجوز ايزرجيل تتألف من اسطورتين اولاهما (لارا) . وهي قصة شاب اسطوري متغطرس يهبط الى قرية امه بعد ان كان يعيش مع ابيه النسر في الجبال . ويتيه الشاب عجباً بين اترابه . أليس هو ابن ملك الطيور ؟ ويضيق شيوخ القرية ذرعاً بغطرسة وتكبر هذا الشاب ، ويقررون معاقبته جزاء ما فعل بابنة احد الشيوخ ، وقد طرحها ارضاً ووقف على صدرها بعد ان رفضت ان تستجيب له . ويقترح احد الحكماء، بعد ان حار القوم في فرض نوع العقوبة ، ان يتركوه وحيداً منبوذاً . وهكذا يعيش لارا وحيداً عدداً من السنين . ولكنه لا يلبث ان يضج بحياة الوحدة المرة القاتلة فيقترب من القوم ويتحرش بهم عساهم يقتلونه أو يخلصونه من حياته البائسة . ولكنه يخلفونه وراء ظهورهم في وحدته . ويحاول ان ينتحر ، ولكنه يفشل حتى في الانتحار . وهكذا يمضي بقية حياته شبحاً يهيم في الفيافي والقفار جزاء غطرسته .

والاسطورة الثانية ، او بالأحرى الحكاية الثانية من حـــكايات العجوز ايزرجيل هي (دانكو) . ودانكو وسيم

شجاع سيم قومه العسف والاضطهاد واضطروا الى الهجرة الى ظلام الغابة . وعندمايشتد عليهم البؤس والظلام ينبري دانكو لقيادتهم ، وينتزع قلبه الشجاع من صدره لينير بشعلته القدسية ظلام الغابة ويرشد اخوانه الى طريق الحرية والسعادة والطمأنينة .

ومن انتاج غوركي ايضاً في هذه الفترة قصة « الخان وابنه »، وقصيدته المشهورة (الفتاة والموت) .

على ان هذه المرحلة لم تتسم بالرومانسية وكفى . بل اتسمت ايضاً بالواقعية ، وهو ماعرف عن غوركي ومااشتهر به . ومثالنا على ذلك قصته « العم ارخيب وحفيده ليونكا » . وغوركي في واقعيته يلته القارىء غير الروسي ، فهو يصف الواقع الروسي البحت ويغرق كثيراً في هذا الوصف . على ان الملامح الانسانية تجدها ظاهرة واضحة في ادبه الواقعي .

المرحلة الثانية ــ غوركي والرواية

لئن نزع في المرحلة الاولى الى كتابة القصة والاقصوصة ، فقد نزع في المرحلة الثانية الى توسيع آفاق مسرحه الادبي . فتراه يميل الى كتابة الرواية حيث المسرح العريض والاحداث الطويلة المتعاقبة ، والمشاكل الحياتية المعقدة .

تبدأ هذه المرحلة عندما نشر غوركي روايته « فوما جورديف » عام ١٨٩٩ . وهي رواية تحكي قصة شاب ورث عن ابيه التاجر ثروته وحبه للعمل لكنه لم يرثه عقلية التاجر المتغطرسة وانانيته . وقصته هي صراع مع مجتمعه وعقليته المريضة ذلك الصراع العنيف الذي ينتهي به الى مستشفى المجانين ، حيث يجن فعلا .

وفي هذه المرحلة ايضا كتب غوركي روايته التي نالت شهرة واسعة في كل ارجاء العالم ، واعني روايته « الأم » . التي وضعها عام ١٩٠٦ ، والتي تعتبر من اهم اعمال الاديب الفنية والادبيـــة .

والرواية تحكي قصة ام مناضلة هي بيلاغيا نيلوفنا التي قاست من حياة العمل الشاقة في المصنع ، ومن الحياة الزوجية التعسة في المنزل . وفي المصنع تحتك الأم بحكم عملها بالشباب الذين تجيش صدورهم بعوامل الثورة ، وتستمع لاحاديثهم وفيهم ابنها . وتعطف الام على هؤلاء الشباب وعلى افكارهم ، وينتهي بها الامر الى ان تشترك معهم في مظاهرة تقوم فيها بدور الخطيب المذكي لأدوار الجماهير الغاضبة .

على ان هذه المرحلة التي تعتبر من اهم واخصب المراحل الادبية عند غوركي لم تشتمل على فن الرواية فحسب ، بل اشتملت ايضاً على نوع جديد من الفنون عند غوركي ، وهو المسرحية .

فقد وضع غوركي في هذه الفترة عدة مسرحيات ناجحة اذكر منها « العوالم » سنة ١٩٠٠ و « المصطافون » و « الاعداء » على ان اهم هذه المسرحيات هي مسرحية « في القاع » التي وضعها عام ١٩٠٢ .

وكما اتسمت هذه المرحلة بظهور فنون ادبية جديدة ، فقد اتسمت كذلك بظهور ووضوح الافكار الاشتراكية فيها . ولا عجب فقد كان غوركي في تلك الفترة على صلة قوية بالجمعيات السرية التي كانت تدعو الى الثورة من اجل انصاف العامل ودفع الظلم عنه . وليس ادل على تبني غوركي للافكار الثورية من قصيدتيه « انشودة الصقر » و « انشودة بوريفستيك » ، وفي الاخيرة يتنبأ الكاتب بقرب هبوب العاصفة . . العاتية المدمرة . والعاصفة بالطبع هي الثورة .

المرحلة الثالثة — غوركي وادب خارج الحدود

في عام ١٩٠٥ وعلى اثر فشل الثورة التي قامت في ذلك العام يضطر غوركي الى مغادرة البلاد . ويرحل في بادىء الامر الى امريكا حيث يعكف على كتابة روايته (الأم) . ويسافر غوركي بعد ذلك الى كابري في ايطاليا ويقيم

هناك فترة طويلة . وفي كابري يتابع عمله السياسي والادبي . ففي مجال السياسة تابع غوركي معارضته السياسية ، وكان على صلة بالنازحين السياسيين . وفي الوقت نفسه نشأت بينه وبين الزعيم الروسي لينين صلات قوية ووسائل متبادلة . اما في مجال الادب فقد كتب قصته « حكايات من ايطاليا » التي استوحى موضوعاتها من مشاهداته في ايطاليا . كما كتب ايضاً روايته الشهيرة « الصيف » وذلك عام ١٩٠٩ التي اعتبرها النقاد رواية الارض الروسية والقرية الروسية .

المرحلة الرابعة — غوركي الاديب والسياسي والمؤرخ

ويعود غوركي الى بلاده عام ١٩١٣ ويشارك في الدفاع عن بلاده جنديا في الجيش وذلك اثناء الحرب العالمية الأولى. وتقوم عام ١٩١٧ ثورة اكتوبر الشيوعية فينبري الكاتب للمشاركة في احداث الثورة حاملا لواء الدعوة لها والدفاع عنها .

وغوركي في هذه الفترة هو السند الكبير لزعيم الثورة لينين . وهو أيضاً الكتلة المجمة من النشاط . فقد انصرف غوركي فترة ليست بالقصيرة الى ارساء القواعد الفكرية للحياة الادبية في بلاده . كما انصرف الى الكتابة في الصحف والمجلات الادبية والسياسية . وفي زحمة هذا العمل المضني يضطر غوركي ثانية الى مغادرة البلاد تحت وطأة مرض السل الذي عاوده كرة أخرى . ويعود غوركي ليستقبل استقبال الفاتحين .

والتي تميزت هذه الفترة بقلة الانتاج الادبي عند غوركي ، فقد تميزت ايضاً بظهور روايتين مطولتين هما خلاصة التجارب الفكرية عند المؤلف الكبير . والرواية الاولى هي « عمل ارتامونوف » التي وضعها عام ١٩٢٥ وهدفها تقديس فكرة العمل وتحقير البطالة . والرواية الثانية هي « حياة كليم سامجين » وضعها المؤلف عام ١٩٢٧ وهي تقع في أربعة مجلدات . وقد اراد غوركي في روايته

هذه ان يؤرخ للشعب الروسي من خلال الاحداث التاريخية الهامة التي مر بها الشعب من اواخر القرن التاسع عشر وحتى اوائل القرن العشرين وعلى مدى اربعين عاما . وقد كانت هذه الرواية آخر انتاج ادبي لغوركي ، ومات دون ان يتمه بعد ان توج به اعماله الفنية وحياته الادبية الحافلة .

غوركي الشاعر

بقيت كلمة لابد منها للاحاطة بالجوانب الادبية التي تناولها الاديب الكبير . لقد أولع الكاتب منذ حداثته بالشعر وكان مثله الاعلى الشاعر الروسي الكبير بوشكين . ولقد كتب غوركي الشعر ، ونال فيه حظاً عظيما من الفن وان لم ينل مثله من الشهرة . ولغوركي عدة قصائد اشهرها في الحياة الادبية الروسية قصيدته « الفتاة والموت » التي تحكي قصة صراع فتاة احبت مع الموت .



يبدر النجوم ..

شعر : صابر فلحوط
نقد وتحليل : ابن ذريل

قد تشف (تجربة) ديوان واحد من الشعر عن نفسية صاحبه، واسلوبه، فتكشف ، والى حد كبير أحياناً ، عن تجربة (الشاعر) ، بمجموعها ، وبالتالي عن عصره ، وبيئته ..

ولا جدال في أن (الدراسة) النقدية لديوان واحد من الشعر شيء متميز عن (التعريف) بالشاعر ، او التعريف بنتاجه الشعري ، أو أسلوبه .. وذلك ، من حيث أن (تجربة) الديوان الواحد ، غالباً ماتكون مؤطرة بأزمنة ، وأمكنة معينة ، وبالتالي تشمل (فترة) من حياة الشاعر ، او جانباً من معاناته ، وبدواته ..

وهذا الديوان الجديد : « يبدر النجوم » ، للشاعر (صابر فلحوط) ، هو بالأحرى ، سجل نفسي ، واجتماعي ، وثوري له ، يكشف عن (جوانب) عدة من نفسه . طموحه آماله ، واقعه ، همومه ، حبه ، مشاعره ، ولم يسبق لديوان له من قبل ، أن كشف عن جوانب من تجربته ، مثلما يكشف عنها هذا الديوان الجديد ..

لقد أصدر الشاعر (صابر فلحوط)، حتى الآن، خمسة دواوين من الشعر، هي على التتـــالي: (البراكين)، عام ١٩٦٠؛ ثم (موج البطولة)، عام ١٩٦٣؛ ثم (نشيد الثوار)، عام ١٩٦٤؛ ثم (دم في حيفا)، عام ١٩٦٥..

وهـــذه الدواوين الأربعة بمجموعها، ملتزمة، قومية، وثورية، ماعدا قصائد عابرة، فيها، وندرة تعكس موقفاً من غزل، أو تأمل.. ثم، هاهو اليـــوم يصدر ديوانه الخامس (بيدر النجوم)، عام ١٩٦٦، فيضيف (أثراً) جديداً الى الشعر القومي، والثوري العـــربي، السوري، حقاً.. إلا أنه يفتح في أدب (صابر فلحوط) نفسه، صفحة جديدة، تطلعنا على زوايا من نفسه، وجوانب من ميوله، أزاء الحيـــاة، والمجتمع، والحب، والجود، والنضال، مما ينير سبيل النقاد، والدارسين في دراساتهم، وبحوثهم..

تشاء تجربة الديوان الجديد: «بيدر النجوم»، عام ١٩٦٦، أن يكون (الشعر) فيه منوعاً في موضوعه، ومنوعاً في اسلوبه؛ إذ نجد فيـــه، الى جانب (القصائد) القومية، والثورية، وللمرة الاولى تقريباً، قصائد غزلية عدة، وقصائد وصفية، وقصائد تأملية عدة ايضاً، مما لم يسبق لصاحب الديوان معالجته، أو نشره على الأقل..

لقد قسم الشاعر (صابر فلحوط) ديوانه الى ستة أقسام، هي: (١) – على الدرب ابداً، ويضم القصائد القومية، والثورية؛ (٢) – من القلب، ومعظمه غزل؛ (٣) – ألحان جريحة، ومعظمه تأمل؛ (٤) – للحب كلمة، في الحب، والغزل، ووعي الذات؛ (٥) – بيدر النجوم، في وصف الطبيعة، ومنها لبنان، أو مطارح في البـــلاد كقلعة حلب؛ (٦) – في البدء كان التراب، في بدوات تأملية، اجتماعية، وثورية..

(الظاهرة) التي تلفت النظر ، قبل كل شيء ، في الديوان ، هي : (حسّ) الالتزام الاجتماعي ، والشعبي .. بحيث تجد (الشاعر) يعيش مسؤولية الشعر ، مسؤولية الكلمة ويريدهما خدمة للشعب :

يارفاقي .. أنا من غناكم درعاً ،
ومغواراً ، ونسراً ..
غير أني ، قد رأيت الشعب
لايأكل مهما جاع شعراً ..
كلكم يأمل أن يصنع للأجيال فجراً ،
كلنا بالكلمة البراقة (المكياج) أدرى ،
غير أني قد رأيت الشعب لايأكل شعراً ..
والأماني الخضر ، والأحلام لاتخلق نصرا !!.

لنلاحظ هنا لفظة (مكياج) ؛ وهي كلمة معربة ، وتقصد التزويق ، في مجالات الفن المسرحي ، أو أيضاً في مجالات التجميل .. لقد اضطر الشاعر الى اصطناعها ، لأنه يريد أن يظل (صادقاً) مع نفسه ، ومع مسموعه ومقروئه اليوم من لغة الفن والناس ..

وسنرى أنه يستعمل كثيراً من هذه الألفاظ ، أو أيضاً الأخيلة ، والجمل حولها ، يغني بها قاموس الشعر العربي السوري الحديث .. بل ان هذه (المسؤولية) تجاه الشعر والكلمة ، هي نفسها التي تدفعه الى (عيش) نضاله ، وبالتالي (نحت) الصور ، والتشبيهات حوله ، ومثل ذلك قوله :

(قد) .. حلتُ المعولَ الصلب نشيداً ،
ونظمتُ الصخر والزيتون والقمح قصيداً ،
وجرتُ الناس من روحي وحطمت القيودا ،
لم أعدْ أومن بالكلمة تسقيني الوعودا ..

و (الأمثلة) عديدة في ديوانه على هذا النوع من (التشبيهات) الجديدة ، والجريئة ، التي تعكس نضالية مؤمنة ، صادقة ، ومن جميل قوله فيها :

إشتراكيون صحبي ،
منذ أن جاؤوا الوجودا ..
دمعهم قمح ، دماً أعينهم تنهلُ جودا ،

تعوف الصحراء من كانوا على صهوتها
يوماً جنودا ..
اشتراكيون نحن الفقر ، نحن الجوع
يجتاح الحدودا ،
نخلق الثورة لاتبقي لإقطاع وجوداً ..
تملأ الدنيـــا ضياءً ، تفوش الأرض
وروداً ..

والحق أن (اصداء) مسيرة العمال والفلاحين اليوم في نهضتنا التقـدمية نحو العدالة الاجتماعية ، او (اصداء) المسيرة العربية في توحدها، او نضالها.. تتجاوب كلها في هذا الديوان ، كتجاوب موقف الشاعر من (المدنية) الزائفة، والرجوع الى الطبيعة ، او تجاوب موقفه من الحياة وتناقضاتها ، والحب واحواله ، والمجتمع وسننه ..

ملاحظة اخيرة اسلوبية ؛ لقد اصطنع الشاعر (صابر فلحوط) في ديوانه الجديد الطريقتين ، اللتين تتقاسمان اليوم انتاج الشعراء المحدثين (الطريقة السلفية) التي لعمود الشعر واوزان الخليل بن احمد الفراهيدي، و (الطريقة الحرة) المرسلة من التزام (التفعيلة) بدل البحر والوزن.. وكلاهما عنده حقاً شفافة لا تكلف فيها..

ومع ذلك ، اسجل وجود بعض (الالفاظ) و(التعابير) الشعبية والدارجة في ديوانه .. بعضها لايزال جافاً ، وبعضها الآخر (قلق) بعض الشيء ..



في المكتبة العربية

ترانيم للأطفال

لعبد القادر عياش
عرض وتلخيص : حامد حسن

عرف بعض علماء الاجتماع الأمة بقوله : هي مجموعة عادات وتقاليد .

ولعل لفظة « الفولكلور » هي التعبير الصحيح لمجموعة العادات والتقاليد ، وبالتـالي هي التجسيد الواقعي لهذا التعريف .

فالفولكلور ينقل الينا اكثر خصائص الأمة ، وميزاتها التي تنفرد بها عن غيرها ، ازياءً ، وغناءً ، ورقصاً ، وامثـالاً ، وتقاليد ، وعادات .

والفولكلور – كما يلاحظ – اكثر مايهتم بالجوانب الانسانيـة ، ويسعى لابرازها لأنها تبقى وتستمر ، وتحمل للاجيال صورة عن تراث الأمة .

ويعتبر الفولكلور الشعبي ، أوثق مستمسك ، واغزر رافد للتـاريخ ، واصدق مصدر للدارس المتتبع . يعرض تقاليد الأمة ببساطة ويسر ، وسهولة ، وصدق ، وعفوية مجردة من شوائب الكلفة ، والزيف ، والتمويه .

وفي العصور الأخيرة تنبهت الأمم الحيـة والشعوب الراقية لأهميـة الفولكلور ، فأنشأت له المؤسسات ، وتعددت فيه الاختصاصات ، وكثرت حَوْلَهُ المؤلفات .

ويُعدّ الاستاذ عبد القادر عياش صاحب مجلة « صوت الفرات » ، وعضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

مختصاً، ومتفرغاً، لدراسة الفولكلور الشعبي في القطر العربي السوري، وخاصة في حوض الفرات.

لقد أعطى الاستاذ عياش وقته وقلمه وماله وجهده لخدمة أمته في هذا المجال، وآخر ماطالعنا به من سلسلة مؤلفاته القيمة كتابه «ترانيم للأطفال».

اهدى المؤلف كتابه لأطفال الفرات الذين يحبهم كثيراً، ومن اجدر من الاطفال بالهدية، وأولى بالمحبة، وهم ريحانة الحياة.

ويقسم الكتاب الى ثلاثة اقسام رئيسية

القسم الاول تاريخي، كثيراً من اقوال العرب، آباء وامهات، في الجاهلية والاسلام في ابنائهم وابناتهن، ومنزلة البنين من قلوب الآباء.

ويتحدث الاستاذ عياش عن العادات الجاهلية، وتشاؤم العرب من الانثى تلك النظرة التي اقتضتها طبيعة بيئتهم، ونمط معيشتهم، وظروفهم، والتي حاربها القرآن بقوله: (وإذا بُشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء مابُشر به ايمسكه على هون، أم يدسه في التراب؟ ألا ساء مايزرون). كما اوضح القرآن الكريم ان انجاب البنين أو البنات لا يد للأم به - كما كان يعتقد العرب - بل ان ذلك كله من الله فقال: (الله لطيف بعباده يهب لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء الذكور، او يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً).

والرسول العربي قال في حديثه ليجبر قلوب الامهات اللاتي يلدن الإناث: «خير كن من استهلت بالانثى».

ويذكر المؤلف حالة المرأة التي تلد الاناث دون الذكور، وما تلقاه من نظرات الاحتقار من زوجها وذويه، وما يتهددها من الضر، او الطلاق؛ ثم يخلص الى القول: ان هذه العادة أخذت بالتلاشي.

والقسم الثاني من الكتاب يبحث في «الترانيم» ويقسم المؤلف هذه الترانيم الى قسمين:

١ – ترانيم التهشيش ، وهي لترقيص الطفل واضحاكه .

٢ – ترانيم الهدي ، او المدهدة ، وهي لإسكات الطفل ، او تنويمه . وفات المؤلف نوع من الترقيص ، وهو «التصفيل» . . والتصفيل ان تدفع الأم طفلها الى الأعلى باحدى يديها ، او كلتيها ، وتتلقاه مع الغناء ، لتحريكه ، واضحاكه بقوة ، وشدة ، قال الشاعر :

هش لها « صَفَّلته » أمه

ودنا من وجهها بالراحتين

من رأى عيسى يناجي مريماً ؟

أو رأى الزهر يناغيها الحسين ؟

ويذكر المؤلف في مطلع كل بحث شيئاً من التحقيقات اللغوية كالترنيم ، والمدهدة ، والتهشيش .

ويسوق في هذا الباب كثيراً من ترانيم الامهات واغانيهن لاطفالهن ، ويذكر اقسام هذه الاغاني وانواعها ويبحث معانيها ، ومقاصدها ، والحالات النفسية التي ترافقها ، ويعرض للمخاوف التي تساور الأم على طفلها ، كالحسد ، والإصابة بالعين ، كما يصف الاحلام ، والآمال ، والأماني التي تخالج فؤادها .

والقسم الثالث يعرض طائفة من اغاني الاطفال انفسهم ، ويسميها اهازيج . وهي تصور الاطفال في مختلف حالاتهم والعابهم ، وظروفهم المتعددة ، فهناك اهزوجة للقمر ، وثانية للشمس ، وثالثة للمطر ، ورابعة للنهر ، واخرى للصيف ، ومثلها للبرد ، كما ان هناك اهازيج للشر ، والتحدي ، والبطيخ ، وكل الصور التي تحفل بها دنيا الاطفال البريئة المرحة الصاخبة .

ولغة الكتاب سهلة ، صحيحة ، اما الاغاني فعامية اللغة ، ولاتكون الا كذلك .

والكتاب جزيل الفائدة في بابه ، شأن كل ماتحفنا به هذا الكاتب المخلص لأمته ، ووطنه ، وفنه .

- معرض الخريف
- معرض اسبوع العودة

تقديم غازي الخالدي



من
معرض
اسبوع
العودة

معرض الخريف :

(المتحف الوطني بدمشق)

اول مايلفت النظر في معرض الخريف للفنون التشكيلية هذا العام ان الاعمال الفنية المعروضة تنقسم الى قسمين :

القسم الاول : جيدة جداً وذات مستوى عال بالفعل .

القسم الثاني : ضعيفة ... وليست بمستوى العرض .

ومشكلة الضعف هذه ناجمة برأيي عن سبب جوهري جداً يتعلق مباشرة بالفنان ويبدي معاناته للتجربة الانسانية التي يعكسها في اعماله ، وهذا النوع من الفنانين ، اما انه يرسم لمجرد فرصة العرض في معرض رسمي او انه يمارس الفن كترف عابر في حياته يكون من نتيجته لوحة او لوحتين في السنة يرسمهما في وقت الفراغ .

وغالباً مايتسم هذا الفن بالافتعال والسطحية ، ويمكن كشف ضحالة هذه التجربة لمجرد رؤيتها لأول وهلة .

ان الذين يمارسون هذا النوع من الفن انما يبحثون طويلاً عن فكرة ما من اجل لوحة ما .. دون اي تخطيط او تفكير علمي منظم . والفكرة غالباً ماتكون بعيدة عنهم وعن احساسهم وعن وجدانهم .

بينما العمل الفني الاصيل لايتم بهذه الصورة ولا بهذا الافتعال .

هذا برأيي هو أهم سبب للضعف الفني في معارضنا . . واليوم ونحن في معرض الخريف تظهر هذه المشكلة من جديد في عدد غير قليل من الاعمال المعروضة .

ان الفكرة لاتأتي الى الفنان وهو في بيته بين جدرانه الاربعة ، ولكن الفكرة تأتي عندما يعيشها الفنان كتجربة ذاتية ، تجربة يمارسها بنفسه يحس بها هو .. احساساً حقيقياً ، ولتأتي اللوحة بعد ذلك انعكاساً صادقاً لهذا الاحساس .

وعلى ضوء هذا الكلام لنحاول ان نستعرض بعض النماذج المعروضة في هذا المعرض :

● نذير نبعة : من دواعي الفخر لهذا البلد أن يفوز نذير في مسابقة الفن العربي المتجول التي تقام في لندن. واعماله المعروضة اليوم مرحلة سابقة لاعماله التي فازت في المعرض وهي تجريدية باحساس سريالي .

● احمد دراق السباعي : بدأ احمد في لوحتيه الجديدتين يعمق تجربته ، وخاصة في لوحته « تكوين » . فهذه اللوحة تعتبر بالفعل خطوة جديدة له ، فلم يعد الرسم عنده مجرد تقليد مسترخي من فن الطفل ولكنه صار شيئاً آخر ، ولم يفقد كذلك مع تطوره إحساسه الطفولي العفوي .

● أدهم قوطرش : لأول مرة يظهر أدهم كفنان له طابعه الخاص ، وأدهم فنان مرهف الحساسية درس الفن في القاهرة ودمشق دراسة علمية وانفرد باسلوب غنائي جميل ، له حساسية خاصة باللون . وجميع العناصر المشكلة لاعماله يخدمها اللون عنده . ويدل اللون على أن أدهم ملتصق بتجربته وبمعانيها بصدق .



زيارة الولي لأسعد عرابي

● أسعد عرابي : واحد من المجددين الذين انطلقوا من مفاهيم علمية وتقنية وأضافوا الى تجربتهم الحس الانساني الخالص بالبيئة والناس والحياة. ان أسعد

يدرس بدقة أمكنة وحداته في اللوحة. فزائراتالوليبظهرن كطيور السنونو الغبي منتشرات في عدة مناطق من اللوحة، وزعها بشكل مدروس أوحت بالفكرة التي يريدها، إن المساحة عند اسعد محسوبة حساباً دقيقاً وكذلك اللون.

● الياس زيات: انه يعود الى الاقمشة القديمة التي كانت تطبع منذ مئات السنين في بلادنا، مستوحياً منها نماذجه التجريدية التي عرضها اليوم في هذا المعرض، واللوحات تمثل تجربة شخصة تماماً، خاصة المنطلق الفكري الذي يعتمد منه موضوعاته. إن جميع التشكيلات عند الياس تعتمد على اللون فهو الخط وهو المساحة وهو التكوين.

● بدر الدين مولوي: يعتمد على الصدفة اكثر مما يعتمد على المعاناة الشخصية أو على الفكر الانساني لذلك نرى أن الناحية التقنية هي أبرز شيء في أعماله ولذلك يرسم الأزهار باستمرار.

● بشير المهندس: يحاول بشير هذه المرة ان يتخلص من الكتل اللونية السوداء والحمراء مستوحياً من الطبيعة بعض الاشكال المعمارية للبيوت القديمة، إلا أن التجربة كما أرى لم تصل من حيث الاحساس الى مستوى تجربته التجريدية الأولى.

● خزيمة علواني: قلت مرة عن تجربة هذا الفنان انه يترك التكوين يرسم نفسه بنفسه كأن يرسم الخط ثم يبحث عن الشكل الذي يلائمه او يرسم البقعة ويبحث عن الشيء الذي يليق بها دون أن يكون هناك تصميم مدروس مسبقاً كما نرى في لوحتيه [طيور] فهي مجرد ألوان جميلة علاقاتها تلقائية غير منظمة.

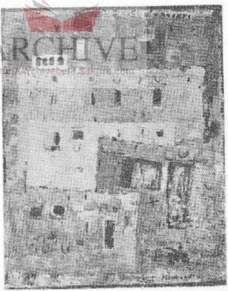
● عبد القادر نائب: انه يتصيد الطبيعة تصيداً [فوتوغرافياً] ولكنه يركز على بعض اجزاء من الصورة ويهمل الأجزاء الأخرى رغم أن الاتجاه الكلاسي الذي يسير فيه يحتم عليه الدقة التصويرية ولكن دقته مقصورة على الوجوه.

● غسان السباعي: اسم جديد ينضم الى الحركة الفنية، إسم يحمل أصالة

واضحة من خلال تجربة إنسانية حقيقية يتمثل فيها الفكر قبل الفن ، ألوانه داكنة وجوه العام تعبيري واحساسه بالإنسان احساس أصيل وعميق ، درس في كلية الفنون الجميلة في الاسكندرية ولهذا نرى تأثره غير المباشر بفناني الاسكندرية .

● فاتح المدرس : الكلام الذي يقال عنه كل مرة يقال عنه هذه المرة أيضاً ، ولكني أضيف ان هذا الفنان يملك من الحساسية والجرأة والعفوية مايجعله ينفرد بنوع خاص من التفكير والانتاج الذي نعتز به .

● فيصل عجمي : أنا لا أعترض على اختياره مواضيع إسبانية ولكنني لاأجد في لوحتيه ، فيصل عجمي نفسه . رغم أن الأسلوب المتبع فيها أسلوب متميز وألوانه ترابية دافئة .



في القرية لبشير المهندس

● كمال محي الدين حسين : رغم أن الاشكال التي يستعملها في لوحاته السريالية قد استهلكت منذ تجارب (سلفادور دالي) الأولى الا أنه يحاول بصدق أن يعبر عن إحساسه وعن فكره ويعاني جهداً كبيراً حتى يقول مايريد ولكنه الى الآن لم يقل مايريدولا يمكن ان ننكر عليه ألوانه المؤكسدة والحمراء التي توحي بالجو الميتافيزيائي .

● لؤي كيالي : لوحته (الانسان في الساح) إعلان كبير عن قصة بطولية اعتمدت على حركة مسرحية مفتعلة . انه يحاول أن يتطور من قيود الخط التي فرضها على نفسه في السابق الا أنه أضاع الكتلة وأضاع الخط وخاصة في الاشكال العامة للملابس فجاءت وكأنها مليئة بالهواء المضغوط ، ولعل كبر حجم اللوحة جعله يميل الى حد بعيد دراسة تشريح الأيدي والأرجل . أهم شيء في لوحته أنها ذات لونين فقط أحمر وأسود .

● ليلى نصير : فوجئت وفوجىء الجميع بلوحة ليلى (من وحي فيتنام) فهي بحق خير ماقدم من أعمال عن مفاهيم البطولة والشعبية ، خاصة وأنها استعملت اللون الأسود المأسوي وحده في كل اجواء اللوحة ، وازدحمت اللوحة بالمخلوقات البشرية من أقصاها الى أقصاها . ان ليلى بهذه اللوحة أثبتت أصالتها الفنية واحساساها الحقيقي بالمأساة . وقد حلت مشكلة التكوين حلاً يتناسب مع المفهوم البطولي للمعركة التي ليس لهـا أبعاد محددة ، كذلك الكتل البشرية تمتد بلا أبعاد .

● محمود حماد : انه يستمر بصمت وبهدوء تام في تجربته التجريدية باحثاً عن قيم تشكيلية جديدة من خلال مفاهيم شرقيـة مستوحاة من الحرف والكلمة العربية . وتجربته هذه لم تأت عفواً وانما اتت بعد دراسات طويلة للتكوين واللون والخط والمساحة . ان تجربته هـذه المرة باللون الاخضر ودرجاته .

● نشأت زعبي : تردد نشأت بين التجريد المطلق وبين التجريد المستوحى من الواقع الا انه اليوم بدأ يبحث عن نفسه بشكل تدريجي فانطلق من مفاهيم العمارة القديمة الى اشكال وعلاقات وألوان منسجمة ومترابطة وذات حس لوني جميل .

● نصير شوري : قد يقال أنه متأثر بتجربة محمود حماد ولكني أرى أنه يتميز بصوفية خاصة في ألوانـــه ، نفس الصوفية التي كنا نراها في لوحاته التأثرية السابقة الا انه ألبسها لباس التجربة الجديدة وأنا واثق من ان أصالة نصير ستوصله الى اشياء خاصة رائعة في المستقبل القريب .

● هشام شيشكلي : تجربته طريفة الا ان الصنعة فيها أهم من الفكرة . ولوحته (من وحي فيتنام) افضل بكثير من لوحته (القحط) من حيث التكوين ..

● ناجي عبيد : ان الذي يعمل بصمت ويمارس تجربته بجد لابد ان يصل في يوم ما . وناجي من هذا النوع : إنه يدرس بكثير من الجدية القصص التاريخيـــة والاسطورية ويحاول من خلال احساسه البدائي ان يعبر عن هذه الدراسة . ولوحته (قصيدة لطاغور) تشبه الايقونات من حيث التكنيك والالون .

● نجيب داوود : لوحته (بيت شرقي) محاولة تجريدية خاصة به بألوان زخرفية منسجمة .

● نعيم اسماعيل لا يزال كما هو ، يضع مجموعة زخارف ويحيطها بمجموعة ألوان شرقية جميلة ثم يعطيها اسماء شاعرية دون ان يطور في تجربته شيئا .

● سعيد مخلوف اعماله هذه المرة من النحت على الخشب تمتاز بتنميق زخرفي وحلول تزيينية فيها بهلوانية الفنان ، كيف يسيطر على خامة الخشب ويطوعها بين يديه مستفيداً من الفراغ الى أبعد الحدود .

● عبد السلام قطرميز ، تماثيل عبد السلام ذات طابع واقعي تعبيري ، فيها تمكن أكيد من التشريح وفهم واع للكتلة . ومن أجمل اعماله وأشدها إحساساً وتمثاله (راس ابو حسين) حيث نرى

شهداء السويداء
لعبد السلام قطرميز



العامل
لنشأت رعدون



كيف يتحول رأس الانسان بين ايدي عبد السلام الى كتلة معمارية متماسكة .

● نشأت رعدون: بدأ نشأت بداية جيدة وجدية في تمثاله العامل ، فالتمثال ضخم ويمثل حركة العامل في لحظة راحة .. النسب سليمة والتشريح دقيق والتكنيك خشن وهذا التمثال اول تمثال يصلح للميادين والساحات .

ان معرض الخريف هذا العام هو تجربة ناجحة كمعرض رسمي تقيمه وزارة الثقافة حيث استقطب اكبر مجموعة من الفنانين كل يحاول ان يقدم تجربته الجديدة. خلال عام كامل .

معرض اسبوع العودة :

مركز الفنون التطبيقية

المعرض الذي اقيم في مركز الفنون التطبيقية هو اول معرض من نوعه يقام في هذا البلد . فهو معرض خاص مرتبط بمناسبة قومية ، وقد تم اعداده في ثلاثة أيام فقط . لذلك لا يمكن مناقشته من خلال وجهة نظر فنية ولكن المهم هو المردود القومي الذي أعطاه هذا المعرض للجماهير .

المعرض مجموعة لوحات جدارية اعلامية تمثل قضية فلسطين والعودة وحرب التحرير الشعبية . ساهم في هذا المعرض المواطنون برهان كركوتلي - رضا زريق - طلال زريق - رفيق الصدر - نجاة علي - نهاد قمر - عصام الدالاتي ، وكان مجموع اللوحات اربعين لوحة طبع منها ثمانية بالالوان تنشر في انحاء القطر العربي السوري .

كان هذا المعرض فرصة طيبة اثبت فيها الفنانون أنهم عن طريق فن الاعلان يمكنهم أن يساهموا مساهمة فعالة وايجابية في المعركة المصيرية التي يخوضها شعبنا العربي المناضل .

ودور الاعلان في مثل هذه القضايا ابعد أثراً من الاعمال الفنية العادية ، لذلك عندما يكلف الفنانون بعمل لوحات جدارية كبيرة على طريقة الدول الإشتراكية فانهم سيكونون دائماً على مستوى القضية وأمام مسؤولياتهم تماماً . وانهم سيؤدون دورهم القومي التاريخي على اكمل وجه . .



من معرض اسبوع العودة

- البلاد المتخلفة .. لإيف لاكوست
- ليالي الرقمتين .. لأمين نخلة
- التحويل الاشتراكي الزراعي في سورية .. لأحمد محمد الزعبي
- كيف نكتب تاريخنا القومي ؟
- نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث .. للدكتور عبد الكريم الأشتر
- الفترة الحرجة ١٩٦٠ ــ ١٩٦٥ .. لرياض نجيب الريس

البلاد المتخلفة

قام الدكتور كمال غالي بترجمة كتاب Les Pays Sous - Developpés للباحث الفرنسي إيف لاكوست Yves Lacoste تحت عنوان (البلاد المتخلفة) ، وراجع الترجمة مدير الثقافة الشعبية بوزارة الثقافة أديب اللجمي . يقع الكتاب في ١٣٠ صفحة ويعدد الخصائص المكونة للتخلف وهي : النقص الغذائي وضعف الزراعة وضعف مستوى الدخل القومي ومستويات المعيشة وضآلة التصنيع وضعف استهلاك الطاقة الآلية والتبعية الاقتصادية وتشوه نمو القطاع التجاري وتأخر البنى الاجتماعية وضعف نمو الطبقات المتوسطة وضعف الاندماج الوطني والبطالة وضعف التعليم وكثرة الولادات وسوء الحالة الصحيــة . وبعد أن يطرح المشكلة السكانية ويشرح الأسباب الرئيسية للتخلف ، يبين عوامــل التنوع في البلاد المتخلفة ويبحث عن معايير لتصنيفهــا ويعدد الخصائص الأصيلة للنماذج الكبرى للبلاد المتخلفة ويبحث أشكال التطور واحتمالاته . صدر الكتاب عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

ليالي الرقتين

أصدرت دار مكتبة الحياة في بيروت كتاب (ليالي الرقتين) في ١٢٠ صفحة . وهو ديوان للشاعر العربي أمين نخلة ، مهد له بمقدمة من نثره الغني بالصور والأفكار . وعبر في قصائد الديوان عن وفائه لأحبة خرجوا من الدنيا ورافقته عليهم الحسرات ، مثل (الآنسة « م ... ») التي قضت أجلها قبل أن تجاوز من العمر ستة عشر عاماً . ونفث عن الوجد الذي حمله بين اللحم والعظم من غلبة هوى يشفق من البوح به ولو بأدنى إشارة ، مثل قصيدته (لمغنية) في بلاد الخليج العربي . وصور مشاهد أنيقة من الطبيعة ، في مثل قصيدة (الارز) ، وبين ماتفيضه من انس وحياة على الناظر اليها ، في قصيدة (شجرة القبر) ، التي استوحاها من شجرة رآها عند قبر مهجور جانب الطريق في بعض بلاد الأناضول . وقال أبياتاً في الشعر والأدب وما ينبغي لهما ، منها قصيدته (صوت لبنان) التي أنشدها في مهرجان الشعر في الاسكندرية سنة ١٩٦٢ مندوباً عن لبنان . وضم الديوان أبياتاً في التجاريب والعظات ومناعم المجالس ولذائذ الشراب واللهو ، وفي اغراض أخرى متفرقة . ولعل صاحبه اختار له اسم (ليالي الرقتين) إشارة الى الروضتين المشهورتين في نجد وقد ضمتا ذكريات الشاعر الجاهلي زهير ابن أبي سلمى .

التحويل الاشتراكي الزراعي في سورية

اصدرت مديرية الارشاد القومي بوزارة الثقافة في الحلقة الثامنة من سلسلة كتب قومية كتـــاب (التحويل الاشتراكي الزراعي في سورية) لنقيب المهندسين الزراعيين احمد محمد الزعبي . يقع الكتاب في ١٧٠ صفحة ، ويستعرض تاريخ الزراعة والملكية الزراعية في سورية منـــذ العهود الرومانية والعربية والعثمانية والفرنسية حتى الاستقلال والعهد الحالي . ويتحدث عن الوضع الريفي العام والبيئة الزراعية وموقـــع سورية وجوها والرطوبة النسبية والحرارة والأمطار والمناطق والاراضي الزراعية والارتفاع عن سطح البحر . وينتقل الكتاب الى الصفات الحضارية والاقتصادية ، فيدرس من الوجهة الاقتصادية تجمع السكان ونشاطهم والقيم الحضارية السائدة ، ثم يعرض النظم الحـــالية للحيازة والادارة الزراعية حسب استقلال المزرعة وحسب الملكية والادارة ، ثم يعرف المزرعة المستقلة والمزرعة المشاعة والمزرعة التي يزرعها ويستثمرها مالكها او المستأجر او المالك مع الشريك ، ويتحدث عن الامكانيات الزراعية الكامنة والمستوى الفني الحالي للزراعة السورية .

كيف نكتب تاريخنا القومي

اصدرت مديرية الارشاد القومي في وزارة الثقافة في الحلقة التاسعة من سلسلة كتب قومية كتاب (كيف نكتب تاريخنا القومي ؟) في

٢٤٠ صفحة . جمعت في هذا الكتاب نتائج التحقيق الذي كانت اجرته مجلة (المعرفة) وطرحت فيه سبعة اسئلة حول ماإذا كان يجب اعادة كتابة التاريخ العربي ، وقد اشترك في هذا التحقيق عدد من الباحثين العرب ادلوا بآرائهم كل حسب اختصاصه واتجاهه الفكري ، وكادت آراؤهم تجمع على ضرورة اعادة كتابة تاريخنا العربي على أسس جديدة ليحتل مكانه الذي يستحقه من التاريخ الانساني . ويختتم الكتاب برسالة من المستشرق الفرنسي جاك بيرك الى رئيس تحرير مجلة (المعرفة) حول الموضوع . والكتاب بمجموعه تأكيد لضرورة كتابة التاريخ مترابطاً كتاريخ امة واحدة ، وكحركة تاريخية كبيرة ترتبط بتيارات التاريخ الانساني العام.

نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث .. النثر . . أعلام الرواد

اختار الدكتور عبدالكريم الأشتر مدرس الأدب العربي في جامعة دمشق نصوصاً من الأدب العربي الحديث ، وقد نشرت له المكتبة الحديثة بدمشق كتاب (نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث «النثر : اعلام الرواد») في ٣٦٠ صفحة ، وهو أول كتاب في هذه الدراسة . ويضم نصوصاً للمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي (١٨٥٤ – ١٨٢٥) عن نضال مصر ضد الاستعمار الفرنسي ، ومقامتين للكاتب اللبناني ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٧١) ، ونصوصاً للرحالة المصري رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٧) عن باريس وثورة سنة ١٨٣٠ على الملك شارل العاشر وآراء الطهطاوي في تقسيم محصول الأرض بين مالكها وزارعها وفي تعليم البنات ، ونصوصاً للكاتب اللبناني احمد فارس الشدياق (١٨٠٥ – ١٨٨٧) عن المالطيين والانكليز والأتراك ورجال الدين والمرأة والحب والزواج ، وخطابين للمعلم بطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣) ألقى احدهما في الجمعية السورية سنة ١٨٤٩ وانتصر فيه لقضية المرأة وبين في الآخر الذي القاه في بعض المنتديات عام ١٨٥٩ آراءه في اصلاح اللغة والأدب . ويتضمن الكتاب صوراً من حياة هؤلاء الرواد وملامح تكوينهم ونتاجهم النثري ، مع قواعد درس النصوص على أسس نظرية وتطبيقية ، وهو مزين بصور نادرة لهم .

الفترة الحرجة ١٩٦٠ – ١٩٦٥

أصدرت المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت كتاب (الفترة الحرجة) للكاتب رياض نجيب الريس في ١٩٠ صفحة . وهي دراسات نقدية لبعض الروايات والمجموعات القصصية الشعرية . من الروايات The Road to beersheba (الطريق الى بئر السبع) للكاتبة البريطانية اثيل مانين ، و (بيت سيء السمعة) للكاتب المصري نجيب محفوظ ، و (الخيل والنساء) للدكتور عبد

السلام العجيلي ، و (رحلات بدمشق) للدكتور سهيل إدريس . ومن المجموعات القصصية (الساعة والانسان) للكاتبة اللبنانية سميرة عزام . ومن المجموعات الشعرية(شناشيل ابنة الجلبي)للشاعر العراقي المرحوم بدر شاكر السياب ، و (أحلام الفارس القديم) للشاعر المصري صلاح عبد الصبور ، و (القصيدة ك) للشاعر اللبناني توفيق صايغ ، و (الرأس المقطوع) لأنسي الحاج ، و(التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار) لأدونيس ، و (في البدء كان الصمت) لعلي الجندي ، و(غرفة بملايين الجدران) لمحمد الماغوط .

•

اخبار ثقافية

ندوات – محاضرات – كتب ودراسات – ونشاطات ثقافية مختلفة

● عقدت في المركز الثقافي العربي بدمشق ندوة قومية بمناسبة وعد بلفور ، اشترك فيها الاستاذ زكي الأرسوزي والدكتور أحمد طربين مدرس التاريخ في جامعة دمشق والدكتور خالد الصوفي مدير المركز . وفي المركز نفسه اشتركت القاصة ملاحة الخاني مع الشاعرة عزيزة هارون والشاعر شوقي بغدادي في ندوة ادبيـــة . وافتتح معرض الكتاب البلغاري . والقى الاستاذ أحمد الجندي محاضرة موضوعهـــا (بين الشعر والفلسفة) . والقى الاستاذ ندرة اليازجي محاضرة عن (المغزى الأخـــلاقي للوجود الانساني) . والقت السيدة عفيفة الشهاس محاضرة موضوعها (جرحوا الحقيقة بالمساواة) . وقامت الخبيرتان اليابانيتان (تازكو مايدا) و (سانشيكو كوباياشي) بعرض تنسيق الأزهار على الطريقة اليـــابانية ، وذلك بعد عرض فلم ماون عن هذه الطريقة .

● عقدت في المنتدى الاجتماعي بدمشق ندوة دارت حول ما إذا كانت المؤسسات التربوية في بلادنا استطاعت مجاراة التطور ، من الذين اشتركوا في الندوة أستاذ التربية في جامعة دمشق نعيم الرفاعي والدكتور بديع الكسم أستاذ المنطق في كلية الآداب والدكتور غسان المالح مدرس الأدب الانكليزي في جامعة دمشق ومدير التربية في دمشق عدنان بغجاتي والآنسة اسماء الشهابي مديرة الثانوية الثانية للبنات ، واختتم الندوة وزير التربية سليمان الخش . وفي المنتـــدى القى الاستاذ الرفاعي محاضرة موضوعها (هل نستطيع

قياس الشخصية ؟) . والقى الدكتور نور الدين حاطوم رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب محاضرة عن (لقاء الحضارات في عالم القارات) . وألقى الطبيب شفيق البابا محاضرة عن (الانفعال وأثره في حياة الانسان) . وقدم الفنان هاني الروماني دراسة عن الكاتب المسرحي بريخت . والقى مدير الثقافة الشعبية في وزارة الثقافة أديب اللجمي محاضرة عن حوار الثقافات . وكان المنتدى احتفل في ٢٩ تشرين الأول الماضي بالذكرى السابعة لتأسيسه .

● نشرت صحيفة (النهار) اللبنانية رسالة لمدير المسرح القومي الجزائري مصطفى الكاتب ، أعرب فيها عن اعجابه بنظرة السوريين الجدية الى الثقافة وبالمراكز الثقافية والمكتبات التي تحوي غرفاً للمطالعة خاصة بالأطفال في جميع أنحاء القطر ، وطالب المسرح العربي الحديث بأن يتجاوب ومهامه الاجتماعية .

● قرر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في سورية توزيع ١٢ جائزة تشجيعية على الشباب الموهوبين في مجالات الفكر والفن . ومن المقرر منح جائزة الدولة التقديرية في هذا العام لأحد الأعلام كما منحها في العام الماضي العلامة مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية .

● ستصدر وزارة الثقافة كتاب (الطبقات) للمؤرخ العباسي خليفة بن خياط وكتاب (تاريخ خليفة بن خياط) وقد حققها سهيل زكار المعيد في قسم التاريخ في جامعة دمشق ، وقد تمت طباعة (التاريخ) والجزء الأول من (الطبقات) ومايزال الجزء الثاني من (الطبقات) تحت الطبع .

● في المركز الثقافي السوفييتي بدمشق ، ألقى المهندس فلاديمير نيقولاييف محاضرة باللغة الروسية عن خارطة سورية الجيولوجية وكانت عباراته تترجم فوراً الى اللغة العربية وقد تحدث عن تعاون الخبراء السوفييت مع الخبراء السوريين في المسح الجيولوجي لسورية الذي أدى الى وضع خريطة جيولوجية مقياسها $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$ تبين توزيع الثروات المعدنية في سورية . وكان الموضوع الرئيسي للتعاونيين الهيئة السورية العامة للبترول وتكنو اكسبورت السوفييتية ، هو البحث عن النفط في الشمال الشرقي من سورية . وجرى التنقيب في (كراتشوك) و (السويدية) واول ما اكتشفت حقول النفط في (المالكية) ، وتبين أن الطبقات الجيولوجية تضم النفط والغاز ، وقدر احتياطي النفط في سورية في ١ كانون الثاني ١٩٦٦ بـ (٣٣٧,٣) مليون طن .

وبمناسبة الذكرى ٤٩ لثورة أكتوبر الاشتراكيــــة ، ألقى سكرتير السفارة السوفييتية بدمشق (إيغور سياتتوفسكي) محاضرة في المركز نفسه بعنوان (ثورة وثقافة) عرض بعدها فلم (نحن من غرونشتاد) وفلم وثائقي عن عيد أكتوبر في موسكو .

● يقيم مصرف التوفير و مونت دي بيدار

في غرناطة ، مسابقة لأحسن مقال صحفي منشور عن غرناطة بين ١ حزيران ١٩٦٦ و ١ حزيران ١٩٦٧ .

• في ٢٣ تشرين الاول المنصرم ، توفي في صوفيا الكاتب البلغاري الكبير ديمتر تاليف Dimeter Talev نائب رئيس تحرير صحيفة (الجبهة الأدبية) عن عمر يناهز سبعين عاما. كان آخر آثاره كتاب (اسمع اصواتكم) الذي صدر قبل وفاته بعدة أسابيع . وله آثار عديدة مترجمة الى بعض اللغات الحية . وقد ذكره الدكتور جون فياني – في رسالته المنشورة في العدد ٥٧ الماضي من المعرفة – في قائمة أشهر الواقعيين الاشتراكيين في بلغاريا الذين تغوص مؤلفاتهم في أعمق الاتجاهات والتيارات الخفية للتطور الاجتماعي وتتغلغل فيها عزة الايمان الوطيد والتفاؤل بالتقدم البشري .

• أحيت عازفة البيانو الاسبانية (كونسويلو كولومير Consuelo Colomer) حفلة في مسرح القباني بدمشق وقدمت برنامجا في التلفزيون ، وهي حائزة على الجائزة الاولى من كل من معهد فالانسية الموسيقي وبرشلونة.

• صدر كتاب (أدب القصة في سورية) للناقد ابن ذريل .

• اقام المركز الثقافي لجمهورية ألمانية الديموقراطية بدمشق حفلة في مقره ، بمناسبة افتتاحه ووجود نائب رئيس مجلس وزراء ألمانية الديموقراطية رئيس الجمعية الالمانية العربية في سورية .

• تلقينا العدد الثالث من الجريدة الادبية البلجيكية (مريدين Meridien) التي تصدر كل شهرين . رئيس تحرير الجريدة الشاعر البلجيكي (كلود ولمايرس Claude Wilmaers) أهدانا قصيدة باللغة الفرنسية .

وقد وجه الشاعر نداء الى جميع الشعراء في العالم والى جميع مدراء المجلات الادبية للاشتراك في المؤتمر العالمي للقصيدة الحديثة الذي سوف يعقد في مدينة (ليبج) في نهاية شهر آب ١٩٦٧ .



جولة الشهر

مع بريد المعرفة

١ - رسالة الى الشاعر المدني .
ومن فضله الى الشاعر القروي

٢ - قصة الأديب - قصيرة -

لفؤاد الشايب

الشاعر والكفن ..

من تنسج امته كفنه ، لن يموت . وله القيامة وحده . من ينزل الى القبر ، وآلام شعبه بعض آلامه ، لن يسعه لحده ، اويحتوي روحه أطار من زمان او مكان : كذا الشهادة .

من ارسل شعره مع نبضات قلبه ، فكان حبُّ امته في وتينه ، وتاريخ مجدها في ديوانه ، لن تنقضي له دولة شعر ، ولو انقضت ممالك ودول ، وآلت الى تراب شامخات القلل .

* * *

تأتيني هذه الخواطر وقبالة عيني نموذج الرجل الذي اعني :الشاعر القروي. والقروي صاحب الشعر القومي الذي

انشدته لَهَوات الألوف من شبان العرب منذ اربعين سنة ، مع مولد القضية العربية ، عندما كانت جماعات غير قليلة من متنوّري الزمان — المثقفين — في المهاجر والمواطن العربية على السواء ، تمجد سلطان بني عثمان على انه سلطان الاسلام وعزته ، واخرى تفرش الرياحين تحت اقدام الغاصبين الجدد ، على انهم حماة المسيحية في الشرق.

نصب عيني الشاعر القروي ، وهو يرمي العثمانية ، على انها تزوير لسلطان الدين الحنيف روحيا وزمنياً ، ويرمي المغتصبين الفرنجة ، ممزقي وحدة الأمة ، على انهم ردة القرصنة الصليبية ، وعلى انهم هرطقة على كل عقيدة ، وعلى كل دين .

في عيني وخاطري ، صورة القروي في البرازيل يناضل في سبيل الفكرة القومية العربية — ولم تكن يومئذ سوى هلال فكرة — في المجالس والأندية ، وفي الشوارع ، وفوق المنابر . واذ تُفتّح له ابواب المجد ، وتقبل عليه الدنيا شاعراً مجيداً ، وسيداً عربياً أصيلاً ، فتُرفع اليه القرابين ، وتُهدر بين يديه الهبات ، حتى لوشاء أن يُعير اسمه دكاناً صغيراً ، لغدا متجراً كبيراً — يُعرض عن كل هذا ، ويلبث متبلغاً بالقليل من زاد الدنيا . وعندما تشد عليه الحاجة حزامها ، فتكاد تزهق روحه ، يحمل حقيبة — كشة — فيها ازرار قمصان وربطات عنق ، ويتجول في ضواحي المدينة ، وفي جهات الولاية ، يبيع بضاعته ، ويجني كفاف عيشه، ويستريح في طريقه مستنداً الى جذوع الأشجار ، ينقر على عوده ، رفيق سفره ، ونجي فنه ، يبتسم لوجه السماء ، حالماً بمجد الملائكة .

ولكنها الملائكة ، التي تحن ابداً الى الأرض . والتراب، ارض فردوسها المفقود . وشاعرنا في غمرة من نشوة الحنين ووجيه، كان يرتقب على منعطف كل طريق ، أن تُقرع له اجراس العودة ، ليهب عائداً . وفي ذات يوم من عام ١٩٥٨ ملأت سمعه

أصداء الوحدة ، تترامى اليه من وطنه ، وقد طالما سبح باسمها وغنى ، فكان اول من حزم متاعه القليل ، وركب الجو والبحر عائداً . وفي ميناء اللاذقية استقبلناه ، باسم دولة الوحدة ، فطابت نفسه بلقاء الرسل التلامذة يضعون بين يديه زهور الولاء والوفاء . وما كاد ان يبتعد عن زحمة المرفأ الا قليلا ، حتى خرّ على الارض ، وقبّل التراب ومسح به وجهه ، وهتف من اعماقه : خي... خي... يارائحة بلادي (*) .

وكان مطلع قصيدته التي تغنى فيها بالعودة يومئذ ، قد ملأ سمع الزمان :

بنت العروبة هيئي كفني
أنا عائد لأموت في وطني
أأجود من خلف البحار له
بالروح ، ثم أضنّ بالبدن

* * *

(*) مهاجر منذ ١٩١٣ وعائد ١٩٥٨ .

طوبى الشاعر

وعاش الشاعر بيننا طوبى أحلامه ، وكان ينقل بين بيروت ودمشق والقاهرة غليل أشواقه . وكانت المجالس تعقد حوله ، والمآدب تهرق عطورها على يديه ، والمنابر توطىء هاماتها لقدميه . وما كان يتغنى الا بمجد العروبة ، وبوحدة وطن العروبة . وفي الشعر القومي كاد أن يحصر كل طاقات غزله ، ووصفه وبلاغته . فان لم يكن القروي ، اشعر شعراء المهجر — وثمة كما يقال ، أشعر منه غزلاً ، او وصفاً او فلسفة وحكمة — فهو بلا ريب اعرب العرب في اوطان العرب ومهاجرهم في القرن العشرين . لكأنه جُبل به في بؤبؤ عين العروبة ، وتكامل في قلبها وخرج منه . وهو الى ذلك اشعر شعراء عصره على الاطلاق ، في عكاظ القومية العربية . ولم يكن ثمة ماهو اعظم من شعره القومي

سوى سلوكه القومي (*) .

* * *

الخروج من الجنة

وبعد ٢٨ ايلول ، خرج عصفور الجنة من الجنة، وحُرِم من وقفة الخشوع، والشوق على ضريح ميسلون ، يقفها كل مرة يجيء بها الى دمشق ، ويعود منها الى لبنان . ومرة كنا نمشي على طول الرملة الطرية في شاطي (البربارة) ونتحدث فقال القروي ان ليس افدح من نكبة ميسلون في تاريخ العرب الحديث ، سوى نكبة ٢٨ ايلول . انما الفرق بين النكبتين ان الأولى عظمت بمجد البطولة ، والثانية ذلّت بصغار الهزيمة . وليس في الدنيا (ثمن سياسي) يعدل (القيم القومية) الخالدة . وليس بالأخطاء ... يُبرّر اقتراف الجرائم .

عاش القروي خمس سنوات عذاب، وقلق واضطراب ، مرّة قلبه وراء اخبار الوحدة ، ومرّة قلبه وراء اخبار فلسطين . وكان ابغض اعدائه اليه ، وحشته وشعوره بسجنه في بلده . وانه ليعالج داءه بدائه احياناً، فيقفل على نفسه في البربارة ، اياماً واسابيع ، ليس حول داره دار ، وليس امامه سوى صحراء البحر المترامية ، وسراب الشمس فوقها صباحاً مساءً ، لايخدع ولا يغنّي . حتى اذا نزح الى بيروت مستدفئاً او مستشفياً بين حين وحين اغرقته وحشة من نوع آخر بين جموع الناس، لكأنه في كهوف صخرية جليدية، لا يسمع في خوائها سوى اصداء السوء عن الوحدة .. عن فلسطين. ولست اعرف مواطناً عربياً بعد، كالقروي يمكن أن يشغل قلبه وعقله باخبار سياسة الوحدة وفلسطين ، إشغالاً يومياً متلاحقاً ملحاحاً، يبلغ به حد الإعياء ، والمرض ، والحمى. وحسبي من كل ما اعرف عن هذا الانسان

(*) «وهب انه أصاب من قال إني كان في وسعي أن اصير شاعراً عالمياً لولا حصري شعري في افق الوطنية المحدود ... فانني لست بآسف اني احببت بلادي ورامتي أكثر من نفسي ، واني حاولت أن افتدي مجدها بمجدي وخلودها بخلودي » من مقدمة القروي لمجموعة دواوينه — .

العربي الكبير ، أن اسجل هنا بعض ما اعرف .

النشوة العابرة

ومنذ عام ارسل الى (المعرفة) نشيداً قومياً في حركة الفدائيين ، مع كتاب ، ليس الآن موعد نشره ـ وقال لي انه وزع النشيد على عـــدد من المجلات العربية ، لأن جهة ما ، حاولت طمسه ، وهي بالأصل صاحبة الدعوة اليه ، ولا يدري ، كيف تريد هي ان تكون الأناشيد القومية . . !! وكان القروي قد نظم النشيد ، فيما تترامى الى سمعه انباء البطولات الفدائية ، فوق الارض المغتصبة . ورأيته ايامئذ في بيروت متوهج العينين ، مشرق الوجه ، سريع الحركة ، متوفز الاعصاب ، كأنه في الاربعين او دونها ، يكثر من عقد المجالس ، والاتصالات ، داعياً الى عمل فدائي تتفجر به الارض العربية من اربعة اركانها . عمل ليس بوسع العدو أن يضع يده عليه الا اذا كان بوسعه ان يمسك بنواميس الزلازل والبراكين . ان سياسة تحرير فلسطين واحدة ، لا ثانية لها : الفداء والتنظيم الفدائي . ومن خشي ركوب الموج ، هان عليه الموت جوعاً على صخور الشاطىء .

وعودة الى الوحشة

ومرت أيام وشهور . وكان الاصدقاء ممن يقدمون الينا في دمشق ، يحدثون عن ضيق القروي في حياته ، ووحشته في بلده ، وخيباته في آماله ، وارتكاساته بين الأمل الكبير واليأس المرير . كأنه الوحيد القابض على تيار الصاعقة . عندما ابلغني صديق في رسالة : هاجر القروي ، في الخامسة والسبعين من عمره . . عائداً الى المهجر . . !(*)

لم أفاجـــأ وانا أعرف القروي في الاعوام الاخيرة معرفة مشارك في هواجسه ومخاوفه . ولكنني لم اكن اتوقع مهما عض عليه الحدث وبرّح بـــه ان ينزح مهاجراً ، فلا يقوى على الحياة في وطن

(*) في الثامن على وجه الصحة ولد القروي عام ١٨٨٧ .

عقد العزم على ان يموت فيه ، ولو ان وسادته من حجر ،ولحده حفرة في رمال.

مع شقيقه الشاعر المدني

كان بيني وبين شقيق القروي – الشاعر المدني – قيصر سليم الخوري ، في البرازيل ، مراسلات ادب وود ،وطدها القروي بأحاديثه الكثيرة وذكرياته عن هجرته ومقامه في دار الاغتراب. فرحت اكتب لقيصر اسأله ان يحدثني عن اخيه ، ماخطبه ، واين مقره. ولماذا نزح وكيف لم يودع قريباً او صديقاً. وسارع الشاعر المدني الى الجواب مهوناً علينا الأمر ، مخبراً ان للشاعر مشاغل يقضيها وسيعود. وأما عن سؤالي: هل حنث الشاعر بوعده:

بنت العروبة هيئي كفني
انا عائد لأموت في وطني

اجاب الاستاذ قيصر ان القروي لايخنث بوعد . ولكنه حجب نص رسالتي عن أخيه ، في ظرفه الراهن . وهو نوع من النطاق حول هدوء الشقيق وراحته . واضاف : « ولكنكما ستلتقيان انشاء الله . وجو العروبة أشد صفاء. والرجعية مشاولة لاتسعى .. ولاتتحرك !! »

أخي قيصر

لاأدري من سيستلم عدد (المعرفة) هذا من ساعي البريد ، عندمايطرق بابك في بلدة سان فيستني – شارع انطونيو أمريك – رقم ٣٧٣ – ولاية سان باولو – البرازيل – أأنت ام القروي . فاذا سبقك اخوك الى الساعي ، كان ذلك ما اتمنى وماطلبته ليلة امس من ممسك النجوم في افلاكها . واذا كنت انت السابق الى استلام (المعرفة)فلست اخمن سلفاً مايكون قرارك ! أتحجب المعرفة كما حجبت الرسالة ، ام تفتح الاثنتين معاً ، وانت على يقين من ان القروي لنا ، مثلما هو لك ، أخ وحبيب . وانـه له مع (قيصر) و (اديب) اخويه ، في سانت فيسنتي ، الف قيصر وألف الف اديب في طول ديار العروبة وعرضها ، يهلعون لفراقه ، ثم لايسلمون معه ، او معك ، بقرف الشاعر من السياسة ، وبارتخاء

كف الفارس عن مقبض السيف. لا سيما اذا نشأ عوده على النضال وتمرس على الشدائد، وأبلى كما ابلى الشاعر القروي في دفع المعركة السياسية، منذ ايامها الاولى، نحو ذراها القومية، ومجاليها الثقافية واسهم في تفجير الوعي القومي، وانقاذ القضية العربية، لدى جمهورها، من مفارقات السياسة، ومساومات النخاسة. والقروي أعلم المنهمكين في القضية، واكثرهم احساساً بأن السياسة القومية في منطلقاتها الجديدة، طفقت ترسي قواعدها الشعبية، وتعمق ابعادها الفكرية، بحيث يمكن تطهيرها من زيوفها ومن عشوائيتها، ومن الخابطين في الضلال، والحاطبين في الظلام. وليس الا بالنطاق المترابطة حلقاته، من ثقافة واعية، وفكر متحرر، يُضرب حول تلاطم التيارات السياسية - تنضبط حركة السياسة ضمن ناموس من المد والجزر، ناظمه الأول والأخير، وعي ثقافي اجتماعي شعبي، يستطيع وحده ان يميز بعفوية ذكية صادقة، بين ابناء القضية وجنودها، وبين المتسللين اليها، العابثين بها، المتنفعين بواسمها ودوراتها.

ان الناظر، بالاستاذ قيصر، الى مستقبل القضية الكبرى، في افقها المتوهج ومصيرها الهاتك اسرار الغيب، ليس كالناظر اليها في حاضرها بين ركام من دخانها وغبارها. ان الناظر الأول، يجب ان يكون - وانه لواضع نفسه حقاً - في صف القيادة الفكرية لسياسة المعركة، لأنه عقل منوّر بطاقة الايمان. ولكن الثاني حشر نفسه في زمرة البائسين المعذبين عندما قام المستقبل في عينيه، فألقى نفسه في جب لا قرار له. ان المدى الزمني لامتداد الوطن، ليس قياسه مايقع بين انف الناظر والأرض تحت قدميه.

والقروي ليس من القضية ماضيها، برغم ثمانينه ومآثرها بل مستقبلها ايضاً. لأنه الرجل القدوة، والرائد الطلائع، والريادة ليس في مؤخرة الركب مع المتسكعين. والقدوة ماكانت سوى استمرار دفق الحياة صعوداً في ثنية

مستقبل لانهاية لدهره ولاحدود لزمانه .

وما عرفنا القروي في حياته وفي شعره معاً ، متردداً او يائساً . وهو قائد معركة (الاستقلاليين) ضد (الاحتلاليين) (*) ، في الثلاثينيات ، من هذا القرن ، عندما كانت (صنبول) (**) حاضرة العرب في اندلسهم الجديدة تضج بحمحمة الخيول ، وقراع السيوف ، لكأنها في غليانها واحتدام اهلها ، رصيف على ساحة الشهداء في دمشق ١٩١٧ او جناح مدجج من غوطة دمشق ١٩٢٥ . وكان القروي في المعركة، ينام على صهوة الخطر ، اذا نام ، بينما يتنقل من المحافل الكبرى وانوارها ، الى الأزقة مشياً على الاقدام ، والامطار تغرقه ، وليس في جيبه نحاسة كروزيرو واحدة (***) . وكان عناء الإباء ، وعذاب التضحية ، يملآن روحه غبطة صوفية ترفعه الى اعلى عليين .

ويوم كانت اخبار الغربان تنعق بفشل القضية العربية وتتذرع بمفارقات السياسة واباطيلها لتطعن في قيمة العروبة المطلقة ، كان القروي صرخة للحماس مدوية ، ووقفة دون الردة صامدة ، وكفاً سمحة تمسح الجزع عن جباه المخذولين والمتخاذلين (****) .

وتقول لي يا قيصر ستلتقيان وجو العروبة اكثر صفاء .. والرجعية مشلولة لاتتحرك ، ولا تسعى !

(*) من مصطلحات العرب في البرازيل آنئذ : وفي ذلك قال القروي : « لاينثنيني اغراء الاحتلاليين ولا تهديدم . كم زل عن شاهق إبائي وعد ، وتململ تحت اخمصه وعيد » .

(**) تعريب سان باولو — القروي —

(***) وحدة العملة البرازيلية .

(****) «ويقولون فشلت العروبة. قولوا بل عوقت عن النصر الى حين . ثم كان المؤتمرون بها م الفاشلين . من سار على نور العروبة لم يضل ومن عمل بوحيها لم يضر: بميثاقها تزول القطيعة، وعلى شاطىء وحدتها يتكسر الاستعمار ، وعند آفاقها يقف زحف الليل ، فأين كانت خيلها فهنالك تعقد الوية النصر ، وتتمخض ابواق السبق في المضامير . كل حزب لايولد من صلبها فهو دخيل عليها ، متربص بها — من مقدمة دواوين القروي — ١٩٥٢ .

انني على مثل ايمانك . ولكن متى كان القروي ، تحت قرع الصواعق يلجأ الى الكوخ الدافىء ليرتقب من خرت فيـه ، صفاء الجو واشراق الشمس ليخرج مع خروج النـاس . ومتى كان القروي من كهان الهيكل الذين لا عمل لهم سوى ان يقرعوا الصدور ، ويضرعوا الى السماء أن تنهزم الرجعية . وهو الذي لم يبرح طوال عمره ، يحطم ارجلها ، ويبطل سعيها ، ويرجم جبهها والهها .

اتريد ان اقرأ عليك من شعره ، أم من نثره ، أم سطوراً مشرقة من تاريخ حياته !

تقولون : وثمانونه ! واقول وانا شاهد واثق ان ثمانينه اشمخ على الدهر من ثلاثين أو اربعين الكثيرين الذين فقدوا الرجاء ، وقبضوا اكفهم ونفوسهم عن العطاء ، فهم قاعدون يبررون لربهم قعودهم ، اومنسدحون على قارعـة الطرق ، يتكسبون من خسة الياس وافلاس الرجاء .

أوليس القروي في ميدانه ، صانع صفاء الأجواء ، اوقادح وميض يشق كبد الظلماء نوراً وناراً !

وما قولنا لقائل : اذا يئس القروي فمن بعده يرجو ؟ واذا أدبر فمن يقدم ؟ واذا هاجر الى المهاجر ، فمن ذا الذي يعود منها !

ماقولنا لقائل : رجعت الحمامة من ارض الطوفان ، ولكنها لاتحمل في منقارها غصناً أخضر ... بل طيناً أسود .

وما قولنا لقائل يردد جواب القروي منذ عشرين عاماً عندما تبرعت له الجالية العربية بمال وفير ، تبني به له داراً ، فردّ المال (مؤثراً على قصر في الغربة ، قبراً في الوطن ..!)

لولا ان بعض القول مثل صئي العقارب ، وفحيح الحيات ـ وكم يكره شاعرنا من اعدائه تلاحمهم مع هـذه الحشرات وتوافقهم .

... ولولا ان الذين أسالوا الماء الى كل بيت في (البرباره) وقطعوه عن

بيت القروي ، وأوصلوا الكهرباء الى كل زاوية ، واوقفوها على مسافة خطى من زاويته .. لولا ان هؤلاء قد كسروا وراء الراحل جرارهم ، واطلقوا صرخات جوقاتهم : اراح واستراح !

لولا أن هؤلاء الذين ثقل وجوده على صدورهم ، فزفروا الحقد عندما نزح ، وتنفسوا الصعداء ، وهم يحسبون ان اعتزاز الشاعر بكرامته غرور ، وإباءه للمذلة استكبار ، واحترامه للقيم والمبادىء ، احتقار لهم واعراض عنهم ...

لولا هذا ، وكل هذا . ولولا هؤلاء واولئك ... من هنا ومن هناك ، ممن حزنوا او شمتوا لما كنت طويت تساؤلي في رسالة ، ونشرته من بعد في رسالة ولما كنت قلقاً ، ملهوفاً ألتمس البربارة في ضباب ، فلا أرى من خلال غلالاته ، سوى بيوت مهجورة ، وكروم بلا عناقيد وغربان تملأ اغصان الاشجار اليابسة .

تقول في رسالتك يا أخي تهويناً وتصبيراً وحسماً للسؤال ان الحاحك على اخيك قد حمله على السفر ... (وقد عقد النية ان يبقى بيننا سنة واحدة ، فعسى ان يكون عدد شهور هذه السنة ، اكثر من عدد ايام الشهر . !) لماذا !

لماذا أنت قاس على اخيك يا أخاه ؟ ولِمَ تظلمه بحبك . وكأيٍ من مُحبٍ هدر حبَّه بظلم حبيبه !

فياصديقي ! اننا لاندعو القروي الى ان يموت في وطنه — كما يريد هو — بل ان يعيش لأمته كل خفقة من خفقات قلبه ، وكل ثانية من ثواني عمره — كما تريد هي — .

وأما الكفن الذي تمناه نسيجاً بيد امته . فأقل مالدينا من علم ويقين ، ان مابين حياة القروي ويد امته ، ليس نسج اكفان ، بل ضفر اكاليل من غار . والقروي عندما يستريح من نضاله ليس من الاجساد التي تُدرج في اكفانها ، بل من الرؤى النورانية التي تحتضنها عين الشمس لتوزعها على اطراف الدنيا ، مع اطلالة كل فجر ، واشراقة كل صباح .

وأخيراً ، لن اتخطاك يا أخي الى

اخيك ، فاخاطبه من النافذة السرية ، في الجدار الخلفي ؛ وانت رضوانه وسجانه، وتريدان تكون وحدك ادرى الناس بصحته وراحته ، وهدوء باله .

ولكن اذا مابلغتك هذه الرسالة المفتوحة، وكنت انت اول من يقابل ساعي البريد أمام الدار رقم ٣٧٣ - فلا أقل من ان تنقل الى القروي ، اوينتقل اليه عبرُك ، انتقالاً تلقائياً ، بعض جزعنا ، وبعض شوقنا ، عسى ان يشيع في ركنه بعض الدفء فيلين ويرضى ، وهو على ماوُصف به من اعتداد بالنفس وكبرياء ، لأضعف الضعفاء، أمام دفء المحبة، ودعوة الشوق .

وسلام حتى اللقاء

قصة الاديب - قصيرة

تنادى ادباء العرب ، في كل مدينة وقطر ، في المواطن والمهاجر ، للاحتفال بتكريم اديب عانى الادب ، وحمله على كتفيه طوال خمسة وعشرين عاماً ، بمشقة وعناء ، وهو الاستاذ البير اديب ، صاحب مجلة (الاديب) في بيروت .

وليس من الامور اليسيرة أو المألوفة على الأقل في شرقنا العربي ، وربما في الشرق قاطبة ، ان يرابط ويصابر في ساحة الأدب ، أديب ، ينهض باعباء عمل نشري جدي فادح ، منفرداً ، لاتثنيه صعاب ، ولا تحوله عن عناده مشوقات الارزاق الميسورة ، ونداءات الكروم على الدروب .

خـلال خمسة وعشرين عاماً من تاريخ النشاطات الأدبية في بلاد العرب ظهرت مئات المجلات الثقافية ، وتوارت مئات . منها ماعاش خمساً وعشراً ، فكان جباراً عنيداً ، ومنهـا ما ثابر اربعاً أو ثلاثاً ، فكان مناطحاً مكابراً ، ومنها ما عاش سنة قمرية بين اول رمضان وآخر شعبان ، فقيل أتم الحول ، فبسملوا له ثم حوقلوا . ومنها ماتصرم بين شهر وشهر ، وصباح ومساء ، كطيف تداولته انوار وظلال ثم توارى .

ومنها كذلك مابدل من إهابه ، وغير من قبلة محرابه شكلا ومضموناً ،

وطولا وعرضاً ، واصلا وفصلا من الوسط الى اليمين ، ومن اليمين الى اليسار ، ومن فوق الى تحت ومن أدب صرف الى ادب ممزوج بالسياسة ، ومن سياسة صلبـــة كالسيوف الى فن طري كهدب العيون . وزخرت مجلات الثقافة بكواكب السياسة ، والشاشة ، حتى اصبحت مجلة كالأديب ، على وجه الكرة العربية ، نموذجاً لاندحار التطور ، وظاهرة عجيبة من ظواهر الثبات المجوج والصبر المكروه والحرون الملعون.

وعندما اكتشف بعض الرفاق عن طريق الصدفة ، أن ثمـــة على الشاطىء اللبناني مجلة تدعى (الاديب) وصاحباً لها يدعى (البير اديب) اذهل الاكتشاف جمهور الناس، فاقبـــل حوله المتطفلون والمصورون ، والمشفقون على العتيق من الجديد او على الجديد من العتيق. واحاط به جمهور من الخبراء ، والاطباء والوسطاء كأنه هبط على التو ، في الاطلسي بظلة تحمل جيمني ١ .

وعندما سأله الصحافيون : حدثنا عن هذا الصندوق العجيب الذي حملك في الفضاء .. مع جميل الكلام والهواء، وربع قرن طويل . حدثنا .. عن انعدام الوزن لكثرة الاقتصار ، على قلة الغـذاء ... اجاب : ذرعت الفضاء بالطول وبالعرض، فوار أعجب من سكان هذه الارض . فصفقوا طويلا للتصريح . واغلب الظن ان المحتفلين سيحملون رائد الهواء (البير اديب) على الاكتاف .. وأما مركبـــة (الأديب) ، فسيتركونها تغرق . .

المهم انهم احتفلوا ، ياسيدي، وليس المهم أن يعرفوا لماذا ؟!

نعيمـــاً .

سلسلة
كتب قومية

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة كتب قومية، تهدف الى اغناء ثقافة المواطن العربي بالبحوث التي تمس اهم شؤونه ومرافقه ، ومشاغله الفكرية والقومية ، وتوزع بأسعار زهيدة رغبة في تعميم الفائدة منها ، وتحقيقاً لهدف اساسي من اهداف الوزارة .

وفيما يلي بعض البحوث التي صدرت في هذه السلسلة الجديدة :

التسيير الذاتي والتجربة اليوغسلافية — **للدكتور صلاح وزان**
« صدر في الحلقة الاولى »

التخطيط الاشتراكي — **للدكتور عبد الله عبد الدايم**
« صدر في الحلقة الثانية »

المغتربون العرب في امريكا الشمالية — **للدكتور جورج طعمة**
« صدر في الحلقة الثالثة »

القومية العربية في القرن التاسع عشر — **للدكتور توفيق برو**
« صدر في الحلقة الرابعة »

الفن والقومية — **للدكتور عفيف بهنسي**
« صدر في الحلقة الخامسة »

الموقع الاستراتيجي العربي — **لهيثم الكيلاني**
« صدر في الحلقة السادسة »

الاشتراكية في البلدان المتخلفة — **لمحمد الجندي**
« صدر في الحلقة السابعة »

التحويل الاشتراكي الزراعي في سورية — **لأحمد محمد الزعبي**
« صدر في الحلقة الثامنة »

كيف نكتب تاريخنا القومي — **تحقيق مجلة المعرفة**
« صدر في الحلقة التاسعة »

التنمية الاقتصادية — **لعبد الله مكسور**
« تحت الطبع »

الاعلان في (المعرفة)

اعتمدت لجنة الادارة والتحرير اعتباراً من مطلع عام ١٩٦٦ تعرفة نشر الاعلانات في المجلة على النحو التالي الذي قرره مجلس ادارة المؤسسة العربية للاعلان :

	لمرة واحدة
صفحة كاملة من الصفحات الاولى او الاخيرة	٢٠٠ ل.س
نصف صفحة من الصفحات الاولى او الاخيرة	١٢٥ ل.س
صفحة كاملة من الصفحات الداخلية	١٥٠ ل.س
نصف صفحة من الصفحات الداخلية	٧٥ ل.س
الغلاف الخارجي (ابيض واسود)	٣٢٠ ل.س
الغلاف الخارجي بلونين	٤٠٠ ل.س
باطن الغلاف (ابيض واسود)	٢٥٠ ل.س

توزع مجلة (المعرفة) على نطاق عربي واسع يشمل جميع البلاد العربية في المشرق والمغرب.